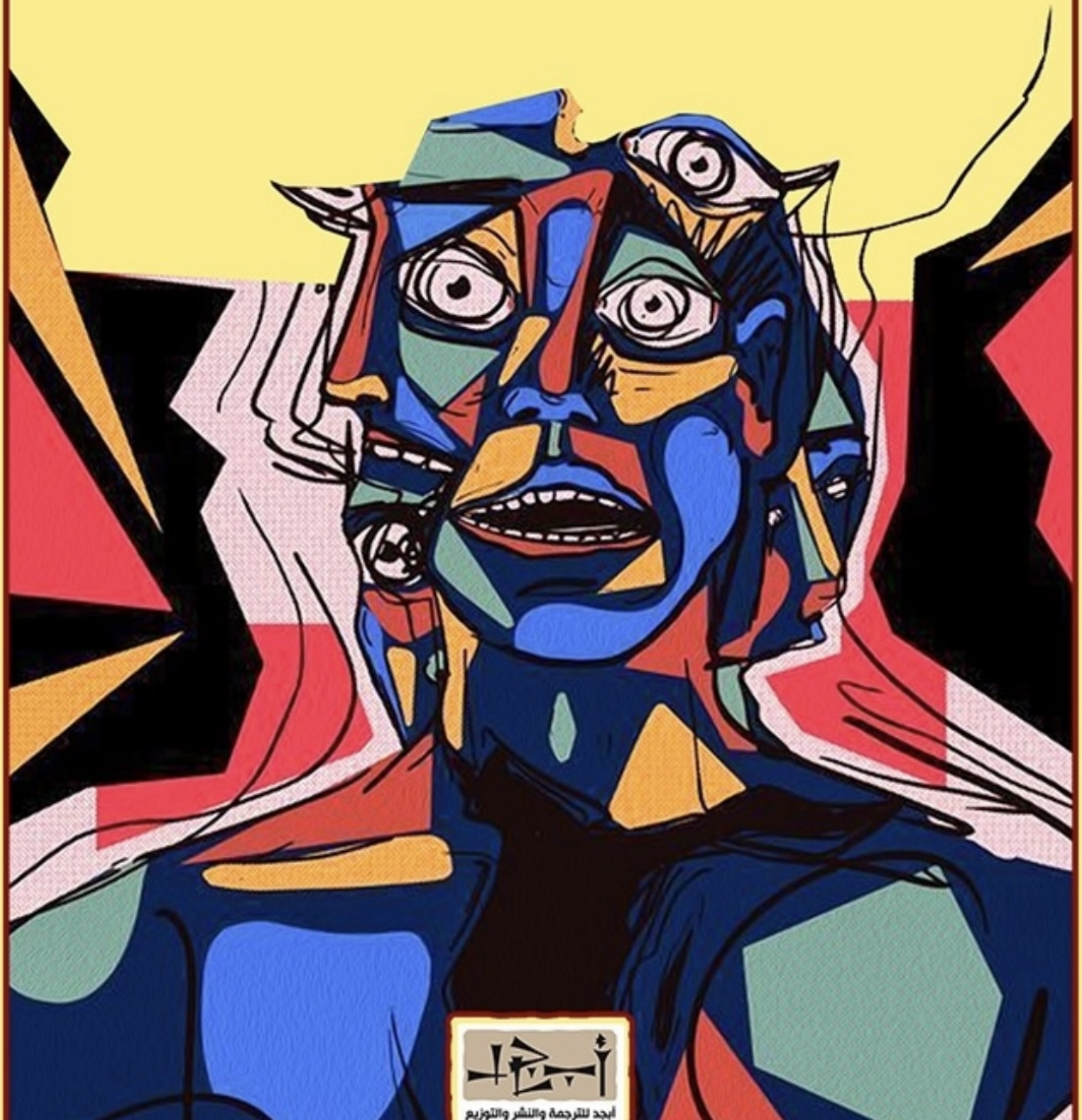
روايــة

بنـات النـفس

ياسين الغُماري



أبجد للترجمة والنشر والتوزيع
Ebjed for Translation, Publishing & Distribution

بنات النّفس

عنوان الكتاب: بنات النّفس

تأليف: ياسين الغُماري

التصنيف: رواية

التصميم الداخلي: مؤسسة ابجد

تصميم الغلاف: وحي للتصميم

978-9922-736-15-0:ISBN

أبجد للترجمة والنشر والتوزيع

Ebjed for Translation, Publishing & Distribution

الطبعة الأولى

2024

مؤسسة أبجد للترجمة والنشر والتوزيع

العراق – محافظة بابل – الحلة – شارع أربعين

جوال: **009647831010190**

info@ebjed.com

رواية

بنات النّفس

ياسين العُماري

هاته الرّواية خيال محض ولئن تباينت بعض الشخصيّات بالواقع فهو غير مقصود من الكاتب.

المجتمع ينهار، وبدأ الناس بإدراك أن سبب شعورهم بأنهم مرضى ذهنيًّا يعود إلى أنّ نظام المجتمع لم يصمم ليناسب روح الإنسان

راسل براند

وإذا نظرت إلى الهاوية لفترة طويلة، فإن الهاوية تنظر إليك..

فريدريك نيتشه

(1)

أنا مؤمن يقينًا أنّ هُناك شيئًا يُراقبنا باستمرار: للأسف إنّها الحُكومة

وودي آلن

كانت الشمس على أُهبة المغيب وكان الجوّ باردًا إلى أقصى حدّ من الحالات. كان خريفًا غاضبًا بارتباكات والتواءات وتحوّلات وتقلّبات. مكنونات بشريّة أرداها جليّة، على مرمى البصر. حتّى الهمهمات تبدّت حادّة الانكسار من صقيع ينزف. في أحد أمسيات نوفمبر، يمتثل "نديم" على الرّصيف، يتأبّط كآبته، مُرتقبًا سيّارة أجرة. سرّح نظره إلى نفسه وتساءل: من أنا؟ أنا لمن؟ أيّ شيء أفعله هُنا؟ لمن أرتّب نفسي كل يوم؟ إلى أيّ حد يشعر بالمضاعة؟ عارٌ أن يجد نفسه في هكذا صخب. لم يكن حقيقيًا ولا زائفًا. كان يشعر فعلًا بأشياء كثيرة ومنها رهيبة. كثيره ثابت في خُموله. حلّقت بومة وارتكزت على عمود ذي ارتفاع على قدر من الأهمّية. حملقت بـ"نديم"، وخلال لحظة خاطفة، أطلقت نعيقًا حادًا مُتّصلًا. ونظر إلى المارة بنظرات ثاقبة، أولئك الّذين فقدوا الوعي بسبب

الاستهلاك المفرط للسموم الّتي يُروَّجُ لها، كان مشهدا فظيعًا بشعًا، فاقتصر كل ما فعله، في ذلك الوقت، على أن يُوقد لفّة من الحشيش تباعًا كمُتنفّسٍ ليزيح عنه ثقل التّفكير ولو لمامًا. وجذب منها بضعة أنفاس. إنّها ليست بالأرض الّتي يتشهّى البقاء فيها. لقد ملّ التّريّث، كان قد تنبّأ اليوم بأن صبره لن يستمرّ طويلاً هاته المرّة، مثل كل الأوقات، بيْدَ أنّه سئم ذلك الانتظار، إلا أنّ شيئًا في أغواره يُحيطه علمًا بأن يقبع على قيد الانتظار، بذرة الانتظار تنمو في دواخله ولا يتحقّق أي من انتظاراته السّحيقة.

غالبًا ما يقول في الموارا ة:

"دع ملذّاتنا تُستهلك في أوانها، ولترحل عند انتهائنا منها"

أدرك بومة ثانية تطير من مسافة وتصدر نعيقا بشكلٍ مشؤوم.. ثمّ استندت إلى قطب الكهرباء تُطالعه بأعينها الكبيرتين. يُطالع الصّنف النّابذ لإستهلاك السّموم. يمشطون الأرصفة عشوائيّا، يغلون كخليّة نحل، ومكان المواد الضارة يصدرون طنينًا مزعجًا، ولا يملّون من سرد مشاغلهم إلى بعضهم بعضا، والمستمع لا يُنيلهم اعتبارا. كانت المعيشة قاتمة لونًا أو أشدّ قتامة ممّا يتخيّلها البعض. كانوا بنفس المركب، غير أنّ الحياة في ذلك الشارع تختلف عن هذا الشارع، في ذلك البيت عن هذا البيت. و ثمّة من يتطفّل من أحشاء

المباني لأنّه انتفى العتمة والمجاهل. اِمتشق النّظر إلى المتسوّل الّذي كان مستلقيًا على الرّصيف، بكّاءً يمدّ يده إلى الخواء، مُرتقبًا دينارًا باليًا يسد رمقه ويُوجد حبل مشنقة في المنطقة المجاورة له، مهدّدًا بالانتحار تباعًا، العلنَ يحتقره لأنّه رثّ الثّياب ورثّ الأحلام، والمارّ ذو المعطف الأسود الثّمين، صاحب العطر الأخّاذ، حليق الذقن، لامع الحذاء الّذي لا تشوبه شائبة حتّى أثناء هطول الأمطار الطوفانية، كبرياؤه الشّامخ وهيأته المُتعالية عن كل ما هو قذر، يقذف الشحاذ، في سرّه بكلمات نابية:

"أيّها القذر"

كان ينظر إلى المارّة ومن فرط غرابتهم يقرأ العجب. كان نهاره بالشّركة شاقًّا كثير الشّيء. ما أردأ ما كان يومه. هذا ما تكون عليه الأشياء ولا شيء آخر. بطنه تزوم من فراغ الأكل. رشق نظرة خاطفة على يساره، في حين لبث الهواء يلفح وجهه ويضرب شعره. غير مُكترث وعلى غير ما يُرام. باغته ألم حادّ في رأسه، فأغمض عينيه و أدركه دوار طفيف والهواجس مُتشتّتة في رأسه، تضرم النّار وتتناثر صُور خيباته.. يُلازمه شُعور باللوم والتوبيخ. جعلته الرّياح يمشي القهقرى بثِقال الخطى. تنبعث روائح دبقة ولاهثة من عربات صنع فطائر «سيشي» لم يُحسن صنيعها على

أكمل وجه. لامسه أحد العابرين آنذاك وساءله عن السّاعة. فلاحت منه التفاتة على نحوٍ تلقائي وشرود قاتم يلفّه.. ثم غمغم بصوت خفيض. لم يسبق له أن تسبّب في الضّرر للآخرين، بل هم الّذين تسبّبوا له بكل ضُروب الأذيّة. عن طيب خاطر لا يصيخ السمّع لكلّ من هبّ ودبّ. ليس من الحصافة أن يدنو منهم. عندئذٍ، اعتراه حسّ رهيب واندفاع عاجل للتقيّؤ، وقسمات وجهه ملتهبة، ثمّ نأى بنفسه عن الغريب. دُون أن يكون لديه أدنى وجود بالعالم المُتخارج عن حُدوده.

تسمّر في موضعه وسرعان ما عاد إلى سجيّته، موجهًا عينيه إلى ساعته اليدويّة وهاتف الشخص:

"إنّها ساعة الضّياع.. ما بعد التفكير.."

هتفت السّماء وهتنت..

رنّ هاتف "نديم". قرأ الرسالة:

"سنرسل لك سيّارة أُجرة تحيّاتنا"

راح يُورّق جريدة.

كان مقال أحد الصّحف كالتالي:

سجن المدعو "شخص حقيقي" بجريرة الإفراط في التفكير

أُلقـى بالمـدعو «عقـل سـليم» بـين أحضـان السّـجن بعـد أن أعـدّ صـاروخًا علـى مسـافة عشـرة كيلـومترات. هـذا المُـواطن المسـكين الّذي كـان عـزاءه الوحيـد هـو صـرف انتباهـه عـن المدينـة واحتضـان اختراعاتـه. وأقـرّت السـلطات أنّ كـل مـن شـاغله الشـاغل التفكيـر، سيكون مُدعاة إلى دفع غرامة ويُسجن. قد أعذر من أنذر. حشيش طيّب أيّها المُواطنون، أيّتها المُواطنات..

وفدت سيّارة أجرة وامضة من فراغ الوُجود، وتوقّفت أمام "نديم" دون سواه. امتطاها وقبل ذلك رمق الغريب بابتسامة فاترة... يغزوه دومًا شُعور بالكبرياء بيْدَ أنّ تواضعه بحر شاسع مُمتد.

يصدح صوت:

"أليس هُنالك ثقب يقذفنا عن حدود العقل؟

يتنامى صوت آخر:

"التفكير... المنجى الوحيد ممّا يحدث لنا"

كـان مكانًـا لليـأس والاستسـلام فـي مدينـة الأشـياء اللامعقولـة. ولّـى راجعًـا إلـى شـقّته. أغلـق البـاب برفـق. علّـق معطفـه ووضـع حافظتـه. عمد صوب المطبخ. يجري الجُوع في عُروقه مجرى التّعب. هـمّ بتهيئة عشاءه. قام في ظنّه، متى قال وداعًا لكل الأشياء الّتي أبدًا لا تُحاول من أجله، أنّه سيحيى على وقع حياتي حافل بالمبهجات غيْر

أنّه ألفى نفسه يعمل يوما بعد يوم ثمّ يُولّي راجعًا إلى مسكنه مُجهدًا، فيُدرك المنام. ليس ندًّا لأحد ويريد أن يكون في راحة عنهم لا يربطه بهم رابط. فهو رجل لا تقع منه الأشياء، بل هو الّذي يسقطها. قليل الثقة بنفسه وعظيم التكابر بنمط عيشه. لم يجد الرّفيق في نفسه ولا الأنيس بجواره. كان رجلًا لا يُنسى ويسهل تمييزه من اللقاء الأوّل. ومن الرّعيل المنحازة لإيلاء حظوة شاهقة لأفعالها وأقوالها. كما أنّه من الزُمرةُ الّتي تأكل طعامها بمنأى عن التلفاز خشية أن تُبثّ أفكاره على قنواتها. يركن إلى المائدة ناظرًا بشكلٍ عفوي إلى الحائط ليلتقي بأصدقائه الخمسة، فيوبّخ الأوّل لغيظه المستمرّ. ويمدح الثّاني لهدوئه ورصانته. أما الثّالث ففاهه مخيط. على هذا الأساس إيّاه لا يأبه له. ويلبِث يؤنّب ضمير الرّابع، عساه يُحجِمُ عن المُماطلة، ثمّ الخامس، أخيرًا الخامس المُخاتل، الّذي يمسك بزمام المسائل، الخطير الذي يتهدّده كلّ يوم ويُحيطه علمًا بأن حياته يسيرة المنتهى. كان مُترفّعا بالعزلة المُتصلة. وقُبيل القُعود على رأس المائدة، انحنى إلى المقعد المُقابل وسحبه قليلًا. ثم تابع حديثه لوقتٍ طويل: "تفضّلوا بالمكوث يا سادة. أرجو أن يحوز إعدادي إعجابكم. لقد أعددت لكم. طبقكم الأثير" يعنّ له أن يتحدّث إلى نفسه. ويرفض، بأيّ شكلٍ من الأشكال، أن

يتحادث عن الآخرين. إنّه على صواب الطريق إذا كان بمفرده وإنّه في رذائل الكون إذا كان في كنف الجماعة. كانت أمسية مُعتدلة إلى أن أبرقت العجوز "ريماس"، ذات غُضون شديدة السطوع، وترهّل كثيف على مستوى رقبتها. وعلائم مُبقّعة. ترتدي روبًا أسودًا فضفاضًا كسواد ما تضمره من غيظ وأحقاد، وتضع كمية وفيرة من البودرة. مجاهدة فاشلة لبُلوغ الجمال.. أحمر شفاه قاتم. ويضيف الكحل شيئًا غريبًا إلى عينيها.

بيديه الثابتتين، قهقهر "نديم" الكرسيّ، وضع المنديل على رقبته واستأنف قائلًا:

"بالصّحة والعافية لكم.."

قطّب جبينه مُندهشًا وتراشق النّظرات مع المرأة العجوز..فتجاهل المسألة. تجاهلها بالكامل وانكبّ على مقعده. رجم نظرات صوب العدم فيما الخواء يرتسم على محيّاه. استردّ إلى ذاكرته كل ما خَبِرهُ. ينتظر لحظة ثمّ أبدًا تمامًا كما كان ينتظر أزلًا. ما الّذي يركله إلى الذّهاب إلى هكذا مكان.. الخواء؟ أيرتبط الفرار بالاستسلام والسّلام؟ ما الّذي يجعله عليلًا ومشؤومًا جدًّا إلى هذا القدر؟

يُعاملهم مُعاملة الخصم اللدود، طالع الكرسيّ وصاح:

"إلّام تنظرونني.."

يطفو الصّياح. فتشمخ المرأة العجوز برأسها.

شبك الذراعين. احتسى كثيرًا من الخوف والغرابة:

"أغسلوا الصّحون، بلغ منّي الجُهد.."

قالت "ريماس" بعد أن ترشّفت بعضًا من الويسكي:

"نيّق"

فجّر حاجبيه سخطًا. كان مُشمئزًّا بشعور يطفو عليه القياء. ولبث ينظر إلى المقعد:

"ويْحكُم من وعيدي يا أنتم.."

انقلب تعجّبها غضبًا. أجابت المرأة العجوز، بعد أن ألقت عليه نظرة هوس، بخيبة أمل:

"أتجرؤ.."

اِغتاظ "نديم" غيظًا بالغًا. كان الخوف قد نال منه كل منال. قذف بالكرسيّ على الحائط، لم تبد "ريماس" أيّ تعبير على محيّاها وطفا الصّراخ:

"لا تعلنوا العصيان.."

فقالت المرأة العجوز ضاحكة: "مجنون"

أردف مُعقّبة:

"J’aime ce type"

وتلاحموا تلاحمًا تامًّا... عمد إلى غرفة نومه وأغلق الباب بملء رهبته ومكث وراءه يطرق بانتظام.. يهوى التفكير وينشغل بخفايا الأشياء. ويحدث أن يزدرد ذاته. استلذّ هذا الشُعور. شُعوره بالوحدة.

فخرقت: "ريماس" جدار مخدعه وطالعته في شيء من الغرابة. تركت ضحكة لطيفة وشخرت

ما لا نقوى عليه في الواقع، نستطيعه بالخيال.."

غمغمت المرأة العجوز آنذاك:

فاتح الأبواب وباني المعراج لتفتحي أيّتها البوّابة""

وفي هاته اللحظة المُرعبة الباعثة على الاختناق، أبرقت بوّابة من العدم ذات شكل دائريّ كالبويضة، في كبدها صورة لحجرة ذات شعلة هائجة وغضبى ومُرتعشة كالسّراب، فعبرتها العجوزتطفو فوق غيمة من الشرور، مُخلّفة إيّاه في أقبح أطواره يصطرع كراكيب العقل وأُوصدت البوابة تاركة شعاعا اضمحلّ سراعًا. كانت الحجرة مخيفة. صورتها رماديّة. جدرانها تتداعى. ولا تحوي على منفذ. لونًا من الإثارة وضربًا من الخيال. حيث تجتازها العجوز عبر بوّابة، تلو تمتمتِ كلمات كئيبة ومعتمة. ربضت الأخيرة على مقعد خشبيّ. تتفرّس في قسماتها. في مرآة ببرواز مزخرف بالفضّة نحت

على جوانبه أحرف لاتينيّة. راحت تمشط شعرها وتُدندن في هدوء، كانت الحجرة متموقعة بين عالمين، مُنارة بقلّة من شُموع سحريّة غير الآيلة للذّوبان.

"مرآتي.. مرآتي.. مرآتي"

مُتمحورة على الكل، قالت ذلك وتابعت طقطقة العلكة بفكيها وهي تُحرّك ذراعها في الفضاء، تمسح المرآة عن كثب، وترى نفسها في مرآة مفتوحة على أخطار العالم، كان "نديم" يشتبك مع أصدقاءه الخياليّين كما لو كان يتطلّع لمحو نفسه. ينخر فيه الإنسان بملء ما يزخر به من عواطف جيّاشة. انعزل زمنًا انشقّ فيه عن الوجوديّات. "نور" تضع أشياء صلبة خلف باب غرفتها، تُفارقها الفُتوّة وتهجرها القُوّة، لم يطغ عليها النّسيان. لا تقتدر منه فكاكًا. يكاد يقتلع مخّها.

(2)

ومتى كانت تباشير صَبيحة يوم غد، أدرك مشاق مهول في النّهوض من مضجعه، رغبته الملّحة في الرّقاد تعاظمت عن الحدّ هاته الأيّام ودقائق الأمور الرّوتينيّة جعلته مكبّلًا من يومه، إنّما مرغمٌ على القيام لتوظيب المكان. لكي يمضي إلى المكرور. أزاح الوسادة من وجهه بشقّ الأنفس. نهض من مضجعه متثاقلًا بعد طقطقة ركبته، وظل ينظر إلى مرآة خزانة ملابسه لفترة طويلة، عيناه شبه مغمضتين، ولم يكد ينتبه إلى معالمه، حتى راح ينظر إلى حُجرته بتثاؤب، ويُبصرها ضبابيّة بعض الشّيء، نادرًا ما يُكشّر بأنيابه ودائمًا ما يكون هامدًا مثل قشرة موز رخوة. كانت ليلة مرعبة ومرهقة، كانت أوهامه الخمسة تقتتل فيما بينها وتأكل بعضها البعض، فتهاوى على الأرضيّة وفوجئ بنفسه مسطّحًا في سريره، لا يتعقّل أيّهم حمله وأرقده رفقة خيبته.. وشيء يصيح: "أتوسل إليك، لا تدعني أنتظرك" خرير الماء يهدّئ من روعه وقطراته الرقراقة تنعش كل بوصة من جسده وتجدّد أديمه. أحسّ وكأنّ شيئًا ما كان يُخنق من الداخل. سكب الماء يجذبه إلى نهايات الكون. يُمجّد أنفاسه السّاخنة المُتدفّقة من صدره الضيّق. ويخترق غسول الجسم مسام

جسـده، يختـار مستحضـرات خاصّـة ومُكلّفـة للعنايـة بجسـده، إنّـه نرجسيّ ، ومن عاداته بعد الاستحمام استخدام عطر دُهنيّ فوّاح للجسم فيتلقّى سيلًا من الثناء على دقّة عطوره. أقلّ يقظة وبملء ما تستدعيه رغبته لأن يكون لائقا، شرّع مصراعيّ الخزانة، ومرّر أنامله بين أقمصته ثم استقرّ على اللّون الوردي. وانتقى لونًا بُنيًّا داكنًا للجاكيت. السّواد للحذاء، وبنطال بنّي فاتح، ثمّ في تركيز ضئيل طالع المرآة والابتسامة البهيّة على خدّيه. نزل المرقى على عجل. من خلفيته، في مكان المُترصّد، اقتحمته المرأة العجوز وذرّت عليه غبارًا أبرق في راحتها، فتسمّر لحظتئذٍ بعد أن أسره شُرود قاتل، فات مُستوى الوعي وبات في مُتناول اللّاوعي فعفا عليه الزّمن. محموم بين تضارب مشاعره. نكس الرّأس قليلًا وقتما ناداه المنادي (جاره "سليم") من الطابق العلوي، فلم يستجب له، فأمرته "ريماس" ذات المكائد: "تيقّظ أيّها البغل.." وفي خِضم لقطة سريعة، اِنقشعت، ونضحت دخانًا أحمرًا ساطعًا. تلاشى في غُضون ثوانٍ..

كمن غادر غيبوبته، مغلوب بالتحطّم على أمره، شمخ "نديم" برأسه مُتثاقلًا وأردف:

"كيف أمرك..؟"

فربّت "سليم" على كتف "نديم" حالما وصوله:

"على أتم ما يُنتظر إلى الآن. ماذا عنك؟.."

تجاهله "نديم"، الّذي استحال إلى حائط، تجاهلاً كاملًا. والتّفكير بلغ به إلى أقصى من ذلك.

بوضوح تامّ، استطرد "سليم" عند بلوغهما المخرج وهو يحيط بذراعه كتف "نديم":

"آه.. لي رجاء لو سمحت.."

فوازن نظّارته.. وتساءل:

"لئن كان لك أمرٍ ذي بال فأحطني علماً قصد أن أقضيه لك. يا "سليم" اشرح لي الضّرورة.."

قال سليم، دُون مُواربة، وشاحب تقاسيم الوجه:

"كما تعلم، تحصّلت على ماجستير في الإدارة الماليّة ما يُقارب خمسِ سنوات، ولم أجد عملا إذّ ذاك إلى حدّ هاته اللحظة الزمنيّة، سأكون مُمتنًّا أيّما امتنانًا.. إن تستنجد بقرص معارفكَ لانتدابي في شركة.. سأبلغ الثّلاثين من العمر ولم أبلغ غايتي ولم أظفر من الوطن بطائل.."

لم يكن يعرف ما يدرسه، كان يرنو فقط الحصول على دبلومه الّذي لا يعرف عنه شيئًا.

فقاطعه "نديم" يقول وقد انتحى به جانبًا:

"أانقطعت عن التدريس في الجامعة؟؟.."
فأجابه "سليم" وتغوص أنامله في شعره:
"التّعليم في الوطن لا فائدة تُرجى منه، أدّرّس سويعات لقاء ثمن بخس.. ولم أرغب بتتمّة الدكتوراه.. كرهت التّعليم الواهي.."
أضاف بهزء حتّى تلاشى:
"هاته الدّولة لم تُقيّض لي أن أتقلّد وظيفة من الوظائف"
فجعل "نديم" نظره إلى ساعته، إلى الوقت الضيّق. وأردف يقول على عجل:
"سليم" تباطأت، سأرى ما لي صنيعه.. عُدّ مُرادكَ قد تمّ.."
دلف مكتبه بلا مُبالاة. راح يخيطه رواحًا وجيئة، أصوات مُمزّقة متداخلة فيما بينها، هذا يدمدم متمرّدا على أوضاع الأيّام المتباينة بتَعِلَّة أنّ الحياة اختلقت يوما ونسخته على ثلاثمائة وأربع وستّين يوماً، شبّه الأيّام بالأجندة المعلّقة على حائط شقته، أمّا الصّوت الآخر فقد كان ينتحب في سّره وهذا النّواح يشوبه أنين مزعج، أحدهم يبتغي الانفجار، كان رأسه كلغم آيل للانفجار. ما انتهى إليه؟ وما أضحى عليه؟
دون أن تطْرِفَ لها عيْن، امّحت الجريدة، الّتي نشرت نبأ مقتل المخترع "عقل سليم"، كما لو لم تكن. مقرّها، أضحى عدمًا. كان

بديهيًّا أنّ أحدهم أخذ ممحاة وأماط شيئًا عُدّ بالرّصاص. حتّى من الأشياء منزوعة الروح لم تُعَد. أُزيل تاريخ نشأتها. تحلّلت جميع بياناتها. وعلى جُناح السّرعة انقشعت..

وفي هاته الحركة كان ما ينمّ عن تلاعب بالمقادير. بصورة أخرى أن تنهش بمخالبك حيوات مُسيّرة بمشيئة القدير، هذا يُشير إشارة باهرة إلى اختلال توازن بين من في الأرض، أولئكَ الذين يُراقبون ذويّهم، ومن الّذي يُراقب أهل الأرض، القابع في السّماء..

رُويدًا، رُويدًا انسلّ من مكتبه. أثناء الاجتماع رمق الموظّفين ومبحوح الصّوت قال:

"........................"

مقال "نديم" كان يدور في حلقة مفرغة، لا أحد يعنى بإرشاداته وبشروحه، يطالعونه بعيون حمراء ووجوه منهكة وشاحبة من فرط السُم الّذي استنشقوه، ودائمًا ليس أحيانًا، يمسك عن الكلام ويظلّ يُحدّق بهم على أمل أن يستيقظوا ممّا هم عليه، إلى أن يسوء غضبه ويتلطّف الجو، أمّا ما كان من أمر البعض الآخر النّابذ لهاته السّموم فقد عُدّ مقاله ذريعة للنّوم كما لو أنّه من غريبي الأطوار، لا يصحّ الأخذ بهم. في حضرتهم يكون هلاكه.

اِسترعى اِنتباهه نظرة الزّميلات إليه.. يرتقبن طوعًا.. كنّ يفتّشن عن زوج، يبحثن عن الاستقرار، ينبشن عن شخص.. عازبًا أذكى ما كان عليه أن يفعله. أكان من الصحّة؟

ومع جزعه البالغ، سيّالًا ما يتضايق من التّساؤلات المكرورة.

"أوَ أنت متزوّج...؟.. أم خاطب؟.. أم مرتبط؟.. أم أرمل؟"

يعلم مبتغاهنّ فيتعامل معهنّ ببرود. يُجاهد جهادًا مُتوترًا. ففي بعض الأحايين يُوظّب أغراضه قبيل زوال الحصّة الصّباحيّة و ينسلّ من الشّركة مُضطرب النّفس مُخلّفًا الزّميلات يركضن على خلفيّته، يتقاطرن كبعوض من كلّ رُكن، وكلُّهنّ تنادي باسمة.

بعد أن فرغ من اللوذ بالهرب، توجّه نحو المطعم، ارتكن إلى الأريكة ووضع ساقًا على ساق، اِستلّ دفتر ملاحظاته من جيب معطفه وشرع يدوّن فيه شوارد الأمور.

كان لا يزال على هذه الحالة حتّى تبادره إمرأة، سخيفة كل السّخافة، بصوت تشوبه الميوعة: "غالبًا ما أفكّر في قراءة ما تكتب، أراك في معظم الوقت منغمسا في هذا الدفتر.."

ما يزخر به من خُمول، مكث طويلًا يحدّق في عينيها، كانت قسماته لطيفة في بادئ الأمر، وسرعان ما بات عدائيّا، أطلق العصيان،

يُقاسي ديمومة الغثيان، ثمّ أجابها أنْ لا و تعجّل يقول بنبرة مُنشقّة: "أَلي بسؤال..؟.."
فأجابت بعجالة: "لست مرتبطة... أتقبل الزّواج"
فقطّب جبينه وتعجّب غاية العجب. قال:
"لئن كان لكِ غرض آخر فأحيطيني علماً بُغية قضائه.. فهاته الضّرورة خارج نطاقي.."
اكتسى وجهه حمرة قاتمة، وغادر متّجهًا إلى مكان آخر، إلى أن يحين دوام ما بعد الظّهيرة، ليربض في وقت لاحق، في مقهى مطلّة على البحر ألف المكوث فيها، في مأمن من المُتسلّلين، كل البشر يتدخلون في محاضر شؤونه اليومية ويراقبون أقواله وأحواله وأفعاله. كما يعتقد أنّ الجميع يُتقن لغة الإحباط والاستخفاف. ولهذا مكث على مبعدة عنهم. وتيقّن فيما تلا أنّه كان على أشدّ الحقّ. كان الحال، مثيلًا، بأن تكون، على مضض، محشورًا في خزانة، بملء إرادتكَ. كان على شيئ من الوئام مع جارته "نور"، يثرثران في ثيمات، يطرحان نقاشات مختلفة بين الفينة والأخرى.. يتملّى هدير البحر يريد أن يغرق في الموجة الهائجة، لكنّ جسده كان عالقا في مستقره وخياله يرفرف في الأقاصي فوق السحاب العابر الّذي يوشك أن ينقشع من فرط حرارة الشّمس الحارقة

ليهـوي خيالـه سـقوطًا مروّعًـا ويـرتطم برأسـه فيعـود ملـولًا وبائسًـا مجـدّدًا. ضـاق ذرعـا. معظـم الوقـت، يقبـع تعيسًـا ويتّقـي أيّـة حـسّ بالسّعادة. تقلّ رغبته في التفاعل مع النّاس والتّواصل معهـم. وبات يتحاشـى"سـليم"، الّـذي تلـوح عليـه أمـارات الـدّهاء والتّخابـث، ولا يُلاقيه إلاّ فيما ندر، تملّص منه، وغالبًا ما يكشف أسرار "نديم" أمام الآخـرين متى لا يلفى في جعبته حكايا. كما أنّه لا يقدر على أن يكظم سرًّا.

يغمّه البشر ويُخيّر الأصدقاء الأوفياء. كم قلّة كانوا.

(3)

خارت ملكاته العقليّة في الأوانة الأخيرة، اِحتدّ به الأمر، فاضطرّه الظّرف كما اقتضت العادة إلى أخذ إجازة بدون عودة مُحدّدة، كان سلوكه الغريب يتفاقم، وتفاقم إلى حد أقصى من الحالات، كان يشعُر أنّه عظيمًا على الدّوام وهذا ما كان ينبغي أن يشعر به، كما أنّه قد غرق في بركة الحزن لسنوات. الوحدة هي الشّيء الوحيد الّذي يساهم في البقاء. يلجأ إلى السّكينة وذلك يُنيلُه غوامض وهيبة واحتراما. والنّاس يحيزون إلى اكتشافه وهذا يمنحهم حماسًا كبيرًا في تقصّي الحقائق وتأويلها لصالح مشتهياتهم. يرغب بشيء فتعطيه الحياة شيئا خلافًا له.

إنّه يرهب السّعادة. يرهب التعلّق والارتباط والفقد. يرهب الحياة. ويتّقي كل ما يدعو إلى الرفاهيّة. كما أنّ رجاؤه إلى المجموعة يزداد تقلّصًا مع الأيام. جعلته إقامته في المنزل مشلولا، كان يبعث على الإستيهام لرائيه أنّه في حالة شديدة من العياء، ولم يعد يُميّز ليله من نهاره، حيث كتب في مذكّراته غير مرّة بأنّ أحد السّاسة يحيك له مكيدة وأنه مراقب من قبل المخابرات الأمريكية و بأنّ الفضائيين كانوا يُدمّرون تصوّراته.

ما عاد به غاية بأن يلتمس التّواصل مع أحد، أو لمغادرة شقته إطلاقًا، إذ اشترى ضرورات ما يحاذي شهرين لتلافي عناء الخُروج كلّ يوم، كيلا يشاهد البشر، لِئلاّ يَحتكّ معهم ويُلاقيهم، لِئلاّ ينظر إلى ممارسات الدّولة إلاّ أنّها كانت تُكاتبه وتتهجّم عليه بالأسئلة. ومن قبيل الاحتمال الشّديد، ذاك العجوز، بعدُ قابعًا، على الرّصيف، يمدّ يده إلى الخواء، مُرتقبًا دينارًا باليًا ليقوم بسداد رمقه.. حق.. يتشهّى حقوقه.

(4)

النّافذة تُذبح بدلا من الحياة. السّقف يُدمي. ساق المنضدة يُبتر. الجُدران تُخدش. الأثاث يُجلد. حفيف الرّياح. مُدركًا بشيء ما. رافعًا رُكبتيه. وجلًا ومُكتئبًا. خائر المُبادرة. أدرك الصّباح. كان مُمزّقًا، يتفصّد عرقًا، وصفير الصّباح المُرعب يحفر بذاكرته كما تنبش القطط الضالّة حاوية الشّارع قُبيل قُدوم عامل النّظافة، خشية ألّا تجد ما تنبشه بأظفارها الحادّة بينما تموء، تموء بشراسة، كهذا كانت صَبيحته بعقل ذي أبعاد أخرى، ملآن بالمتاعب، يجعله إنسانًا عاجزًا.

بفُضول وإلحاح، طرق شخص ما على باب شقّته، قرعاً خفيفاً يحثّه على الاستلقاء والمنام، وكان الطّرقُ يحفر في سمعه ويُهيل التُراب على الأصوات اللائمة الدَارج سمعها، تَسَاعَدَ بالإخفاق المغثي وكورقة خريفيّة مُتهاوية ينهض من مستقره

يمرّ خطفًا.

يُلقي، قبيل ذلك، نظرة خاطفة إلى المرآة.

يعلو كبطن امرأة حامل، ويُغمغم، بينما، لا يزال يكظم غيظه:

"أيها الثّاني، أمرك بلجمهم جمعاء. لا أريد مزيدًا من المتاعب.."

فيهدر صوت أحدهم:

"سمعاً وطاعة خالصة"

كانت زائرته "نور".التي يقع بيتها على بُعد شبر واحد. رمقته نظرة السّؤال بطبقات من الإعجاب ويُطالعها هو الآخر بما له من افتتان بينما المرأة العجوز تخطو على عقبيها. كانت مُترعة بالعجرفة. تكتنف رأسها بأسلاك دخّانيّة سوداء وتُتمتم بلغة لا تُفهم.

"ما من شيمك معاقرة الخمر والحشيش صباحًا. أفيكَ ضجر؟"

قالت ذلك بقرف من تجلّى له زيف ما كان يظنّ. أطرقت في استغراب. يجعلها الضباب الداكن تشعر بالغثيان.

"ارحميني من العادة.. ليس بهاته الضّرورة أو تلك"

نأت "ريماس" ذات المكر والخديعة بعد أن رشّت بعض الغبار الذهبي على "نديم" و"نور". وبطبيعة الحال تُطرد فرحًا تسلّل إلى القلب.

أمرتهما قائلة بإيجاز:

"......................................."

مثل نهر جارف تمكّن السّحر من رأسيهما واستولى على عقليهما..

كانت "نور" فتاة منمّقة ورقيقة، مليئة بالشّغف، كشجرة باسقة تُشبه إلى حدّ ما نجوم التلفزيون، ثيابها تدلّ على الإغواء، بما يتّفق مع

جسـدها الرّشـيق، مُلتصـقة بالأناقـة، وغالبًا مـا ترتـدي تنّورة قصـيرة تأسر الاهتمام بها..

أسـفرت ابتسـامتها عـن أسـنان بيضـاء وينسـكب منهـا عطـر الربيـع. شعرها أنيق ومُمشط. تضع أقراط لُؤلُؤية مُدلاة مُريحة الحركة.

لديها شخصيّة لا تتزعزع بسهولة، وكأسلوب من الاحتماء يكتنفها برود عاطفي في تعاملاتها مع الآخرين، لدرء النُّدوب العاطفيّة.

"أراكِ تفـرّين كنعامـة مكـابرة كلّمـا دنـوت، مالـكِ مبعثـرة كـأوراق الخريف؟"

كهذا كان لقاءه الرسميّ معها.

قالت باسمة وشفتاها شديدتا الحُمرة بعد أن ثبتت عيناها عليه:

"قل لي كيف حالك"

في مُحاولة فاشلة، أجابها باقتضاب:

"كالعادة"

"ألم تقل أنتَ أنتَ، قد حذفت هاته اللفظة من معجمك"

"ألن يُمحى شيئًا من ذاكرتك؟"

"كلّا. أنا صعبة المراس"

وضع يده على ذقنه بعد طول تفكير. وترك الكلام عن هذا. تبدّى كأنّه من نسيج آخر.

ساهمة، جعلت نظرها إليه:
"أمرك غريب، تُماثِلُ الرّوح المغطّاة بعباءة سوداء تواري ما في جوفها، حسبُها السّكينة، تُخيّر الأشياء الّتي تُثير اشمئزاز الآخرين وتكره الأشياء التي يُخيّرونها."
قاطع لفظها وهو ينظرُ في عينيها الفاتنتين، وشفتيها المكتنزتين، والرّموش الّتي يغطّيها الكحل:
"الحياة، جذبتني لأكون أحد أغراضها." وقد كان كلامه موزونًا رُغم تشتّت فكره.
"أنت بحاجة إلى تغيير جذري في حياتك"
تركتهم المرأة العجوز وبدأت بدلق بعض الويسكي وقالت في سريرتها:
"آمُلُ ألا أراكِ تبتسمين مرّة بعد أخرى.."
وهي في غاية ما يكون من البشاعة، كمُدمنة تلطم قدحًا بقدح، واصلت تُوصي بهما شرًّا:
"إذا كنت تريد الاستمتاع، فقم بتقويضهم الواحد تلو الآخر"
جرعت مُحتواه.. لاشتقاق الجراءة..
ألقت "ريماس" نظرة أخيرة على "نور" و"نديم" لتتيقّن علْمَ اليقين من احتكامها عليهما وبأنّ شعوذتها قيد التنفيذ.

اخترقت الجدار المُفضي إلى الشقة المجاورة، قبيل ذلك ألقت الكأس على الأرض وقالت:
"أشتمّ رائحة الذبيحة...أَليس عيْن العقل يا دميتي.."

* * *

وثب قائما على قدميه من مقعده وجثا على ركبتيه وخامل اليدين أمسك بشظيّة الكأس المكسورة.. بدافع التّوق.. اللوعة والحسرة رجم نظرة خاطفة إلى "نور" و سراعًا ما عاد إلى التّحديق في الكأس الكسير. باحثًا عن قطرات خمر تضمّه وتُؤويه.

قال في ريب:

" كيف سقط هذا الكأس، لا أذكر إنّي ملأت من هذا المشروب منذ حوالي أسبوع.. أنا لا أترك كأسًا قذرة، لا أترك أبدًا.."

فقاطعته، حزينة النّفس، تلو شيء من الصّمت:

"ربّما مُحي من ذاكرتك.."

لم يأبه بما أدلت به، تركها على هواها، استطرد وقد أنهكه العياء:

"شظايا الكأس تستوثق بأنّه قد هوى من ارتفاع أقصر من أرفف الزّجاجات المعلّقة على الحائط،.."

انقلبت عيني "نور" ولم يعد منهما سوى الأبيض. شمخت برأسها إلى الجدار. تُخبره كم هي ضائعة. ولبث "نديم" عمّا هو عليه، يُطالع الشظيّة بريبة. لا يكفّ عن العطاس.

ترك الكأس من يده، وفتح التّلفاز. ومكث يجوب المحطّات.

المذيع: "يسُرّني أن أطلعك عن الأمور المظلمة"

يتلعثم:

"ما هذا الذي ستخبرني عنه؟"

"القضاء جائر...والعدل أكذوبة"

" فلا شيء عاد يعنيني"

"الحكومة فاسدة، ومن يتمتّع بإدراك جيّد سيدرك عمق رائحتهم النتنة"

"فلا شيء عاد يعنيني"

"لا أرض لكم وكلّ ما تطأه أقدامنا يفرّ الخير منه وأحلامكم نُتاجر بها"

"فلا شيء عاد يعنيني"

تسمو "نور" برأسها.. تُطالع "نديم" بعد أن احمرّ جبينها. تُغمغم: "هل وجودي مضجر؟.."

فلاحت منه التفاتة بصُورة عفويّة وأسرع مُصحّحًا بعيني العاشق: "وجودكِ آمن.."

باشرت أنفاسها المُتدفّقة، تنمو وتتلاشى في آن واحد، بتلك الغبطة العفويّة والصّبيانيّة. وثبت من مستقرها وراحت تتهادى في مشيتها. تتّخذ سُلوكًا إغرائيًا.

تحت تأثير أللإرادة، طفقت تتراقص بغنج زائد. تتوجّه عازمة نحوه. مُتسلّحة بالشّبق، تربض فوق ركبتيه بجسدها الجذّاب والنّحيف وتطبع على شفتيه قبلة محترقة. وانتهى الأمر.

من خلال الضباب وجنتها تنزلق على ذقنه. شهوانيّة. ترتعش قليلًا. وتلك الجمرة السّاخنة على حافّة البركان أكثر انسيابًا تلتهب. مصّ عُنقها برغبة عارمة مُخلّفًا دائرة زرقاء

بوتيرة عاليّة أحسّ بشُعلة نار تأجّجت في صدره. كان يتأوّه في سرّه. يتعرّق والنّار الهائجة تفصله عن "نور" وتحرقه بلهبها اللّاذع.. كان يتخلّل ذلك بُكاء مضروب بمزيد من البُكاء.

بفمٍ فاغرٍ من الإغواء أمعنت النّظر في شفتيه الواجمتين وهما تنزّان عشقاً خفيًا مُستخلصة:

"بلغ بيّ الحبُّ مبلغاً وما كان لديّ حبيبٌ، وعبير الحبُّ ألهب ناري، لو قيَّض لي حبيبٌ يُحبُّ حبَّ ناري لبلغ العشق مقداري.."

انتفضت من غيبوبتها الغائرة في حماقة مطلقة، لكن ممارسات المرأة العجوز كانت تعيدها إلى الأوهام مثنى وثلاث..

قال بنظراته الذئبيّة:

"خطبي هو أنّي أرفض أن أكشف جسدي أمام أي شخص كان ومع ذلك سوف أكون معك تمامًا وخطبي الثّاني هو أنني أرفض رفضًا قاطعًا، معتقدًا أن شخصًا ما سوف يلمسني"

أحشاؤه تُركل في تقلّص مُتقبّض ومع ذلك كان منتشيًا ويئن من وقت لآخر.

كانا يصطرعان شعوذة "ريماس". ولّت عائدة إلى مُستقرّها. مثل الأتراح الّتي تُشكّلها العقبات. ولا يزال الظّلام يستمدّ قُوته منها ويُورثها العبثيّة بطريقة سخيفة..

لم يفه بلفظة. طالعها بنظرة منبثقة من روح مُشبّعة بالبارانويا ثمّ استأنف القول:

"ما أقدر قبول هذا الوضع وينكتم صوتي.."

طاف دخّان أسود من أذنيه في حالة انكماش. تنهّد تنهيدة عميقة... حدّقت به بعينين منقلبتين إلى الباطن. لا يلوح منهما سوى اللّون الأبيض.

تعجّلت تقول في لهجة مُتلفّعة: "دعنا من التفكير الكثير.."
ردّ قائلاً:
"كلّا"
"لا يا "نديم"، الإسراف في التّفكير عن أشياء ليس لديك سيطرة عليها كإسباغ الملح إلى البحر.."
جعل "نديم" يمرر يده ببطء عبر شعره. أصابعه تخترق سواد التوهّج. الشّرود يجذبه إلى أبعاد أخرى من الزمكان. وكانت ضبابيّة الفكر تُحجّر من مُواصلة مُحادثات كان قد باشرها توًّا.
تعجّل يقول وقلبه، ضريح يبتلع انكتام السّائرين أمواتًا:
"ثمّة أشياء كلّما أبيت التّفكير فيها، تكبر أغلال تفكيري بتقييدي، لم أجد القوّة للمضي قدمًا في حياتي.
أجابته بعد شيء من السّكينة:
"أيّ شيء يُعيقك.."
"قدري البديل"
الغيب يفزعه بشراسة، كيف ستكون السّنوات المتبقيّة من حياته؟
قالت:
"اترك التذمر واستدر نحو الجانب المشرق."

في بادئ الأمر لم ينبس بكلمة. جرِضَ بِريقهِ في مُنتهى التدهور الروحي. أردف بكلمات مُتهدّجة:

"سئمت هاته المُثُل المحفّزة.."

فتعجّلت تقول بعد أن أماطت خصلات شعرها عن جبينها والرّأس يتثنّى، كانت كمن تشرّب غالون من الجعة الممتازة:

"رجاء لا تتم، لم يعد لي أن أصيخ السّمع لسلبيّاتك، أغرقتني في الكآبة واستأصلت من أعماقي ما كان إيجابيًّا."

اندهش ممّا قالته حينها:

"كلامي مصدر انزعاج، إذن"

ردّت عليه احتجاجًا وأخذت التوهجات السوداء منحدر الاضمحلال:

"وجودي معك جعلني أغيّر كلامي كل لحظة."

كاد الشرر المطحون أن ينهل من عينيه، فقال في عُجالة:

"ربما يكون كما تدّعي."

أجابت بابتسامة على شفتيها:

"ألم تلحظ أنّنا نتحاور محُاورة غريبة. لو جالسنا أحدا، لهرب منا."

فافترّ عن أسنانه ضاحكا إلى أن اعتراه السُعال، ثمّ عن غُمّة دواخله تحدّث:

"لا أعرف أي شيء عن هذا الّذي يحدث، أدركتني الضآلة هاته الأيّام، أغرق، أستنجد بمن يقبض ذراعي وينقذني، أمكث عالقا، جسدي غريق برمّته باستثناء ذراعيّ، فالرّجل ليس له أن يكون صلدا إلى الأبد، ففي نهاية الأمر يبقى إنسانا و يحتاج إلى من يربّت على كتفيه في الضّائقة، يحتاج إلى من يحضنه أثناء الوطأة ويفتقر إلى قبلة بريئة على وجنتيه في لحظات الضّعف ويرمّمه في أوقات الانكسار فالرّجل ليس جسدًا وما هو إلّا بشرٍ من لحم ودم وله مشاعر وإحساسات.."

قالت:

"أرى أنّ حُزنك قد ولى راجعا إليك متصاعد القوة هاته المرّة"

"كلّا..إنّي في أحسنِ أطواري.. لا تكترثي لمقال النّكد السّخيف ولتوافه أموري."

"لا ضير في ذلك، سوف تمضي هذه المرّة مع الأيّام.."

امتشقت ما في يساره ووضعته جانباً وقالت:

"دع عنك السكر، لن يكُون ذلك بذي طائل، فالأب يقضي وقته مخمورًا وحالته تزداد سوءًا، ربّما يخدّر الخمر نصيبًا من ألمك لساعات قليلة ومتى ينقضي تأثيره ستولّي أشدّ تعاسة، سأقوم بإعداد القهوة لأوقظك.."

تحوّلت نحو المطبخ و سرعان ما نكصت على عقبيها والسّواد في كل مكان.

"كم عدد طوابع السكر؟"

خائر وشجيّ النّفس، دائم الشُرود والسرحان، على بينّة بمُطلق الأشياء، حدجها بنظرة فارغة وسرعان ما اِستحالت تلك النظرات إلى الغضب. ثم ابتسم ابتسامة خفيفة وقال بصوت خفيض:

"ملعقة صغيرة من الملح.."

فتضخّمت عينا "نور" و تعجّلت تقول في عتاب:

"ما أنا في مزاج رائق يُقيّض للهزل.. ما الشيء الّذي يُضحكُكَ..؟"

أيكون مازحًا؟ أطلق قهقهات متواصلة ملء شدقيه ولم يعد له في أن يسوس نفسه، كفّ عن هستيريا الضّحك بغتة..على الرغم من ما وُجد من مغص في بطنه

حدّق بها ثم سريعًا عاد إلى هستيريا الضّحك ثانية.

فاِغتاظت غيظًا بالغًا وقالت في لهجة حارّة:

"سأعود إلى شقتي ، وعندما تعود حواسك إليك أنبئني بذلك"

كان آخر ما سمعه منها. أغلقت الباب وراءها.. مُخلّفة إيّاه في كرسيّه يضحك دون ملل ثم وجم في لمح البصر وتمتم نافخًا صدره.

ما زال به رغبة في دردشتها عمّا ينبغي وعمّا لا ينبغي. عن ما لا يعرفه. سيظلّ فكره مشغولًا بها.

بشكلٍ عشوائي، أزيح عنه احتكام "ريماس"، فانتفض من مقعده يصرخ من مواجع رأسه.

و على نحوٍ تلقائي، فتح التلفاز على القناة رقم سالب واحد «(-1)»

قال مذيع متعجرف مشابه لحفار القبور: "ما يُضحِكُكَ..؟ سأريهم علانية ما يدور في ذهنك وتغدو أُضحوكة أُمّة لا إله إلاّ لله"، كلامه فيه لون من التجنّي.

يُقيم "نديم" الصّراخ راجيًا: "لا تُقدم على اقترافها". وضع يديه فوق رأسه لئِلاَّ تنكشف أفكاره.

يتوارى المذيع. يلوح ثانية. كما لو كان سيُناطح السّحاب يمدّ عُنقه. يقول وهو يتعرّق ويلعن في سريرته ساعة مجيئه إلى هاته المدينة المُستبدّة :

"تاه منّي إخباركم أنّ مُعدّل الانتحار قد ارتفع في الأيّام القليلة الماضية وبلغت عدد حالات الانتحار ثلاثين ألفًا..يا له من بؤس أيّها النّاس.. إلى الملتقى يا مدينتي الانتحارية الّتي لا يُدرك سكّانها مذاق البهجة بل يضيعون حياتهم في اليأس."

ثمّ سلّ خنجراً من جيب جاكيته وأطاح رأسه عن جثّته فأجهش "نديم" المسكين بالبكاء من أجله..

رنّ هاتفه. قرأ الرسالة:

"أوقد لفافة حشيش وانتش مكان أن تعدّ قهوة وتعي. مع فائق احترامنا."

(5)

كل الشُّكر والامتنان لما بلغا إليه يوم أمسٍ من حُب لم يسبق له أن خبره فيما سبق.. لايزال راضخا تحت نشوة الوصال. هذا الوصال الّذي كان له شرف الانصهار بها. فهو الّذي لم يسبق له أن أحبّ. فهو الّذي يُلقّبونه بالطّاهر. يجده اليوم أشدّ طهارة بحُبّها وعطفها وحنانها وشراسته وشهيّته إلى جعلها تتشظّى و كل الموصوفات المُقترنة بقاموس العشق.. كما يتقدّم لها باعتذارات ما إذا تسبّب لها بألم وهذا الأمر عائد إلى جهله وعدم خبرته. فهو صفر التّجارب. ومعها سيمتهن ما تبتغي. لن يتوه منه جذبها له. خفق قلبه بما بادرت. جزيل الشّكر لها على هاته الإحساسات الّتي لا يجد لها مرادفات عدا أنّه في جنّة عدنٍ.. بمُجرّد أن تشرّب رحيق شفتيها حتّى استقر فيه شيئ لا يقتدر شرحه. طاقة وعظَمة ونشوة وسعادة. أكانت عليمة أنّ رحيق شفتيها كان يقضي على ألمه وقتذاك. وهذا يُبرهن أنّ الحُب هو واحد من أعلى مراتب الشّفاء. يترجّاها بحُبّهما العظيم أن يلتقيا في الأيّام القادمة. كمّ يُحبّها كثيرًا حتى يلتقيان في الأيّام المقبلة. يترجّاها بحُبّهما العظيم أن لا تحرمه من مرآها. كمّ يُحبّها أن تكون رحيمة به وأن يتقابلا عمّا قريب. يترجّاها بحُبّهما العظيم أن تُلبّي طلب عزيزها الّذي لم يسبق له أن أحبّ ولم يسبق

له أن كانت له تجارب. يترجّاها بحُبّهما العظيم أن يلتقيا في الأيّام القادمة. أن لا تحرمه، رجاء، ممّا شعر به.

هل هذا حدث بالفعل؟

كان الخطب العظيم يكمن في عدم قدرته على العيش دون مرآها. وما غُبن أن يُحبّ جُنونًا، أن يعشق جُنونًا، أن ينصهر مشاعر، دون أن يلتقيا وقتًا طويلًا. دون أن يتفرّس في أجزاء وجها. وما الحُب سوى أن يكون بين يديها وأن تكون بين يديه. وما العشق سوى أن يصدح صوته ضاجًّا بلفظ أحبّك، أعشقك.

أين السّبيل إلى اختطافها والمضي قُدمًا صوب مملكة العشق. حيث سيقضيان سائر سنوات عيشهم ومن ثمّ ينتقلان، سويًّا، إلى الأبديّة. أبديّة التأوّه و في أحضان الحب. عناق دافئ ومُتلهّب، دائمًا ما يكون حريصًا على احتواء جسده الّذي يتراعش بردًا بفعل الأسقام الّتي يُكابدها. وبفعل الحنين واللهفة إلى سُطوعه وإيّاها في مكان لا يدركه سائر أهل الغرام.

ما أعذبها وكم يُحبّها ويعبدها ويُقدّسها..

هل هذا حدث بالفعل؟

يريد أن يغفو، مُشبّعًا بعطفها ودفئها. هذا القلب المُعذّب بالبُعد يحتاج إلى وصالها، في عوز إلى سماع خفقان نصفه الآخر. هذا القلب يُريد احتضانها بشدّة. هذا القلب يئنُّ في صمت. وما يُخفيه القلب، تُدركه العيون يوم التلاقي. لا يُريد من العالم إلّا عينيها. لا يرغب بوسادة بعد اليوم. حسبه أن يكون حضنها، وسادته، وملجأه، وعالمه. أدركه التعب من تقبيل صورتها وضمّها إليه. ألا ليتَ حضورها يكون في الوقت الفعلي وكل ليلة، والدفء يغمره في خضم الصقيع المفتوح لعالمه، وينام مثل شخص وجد منزله المفقود. يبكي غيابها وتنضب آهاته بهذا الغياب. ولا شيئ من شأنه أن يُريحه سوى وجودها. فهلّا رحمت القلب المُشتاق بالعناق؟

(6)

كان يعرف أنّ الإنسان ينبغي أن يدفع ثمن الحياة من قلبه.
فإن لم يدفع، حُرم من حقّه في الحياة

قسطنطين جيروجيو

كرّت الأيّام ولم تمض فيها "نور" إلى زيارة "نديم" ممّا جعله يشعر بالقلق الشّديد إزاءها، وعدته بالزيارة، لقد أخلّت بدوام اللقيا، وصارت من المغضوب عليهم، جعلت له وُجودًا لا يعلم كمّ على وجه الخصوص ورحلت،، في ظاهر الأمر كان أغزر ميلًا إلى الاعتقاد بالنّوائب الجائز وُقوعها، عظم عنده الوسواس وبات أماسي في أرق، لم يطب له طعام ولا حشيش ولا شرب، يسير الهُوَيْنى، مكث يجوب البيت لساعات وساعات على غير اِستواء مُفرقعًا أصابعه ويتخطّر في انقطاعها المُفاجئ ذاك، هل فارقته نكاية فيه؟ لا آمل في نوالها، لن تكون له، لن يُسيطر عليها كمال السّيطرة، لا سبيل للاقتراب منها، فهو رجل لا يقبل بأقلّ من ذلك بكثير، لسوف تغدو تعاسته مُضاعفة، سوف تكون أيّامه طبقات يغمرها البُغض والانتظار، ألن يعدو على أعقاب دوافعه مرّة بعد أخرى؟ أحسّ أنّ السّقف سينقسم ويغرقه في بركة الدّم المعتادة، أدرك مع

عـدم وجودهـا أنّ عـود الثّقـاب لـن ينيـر ظلامـه كلّمـا تضـوّأت الصّباحات في الخارج ولن يبدّد وحشة اللّيل، فعود الثّقاب أصابه النـدّى ولـن يضـيء التيـه المميت. وقـد لـن يلتقيا مـرّة بعـد أخـرى. مشـقّة الانتبـاه ركلتـه كطلقـة ناريّـة إلـى ضُـعف فـي الـوعي بمواقـف الحياة وتحطيم علاقاته الاجتماعيّة.

حكّ ذقنه في تفكير ولا يزال يتساءل:

"قلتُ شيئًا أزعجها.. كلا، كلا، كلا."

كمّ خامرته أسئلة فارغة. لا يعرف لها وجهة..

من زوايا عشـوائيّة، أخبره صـديقه الثّاني أنّه عاملها معاملـة حسـنة. ماطل صديقه الرّابع في الإجابة. وظلّ يزمّ شفتيه. ثـمّ مُلّصت منه ضحكة. يُعلن دائمًا أن الحياة تُمنح لنا لنمتحنها.

كانت العجوز ذات الكوارث تعانقه وتهمس في أذنه: "إنّها تخونك مـع "سـليم" الّـذي سـاعدته فـي العثـور علـى وظيفـة.. غـدرت بـك ونصبت لكَ كمين المحبّة.. فالبشر مزيّفون ومُضلّلون.."

لم يختلف رأي الأوّل عمّا قالته المرأة العجوز. كان في حالة من الوحشيّة والتأزّم..

فاغتمّ "نديم" لذلك غمًّا شديدًا، أربكه الخاطر، التقط هاتفه وبدأ في لمس أزراره وشعر العجوز المجعّد يلامس وجهه: " مرحبًا، أنا جار "نور"، هل هي هناك؟.."

أخبره أحدهم أنّها لم تأتِ من ما يُقارب ثلاثة أيام، فاِغتاظ غيظا شديدا وأغلق الخط على الفور، عقد حاجبيه وانفقعت عيناه المنطفئتان، اِنغرست الإحساسات في أعمق أغواره، وثار، غيّر شيئًا ما من قسماته. فهو رجل يُحبّ بعُمق، والحُبّ الّذي يكنّه جامح ومُضطرب. رجلٌ لا ينحني إلّا لمرضه، كشيء فرديّ، لا يركع إلّا تحت وطأة الموت. وها هو ذا الآن يركع بفعل الحب. بالمعنى المُريب للكلمة، مَسّتْ رُكبتاه الأرض. لم يكن من الأفضل له أن يكون مانعًا للقلب، أن لا يتعلّق، أن لا يُحبّ، أن يكون لديه كتلة قلب مُتبرّمة من الأشياء.

لقد أعطته وعدًا بالزّيارة والاتصال به قبل ساعتين من كل موعد إذا كان لديها شيء ما. كان هاتفها الخلوي مُغلقًا، وليس هُنالك خطبًا في الشّبكة كما تقول غير مرة، وطُلب منها ألّا تسمح له بالانتظار طوال اليوم. من أراد أن يفي بوعده سيفعل كما يقول..

بادئ ذي بدء، ظلّ يتجوّل في المنزل، فنفثت "ريماس" غُبارها عليه وقالت:

"أخط نحو منزلها وسترى أنّها ليست هناك.."
وإن هي إلّا لحظات حتّى تسارعت خطواته، مُتهوّرا، وما هو عليه الآن من تمزّق وتشتّت، التقط هاتفه وتوجّه إلى شقّتها والمرأة العجوز في أثره. ظلّ يقرع لوقتٍ طويل ويرنّ الجرس، وهو يحمل تصوّرًا لما يحدث في المُواراة، فخرج والدها "رضا" دنيء الشّأن دائمًا، مترنّحًا، يحمل زجاجة نبيذ. مثل قرني الشيطان يتماوج لسانه قائلًا: "شتحب؟.."
نظر إليه "نديم" بازدراء. يُحاذر في انتقاء كلماته: "أريد لقاء "نور".."
قامت السيّدة العجوز بطي ذراعيها إلى صدرها، ألتحم ظهرها بالجدار وكانت ثآليل قلائل مُنفضّة في مستوى الرقبة. واصلت مشاهدة اشتباكهم المحموم.
عيل صبره. انكمش تريّثه. بات حقده فيّاضًا. راح يصرخ باسمها.
كان وجه والدها مُحتقنًا ومُتغطرسًا، بسلوكه المُتفسِّخ قاطع "نديم" بعد أن فرك عينيه في خمول:
"الهاملة، بنت الكلب.."
"تُقرّ بأنّك كلب"
"وأنتَ حُثالة"
"اذهب إلى الجحيم"

عندئذٍ، تصاعدت حدّة التوتّر لدى "نديم". لم يتمالك نفسه. تصاعد موجه، يشنّ حربًا، جذب نفسًا عميقًا بشكلٍ فظيع، وبصُورة خاطفة، يسحب والد "نور" إلى الخارج، وفي مرمى النّيران أداره ودحره دحرًا بمنأى عنه، أطرحه أرضًا، وكرعد هادر أغلق الباب.

"لا أُقيم لكَ وزنًا" مَحقّرًا إيّاه خرجت كلماته مُخَرَّقة كصهيل.

جزعًا وساخطًا، تلاقى وجهًا لوجه مع "سليم"، فشعر بسيل من الضغائن، الّتي أشعلت النّار بداخله. من وقتٍ طويل، تُساوره رهبة شديدة، لاحدّ لها.

حدّق "نديم" بـ"سليم" لفترة طويلة. وعيناه مشتعلتان. قال "سليم" مخاطباً إيّاه: " مساء الخير"

فأجابه "نديم" ببعض التردّد: "أنت كذلك.." أسيسحبه لإسقاطه على الأرض ويلكمه لكمًا ضاريًّا.؟

كطير السمّان، تحوّل إلى شقّته. كل الأشياء السيّئة في رأسه.

ومع كل خُطوة يخطوها يصرخ صراخه الداخلي: "أحببتُكِ؟ أين ذهبتِ؟ لستُ خليقًا بالألم أيًّا كان." لحقته موجة أخرى. موجة فَقْدْ غضبى. أوّلها أين ارتحلت عن دياره وآخرها لا يستحقّ ألم هذا العالم. كان بريئًا من حياة لا يُريدها وإحقاقًا للحق أرادها ما بعد

العُمر هو الآخر. أي بين السّحاب كذلك. أين الطّريق إذن؟ ذهب العمر. ظلّت السُحب ترعد في وجهه. تساءل، تهاجرنا إذن؟ دون أن نتلاقى. دون أن نتوادع. دون أن نتحاضن. لن نجتمع مُجدّدًا. يا لمُكر القدر وألاعيبه. ويا لسذاجة قلبي.

بأنامل راجفة، مثل شُواظ من نار، نقر على أزرار الهاتف، أخذ يشعر بالوهن، في حين أنّ عقارب ساعته الحائطيّة تتنفّس آخر مرّة، تيك توك، تيك توك، ستتسمّر الآن، تيك توك، تيك توك وأطلقت شهقة احتضار واستُنفدت بطّاريّتها زهاء السّاعة الرّابعة والنصف بعد الزّوال: "مرحبًا، أريد عرفانًا منك، أن تصرف "سليم" من الشّركة.."

غاب في ضجيج الفكر، أغلق هاتفه، لبث السّواد يكتنفه وخيبة السّنين تخنقه. في مكانٍ ما، في عقله، يقبع الطّفل "نديم" ينشج في كآبة ينمّ عن كم مُعاناته وتدمع عينا "نديم" الكبير جهارًا. في زمن كهذا لم يعد ثمّة بُدّ من ارتباط حقيقي. كهذا تسير الأمور دومًا. خيانة النّاس له يقينيّة وتنخر بشراسة. يضعونه موضع اشتباه واتّهام وكل الصّفات المُدينة بفرادته. فهو هذا الصّنف من الأشخاص.

لا تأتي غداة غد أو في عطلة نهاية الأسبوع القادمة ذلك أنّني كُنتُ أتوقّع منكَ كثيرًا ولم تحترم ميقات الانتظار أو مشاعري تُجاهك.

ولكن لابُدّ أن أُحيطكَ بمعرفة أنّك أجمل صديق لي وأنّك ستكون أجمل صديق لي حتى في الأبديّة. حدّث نفسه مُنفعلًا وكئيبًا.
برفقتها عرف معنى الحُب، أدرك مغزى حُضُور يقظة مُتذبذبة من سطح السّرير، شعر بما لم يشعر به مُنذ الوقت المُنصرم في المُراقبة والترقّب. سوف يغدو لا شيء من دونها، وإذا غادرته مُغادرة لا رجعة فيها سيضع حدًّا لأنفاسه. سيلفّ حبلا حول رقبته، وفي مكان واحد، بين ظلام وسُطوع، يخرّ جسده في الخواء. تكون أطرافه في وضع اهتزازي إلى أن تُصبح ساكنة، ثابتة، خفيفة، ومُدلاة ولا نبض يمرّ من خلالها. هذا ما يعنيه أن تُحب، أن تجدك هشًّا على الدّوام. الحُب يُحيل صلابة وكبرياء الأشخاص إلى تذليل النّفس بما ليس فيها.
لعلّ الله سيشمله بلطفه ويُبرئ تقرّحات شديدة كان للنّاس سببًا فيها..
كان يتلافى أطبّاء النّفس ومع ذلك على توافق مع الطّبيب النّفسي "ألان فرانسيس" الّذي أصدر كتابًا عن المرأة وكانت صفحاته فارغة مفاد ذلك أنّ الرّجل لا يعقل شيئًا عن المرأة، فالحياة كامرأة، بغض النّظر، عن مدى صُعوبة معرفتها لمخزونها، تجدك في دائرة بيضاء مقفرة، فالحياة كامرأة قاسية و حنون، باردة ودافئة، عصبيّة وهادئة،

متسلّطة ورقيقة، توهمك بالضآلة لتلفّ الحبال على عنقك، فهي إذن غادرة.
تخبّطت قطرات الدّم الرّاكدة في شرايينه المُتصلّبة بمُجرّد أن ألقى نظرة غريبة من وراء نافذة الحب، والآن أصبح تدفّق الدم عويصًا وأصبح دم الحُب حجريًا غير متأثر بدرجات الحرارة القصوى، كما بات عقله لا يُقرّ بالوفاء، بات لا يُقرّ بالحياة كذلك، أبدًا يفد الحب عليه على شاكلة خلايا سرطانيّة شوكيّة شريرة، لذا فإنّ الصّمت هو دواءه. ساقه ولاؤه غير مرّة إلى ترهّل مُتهالك وإلى رُكود مُرهق. فيقبع دُهورًا بتمامها يغزوه شُعور النّأي بنفسه عن نفسه. عن العالم وعن كل شيء. في الليلة الماضية، دفنوه. يوم غد، أينع. ولاحقًا، اقتلعوه. وحلّ محل الحُب الكراهية العنيفة. كراهية الولاء المُطلق، ولاءه اللّامتناهي. كشمعة هبّت عليها عواصف الترقّب فقاومت، أمطرت فوقها الخيبات فقاومت، إلى أن انطفأت. هو ذا اللهيب الكائن بأعماقه قد أظلم. من أقسى ما قد يحدث في علاقة بين شخصين، أن تُظلم المودّة المشتعلة، متى يذهب الطرف الآخر بعيدًا في عرض خيبات أمله.
يعلم أنه يبذل قصارى جهده كي يُحجم عن إهدار الوقت مع أشخاص سوف يُغادرونه ويخونونه دومًا. وأنشأ يُحدّث نفسه: "لا

تنزعج.. حاول أن تعيش من أجلك.. عاملهم بطهارة أخلاقك.. أخلق عالمك.. ستجد فيه السلام.". يجب أن يكون راضيًا عن أولئك الّذين تسبّبوا له في مُعاناة لا حصر لها. الكراهيّة حصن منيع لمن أحبّ بجنون وصدق.

ولكنْ.

إذا لم يجتمع جدًّا مع شخصه المنشود في وقتٍ قريب فسوف يفقد نفسه بشكلٍ رهيب، ولا شيء من شأنه أن يجتلب له شيئًا من الفرح والراحة سوى طُمأنينة في حضرة الشخص الّذي يرغب فيه، ولا حتّى العقاقير، ولا حتّى طبيبه الّذي فارقه.

هُنالكَ شيء يبكي بشدّة في داخل الأنفس، لقد أراد فقط التحدّث إلى شخص موثوق به حول كل ما يعرفه وعن الأشياء المُلغّزة والمُدمّرة.

إنّها لا تأخذ وُعودها على محمل الجد. لا تُنبئ ب الحقيقة عن نفسها. لا تعتذر أبدًا لكونها مُخطئة. كما أنّها لا تحترم مشاعره. ليته لم يعتبرها مثل شيء كبير في عالمه. ليتها كانت على هامش الشُعور كمثيلاتها.

يحسبُ أن النّاس لا يرون سيّئاتهم حتى يتصرّف مثلهم، ولن يقدروا سلوكه حتى يتنحّى عنهم.

لأيّ شيء يعتريه اعتقاد أنّه يحلم بلهفة مُستحيل معها في حين لها أن تجعل من المُستحيل حقيقة سهلة، يسيرة السُطوع والتألّق. الجُوع إلى مرآها يقتاته. ما الّذي أتَتْ على صنيعه كي يصير رخوًا في حضرة وجودها وغيابها. قبلها كان قلبه من حَجر وبعدها أضحى قلبه من بُكاء مُتّصل، يتذلّل ويتملّق. أخبرته أنّها جاهلة به- أي أنّها لا تعرفه بعلم كامل-أليس شافيًا أن تُبصره بمرأى المحبّة والمودّة والقلب التوّاق إلى كسبها. هل سيكون ما يتشهّى في مُتناول التحقيق؟ يتراءى العالم في قبضة اليد. بأناة يندلق سَيْل الحُب العذب الرقراق على مرافئ التّوق كما ينهمر المطر بُغية وئام الأرض بعد اغتراب دهور العفّة. إذا قالت وصالًا قال طوعًا وحياةً وأبدًا وإذا قالت هجرًا قال موتً. سيندمل فؤادها في حقل أحبّك. ورجاؤه ذاك لم يستطع شُروقًا.

(7)

حين أغادر موسم التعب هذا، سأعيد ترميم ما يُشبه الطُمأنينة

سيلفيا بلاث

إنّها ليلة موحشة. شرّيرة مُدمّرة.

في حالة حُمّى والتهاب اللوزتين كتب:

أنتِ الكُلُّ في كُلِّي وأنتِ الغارقة في قلبي. أرتئي فيكِ درب اللحظة الماضية والآنية والآتية. أنتِ أقصى من أن أعشقكِ عشقًا مألوفًا. يقتضيكِ حُبًّا بقلب الكون أسره. أجمل ما في حُبّنا أنّ لا أضداد فيه، فيه فائض تمام. مُصابٌ بكِ أنا حد يقيني الرّاسخ أنّي سأجدكِ يومًا، حتمًا دومًا. يوم يليه غد، إنّي أهوي في أعمق ما في أغواركِ وكم هو جميل أن تقع في هاوية الحُب. فاض منسوب الشَّوق وباتَ يُرغي ويَزبدُ. منّي لا أجِدُ مهربًا، فيكِ ينمحي يُتمي. رمقتُ فيكِ زُرقة البَحر ووعيتُ فيكِ رماديّة السَّماء. هذا التجانس لا تشُوبه شائبة. أنتِ ما يكون سامقًا لا علياء حُوكمتِ به، وعُمق لا قِياس حُدّدتِ عليه. أنتِ ما أنتِ عليه أعلاه. يا حُبّي الّذي بدون مقاييس وبدون أبعاد وبدون أيّ شيئ له أن يُحدّد من أنتِ. باستثناء الحُب في مكنَته أن يأخُذَ لكِ مقاييس عشقيّة. أنتِ مُرادي. أنتِ

شَأني. أنتِ عَالمي. أنتِ بَحثِي وتَفتيشي. أنتِ مَصيري وأرضي وسَمائي. أنتِ فنائي وأبديّتي. رغبتي بالانفراد وإيّاكِ جامحة وبلا قُيود. أنا أزهدُ في البشريّة جمعاء وأرغب فيكِ. صدقًا، خراب الحياة ومُرّها سيهون كوني عطوفًا ناحيّتكِ وقابضٌ بيدكِ أمدُّكِ بالقُوّة. كل ما أشعُرُ به تُجاهكِ وكل ما ألتمسه فيكِ من دفء وحنان، الجنّة بعينها. وعناقكِ، عناق الحياة الحقّة. أنتِ كفايتي وميلادي وعزائي في مرارة غُربتي. يا أمارتي الّتي أهتدي بها لكِ قلبي، تعشّقتكِ نفسي. تُبقيني في حالة صحو وتُوقظيني مُستحيلًا من صحوي بملء اللهفة. يُوميء قدري مائلًا إلى قدركِ. قد اخترقني منكِ ما يُعزّي دُنياي وأبديّتي. صببتِ في سكينتي صبّا. وكل ما يُصيبُكِ يُصيبُني. بكِ وُلدتُ وبدوتُ في فاتحة تفتُّحي. الّذين جزموا، وحده الحُب أعمى قد كذبوا. فبالحُب أبصرتُ وأدركتُ نفسي. ورُغم خَسراني الجسيم، تكونين أنتِ مَفازي العظيم. الجانب الآخر من ظِلال الأشياء، عطائي وعطيّتي، مُفرَدي ومُفرداتي. نصبتِ لي نصيبٌ يُصيب. تُخامرينني في أبعادي.. تعتملين في دواخلي كلهب يصعق. أسمعكِ كما لو أنّ أحدًا لا يسمعكِ. أُحبّكِ كما لو أنّ أحدًا لم يُحبّكِ. أؤمنُ بكِ، أنعتق من عقيدتي وأعتنق قلبكِ. عُمّيني بعنايتكِ. لا أقتدر منكِ نأيًا. إنّي

مُنضـو تحـتَ لوائـكِ، أرتكـنُ إليـكِ فـي مأمونيّـة. كُـوني طيّعـة فـي رأفتـكِ. كُـوني سـائرة باتّجـاهي. ثبّتينـي تحـت جناحـكِ. إنّ الفـؤاد يتجمّـر. ورجـوتُ ربّـاه دون رَهْبَـةٍ وبمـلء مـا أوتيـتُ مـن مقـدرة أن يُنـاولني مُنـاي، أي إيّـاكِ. أن يُخلّـدنا سـويًّا دُون وَداع. كمـا أحببتُـكِ دُون وَداع. دُونكِ كُنتُ في غُربة. كئيبا ومُنهارا. سادرا في ضجيجه. يـا قـدير أنَرْنَـا معًـا. لا أشـاء مـن دُنيانـاَ إلّاهـا. فليـذهب العـالم خَلف الجَحيم حتّئذٍ ولـن أستجلي ما وراء السُؤال كونـكِ قُربي. أستطيئ بمرآكِ. أحتضنكِ ساعة أشاء. في ضوء جديد تلاقيْنَا بلا فِراق. ندور في فلك الحياة وسرمديّة الأبديّة. المرء دون حُب مَنزوع الرُوح. مـررتِ بقلبـي طـائرًا، كقذيفـة. وتلمّسـتِ نيـاطَ قلبـي. انطبعـتِ فـي مُخيّلتـي إذّ ذاك. أخـذتِ أعمـاقي برقًـا عنيفًـا فـي درب السّـعادة. لا شفاء من الحُب باستثناء أن تُحبّ أعظم. أحبُّكِ حُبًّا كـاملًا وتاهـت فيكِ نفسي تيهًا تامًّا. أختزنكِ في دواخلي بملء الذكرى. لـم أكـن بـادئ الأشياء في سلسلة الحُب الخاصّة بكِ، بـل بـالأحرى خاتمة الأشياء، وهذا كفيل. كُنتُ بَكْر العشق في حياتكِ وإنّني الأخير. أنا الأخير في كل الأشياء. أنا أنسبُ الأشياء برِمّتها في مواقيتها. أتيتُكِ مُتأخّرًا، أحسـبُ أنّ تيهـي كـان سببًا، غيـر أنّـي جئتُكِ أخيـرًا. وأنـتِ حيواتي المُؤجّلة الّتي أبدًا لـم أحسبها، وللمقادير مُنحدرات تـدحر

بالظنون عرض الإنتظار، تُنيلُ سببًا للتفكير إلى مكيال عصياني عن طبيعة الكون. وأنا عن نفسي المُغرم بوجودكِ. اليوم، أنا مُمتنٌّ أيّما إمتنان لكلمة لا فـ"لا" القاطعة قادتني إليكِ. زيديني قُربًا. يا طُمأنينتي الدَّافئة والدَفينة. دعيني أختزنكِ، دعيني أضمّكِ، دعيني أراكِ. دعيني أُعمّر أبديًا في دواخلكِ. دُلّيني على المَسير. ناوليني جناحكِ للاحتماء به من ألم مصيري ومن فواجع أقداري. خُذيني من ضلالتي إلى هدايتكِ. اقتلعيني من بعثرتي إلى ثباتكِ. استقطبيني من رَيْبي إلى يقينكِ. اجذبيني من خوفي إلى سكينتكِ. وأحبّيني حُبًّا يربو فوق الحُبّ حُبًّا. انتميتُ فجأة إليكِ وكأنّكِ كل انتماءاتي، كما لو كُنتِ كل مُمتلكاتي، ودحضًا لواقع ما عاد يروقني، تكونين أنتِ رابطي الوحيد الّذي يشدّني. فلا شيء يهمّني إلى نقطة تقاطعت فيها طرقنا وها أنا ذا أهتمّ وأعنى وأُبالي وأرغب وأريد. عزائي الوحيد قُبالة ما جابهته أن تكوني بسهولة تحت وطأة حبْستي. أتشوّف بمُرادفاتي وأضدادي أن يُضيّعكَ الطريق أمامي. أنا العميق في بواطنكِ والعاشق لجمالكِ ودائم التفكير في لقيانكِ. أعشقكَ مرّتين، عشق النُجوم للقمر ومُكوثها أبدًا ناحيّتها. لم أذكركِ في دفتر مذكراتي سوى هاته الليلة لأنّكِ ببساطة أرقى بكثير من حروف الكلمات، لأنكِ أرقى بكثير من أن أكتب عنكِ في بعض

ورقات كلّ ليلة. دخّرتكِ في أعمق موضع وكان قلبي.. فعقلي أبداً لن يكون رؤوفًا بكِ. أنا الشخص الّذي لا يحب أي شخص. ها أنتِ ذا الآن كلّ الأشياء. كل ما سبق. كمّ أجهل كيف يُحبّ الآخرون، عن نفسي أحُبّكِ أرمي أنّي سأبقيكِ في قلبي.

مُستوحش، ليّنه الرُكود، حاول استغلال عقله الباطني ويُخاطبها. ولكن بلا جدوى، أخفق في الاتّصال بها. عظُمت لديه الشّكوك والظُنون. كان أمره أدهى وأمرّ.

وفدته رسالة نصيّة حينئذٍ. كان جوهرها كالآتي: "**لنا أن نُطلعك عن مستقرّها إذا كنت تدفع الضّرائب بانتظام. تحيّاتنا**"

وهو في ضيق، جفناه مُرتخيان، ظلّ على أرق. لم يجد ما يتملّى فيه. لم يكن في مقدوره أن يدير التلفاز خشية أن ينسلّ منها ما يسوءه. إلى عُزلته، بين ذراعيها يرتمي. في هذا الجو الانعزالي له أن يكون كما يتشهّى. لم يكن من شيء وفير قُبالة ما يراه ويُلاقيه سوى بالبعاد عنه. فضلًا عن أدوية تُقدّم دعامة تعزيز الوعي.

فقدت الأشياء رونقها وتألّقها، لهذا، ينطوي على نفسه، يُفتّش في العدم، عن أسباب الوجود، ومخارج الشُعور، ومجاهل الراحة، ومداخل الفرج، هذا ما كان ينبغي أن يأتي على صنيعه. ولم يعرف بعد لأيّ شيء يقوم بهاته المشاق الّتي تُضعف جماع قُوّاه. لم

يُعرف حتى الآن شيئًا من الصّعاب الّتي كان عنها مُكبّلًا. لن يكون مُستريحًا في هكذا مكان، كهذا كون. ما شأنه؟ ما حدفه؟ وما وجوده؟ ومضى نسيًّا منسيًّا دون أن يتناول العالم المُتخارج عن ذكره. أشقى الشؤون وأكثرها إيلامًا أنّه لم يشأ إلّا أن يتحادث عن الأشياء، الّتي خَبِرَها، إلى شخص وحيد، لكنّ المنشود لم يُرخِ أسماعه إليه، ولم يفهمه، ولم يُطق معه تريّثًا، وهاهو ذا في آنٍ لا يرغب شيئًا، ولا يتوقّع خيرًا. وكأنّ كل الأشياء الفظيعة قد حدثت. تبدّت الأيّام برمّتها، مثل حشرة خُرافيّة، تفترس تقريبًا كائنات مُقاومة.

ارتعدت شبابيك المسكن

الرّياح تقبض برقاب الأشجار.

السّتائر تهتزّ.

كمّ يروقه هذا الطّقس، النّسيم، وضجيج الرّياح، كمّ يهدف إلى تناول الشّاي بالبسكويت وإيّاها والتحدّث عن الأدب، الفلسفة، علم النّفس، وكل ما تبقّى من تعقيدات الحياة، بمنأى عن اهتزازات الفكر.

إلى أين ذهبت؟

لا ينبغي أن تذهب إلى أي مكان. ليس له أن يتجشّم مُغادرتها. كثيرًا، لقّنه رحيلها. دحض أنّ الوجود الجسدي يُحدث فروقًا. وإلى جانب ذلك، علّمه، أيضًا، أنّ لا أحد هَهُنا للعيش من أجله. كما أدرك أنّهما خُلقا لبعضهما البعض. سائل نفسه لأيّ شيء وقع في غرامها إذا كانت تنتوي أنْ تُغرّب.

كان في خلده أنّه أساء لها في مناسبات نادرة، لكن يجب أن تعلم أنّ وراء هذا السلوك يستقرّ شخص مخفي يبكي كثيرًا، شخص مجنون بحُبّها. كان على انتظاره إلى أن بات الانتظار أغزر من فاجعة الخذلان. كانت مرّته الأولى الّتي يقع فيها في الحب الخالص. كانت مرّته الأولى. ستكون هذه هي المرّة الأخيرة بالنّسبة إليه في حياته كلّها.

هل تعلم محبوبته الّتي استعمرت قلبه في يوم فيه شتاء وعواصف أنّه يموت غبنًا لحقيقة أنّها متوافرة وفي متناول من لا يحبها ومن لا يرغب فيها وأنّه يتمزّق قهرًا من واقعية ابتعادها عنه. كم يأمل الزّمن أن يُعيده إلى جميع علاقاتها وأن يجعلهًا صفرًا. أن يسترد دم قلبها الّذي أراقته من أجل من لم يكن خليقًا بها. يتمنّى أن يُعيدها يرقة. أن يحيل بينها وبين فاشل العالم. وأن يجعلها له. وأن تغدق عليه

دماء قلبها الساخنة والنظير وههنا سيُسمّيه فعل حب. أن تغدق عليه الحب إلى أن تروي ظمأه.

استلّ صورتها من جيب جاكيته وحدّثها قائلًا:

"لا يمكننا حتّى أن نحظى بلحظة رومانسيّة مثيرة ودافئة. لا يمكننا حتّى أن ننغمس في ليلة من السكر والإثارة. إنّها ليست ضرورة ولا رغبة، بل بل اتّحاد بين حبيبين الأشياء الّتي أخبرتكِ عن شأنها لم أعنى بها من ذي قبل. لم أتطرّق إليها أبدًا وسأبقى كما أنا وسأفعلها معكِ فقط وأريدها منكِ فقط."

(**8**)

كان الوقت الرّابع من شهر الترقّب، لم تشهد المدينة يومًا مثيلًا له، حيث كان بليغ القيظ والسّماء مغمورة بالغيوم، الطّقس يحيز إلى الميلانكوليّة، تتقلّب الأحوال الجوّية في غضون ساعات قليلة فيعيش قاطنوها، الفصول الأربعة غالبا، ممّا يرغم الأغلبيّة على المكوث في وكرها.

وبمجيء الصّباح، كانت "نور"، لقد مضى على ذلك زمنٍ مديد، بفطنة وتيقّظ أشرع لها الباب ولم يلق التحيّة، مدّ النّظر طويلًا، طويلًا، وكُلّه توق، أوْلاها بظهره واستدار إلى الوراء، يمشي مُتبخترًا، إلى مقعده الوثير، جلس وتأرجح، والآلة النّاموسيّة على ناحيّته، فار فائره، يتكابر بهذا الجو الانعزالي المُتدفّق ويحسد نفسه عليه، كان طرفه مُستحمًّا بالحُلكة، خلَت نظراته من أي اهتمام يأتي على ذكره، زد على ذلك يُقلّب ما ينبغي قوله برأسه ولا يقوله، لا يملك خيالًا للبوح، ومن دُون أن يصدر أي ضوضاء، سمع صوتًا يخطره أنّ هاته الخديعة منكشفة في أوجها غيْر أنّ نكرانه كان أوّل مؤشّر على التتمة واستمراريّة تمثيليتها.

"**ألاّ يتجاسر واحدا منكم على كشفها لنا وتجريدها من فضائلها؟**"

تحدث صديقه الثاني بينما كان يهذي. ثم لطمه الثّالث على قَذالَه. وكان الأوّل مُتجرّدًا من غضبه. وشرع يدغدغ له أخمص قدميه. ترجّاه أن يخلع أقنعة الخديعة. ويسفرها للعدالة.

تعجّلت تقول من فورها، تمتصّ غضبه، في حين أنّ "ريماس" منتصبة وراءه تنحني على أُذنه وتشتّتُ شعره الأملس، الّذي سرّحه إلى الوراء، وقد اشتعل رأسه شيبًا:

"ما الأمر؟.."

كان مكفهرّ الوجه، ومريد القسمات، نظر إليها شَزَرًا وقال على مضض:

"الحال؟ عن أي حال تتحدّثين؟.."

استوى في مقعده جرّاء تراصّ فقرات الظهر السُفلى. نظرته وحدها كفيلة لنقل اللوم الّذي وقعت فيه والّذي أدركه من تبعثرها وفوضويّتها وارتباكها. رسالة بسيطة لن تستغرق ثانية.. ثمّة دائمًا معاذير واهية متى لا تبتغي أن تفعل أشياء لطيفة للآخرين، أشياء من شأنها أن تذر حياة. سرًّا، وجّه لها اللوم والعتاب.

فقالت طامعة في كسب ودّه. قرأت التمزّق الّذي فيه وقرأت البُكاء الّذي يُداريه:

"إذا طاب لك التحدّث فأنا إلى جانبك، عُدّني بئرك الغائر.. خذني إلى بواطنك.. خبّرني بمخزون أمرك "
تحت ضوء شحيح، بنظرات ساخرة رجمها، وأجاب بابتسامة سخيفة، متحدثًا إلى نفسه:
"وبئرك هذا، أهو خال من جالسيه أم مشحُون بالنمّامين؟.."
فتلبّد وجهها. ومن قوله أدركها الإذلال. لم تكن تريد أن تتعامل مع هذا الانتهاك في ظلّ أطواره. وردّدت في صميمها بأن مقصده شريف.
أمسكت عن الكلام. نظرت إلى شقّته بعناية. كانت على أحدث طراز. يُخيّر التّجديد بين الفترات. ويدلّ هذ ادلالة صارخة إلى أنّه رجل مُثقّف، ووسيم، ومُثير.
سقطت عينا "نور" على رواية باليّة وُضعت ناحية جهاز تحكّم التلفزيون فأمسكت بها وأنشأت تقرأ الكتابة على ظهرها: **"ترصد رواية "النّاقوس الزّجاجي" حياة فتاة جامعيّة في ريعان الشّباب وهي على شفا انهيار عصبيّ. تبدو الصّورة مغرقة في المأساة و المفارقة. تذهب "إيستر" إلى نيويورك. لكنّها حينما تعود إلى بلدتها وإلى مقاعد الدراسة، تعود و قد تهشّم شيء ما بداخلها.**
أعادتها إلى مستقرّها بأنامل مرتجّة وبرغبة متفجّرة.

من اللّافت أنّه في ناقوس زجاجي أكثر متانة من ذاك النّاقوس الّذي كانت فيه "سيلفيا". في شخصها طبقات من المُلاءمة ما في شخصه. ومن اللّافت كذلك أنّ مثل هذا السّرد الكئيب يعني له كمّ من المؤانسة الّتي عاشها متى صار الظّلام كثيرًا والضّيم كبيرًا.

وتتوالى دقائق العبث المُربكة المضنية والقاتلة.

لاحظ أنّ ملامحها قد تغيّرت. فمازجته الغثاثة وقال بعصبيّة يُوجّه تأنيبًا:

"أين كنتِ؟.."

تختلق المعاذير. أخطرته أنّها كانت في المنزل، فانتفخت أوداجه وعلانيّة صرخ بها:

"صرتِ تفترين."

طقطقة حذائه والتشتّت المُستمرّ لعينيه وتوتّره الدّائم يسفران ما وراء السّتار، الشخص المزهد من النّقاشات، لا يجرؤ على العلاقات..

ثمّة علائم هجران في مُختصر ما هما فيه وما كانا عليه وما سيكونان عليه. إيمانها بعميق صدقه سوف يغدو مُتأخّرًا. لا يعتقد البشر إلّا أخيرًا. ما حدث مُنذ غابر الزّمان يدحض ما يحدث الآن. وما تمّ نحته أدبيًّا بحثًا عن خلاص من ندم. كان كلّ شيء مكرورًا

ولم تكن النّفوس مُتأهّبة تمامًا لتلقّي درسًا ممّا سبق وعدم تطبيقه فيما يلي...

كان كل من "نديم" و"نور" في أبشع أطوارهما، يقتاتان أحقاد المرأة العجوز ونميمتها، لم تمارس سحرها عليهما بل أخذت تخاطب جانبهما المعتم في سرّها و وكان لكلا الأمرين ذات الحصيلة..

ألمّت بها نوبة غضب فقالت على عجل:

"لمَ الافتراء؟، اذهب وسل أمّي وستُحيطك علماً أنّني كنتُ أجري مُحادثة معها."

فاِغتاظ غيظا بالغا.. وتبدّلت ملامحه بين مُستهجن وعاشق. عقد حاجبيه:

"منذ ثلاثة أيام"

اِستزاد ورمادًا ريشيًّا يتطاير من رأسه في عميق الجو:

"ما ذريعة ٱنقطاعك عنّي"

كنهر ماؤه مسمُوم، تجري كلمات، ترسُو في عتمة العقل، جعلت المرأة العجوز تتلاعب بهما لإشعال الخطوب والخلافات والاشتباكات. أن تختلق أزمة..

فهمست في أذن"نديم":

"كانت تخونك مع "سليم"، اِستحضر ما بصّرَتك به.."

فأردفت "نور" بنبرة حادّة مُتظاهرة الهدوء:

"كنت مشغولة بقضاء بعض الشّؤون.. ماذا بظنّك أنّي أفعل طوال اليوم؟"

فصرخ بوجهها:

"وأيّة أمور هاته تجعلكِ تتغيبين عليّ..؟"

حارّة كاللهب، جعّدت جبهتها وزعقت معلنة نفاد صبرها:

"كفى محاكمة.. تلك شُؤوني.. أنتُ تُزعجني بهذا السُلوك"

فألجمها صارخًا:

"أصرتِ تمتهنين الافتراء مثل أي شخص آخر؟.."

"فيمَ يعنيكَ أمري؟"

"أأنتِ في غنى عنّي"

"حسبي إلى هنا"

"لم نتقابل منذ يوم القسوة والتخلّي"

ونطّ من مقعده آنذاك. مضعضع الحواس. وكان أكثر عُلوًّا. أمسك بذراعها مُردّدًا صدى نظرات مُتّقدة.. ودمدم مُستخلصًا:

"مأساتنا هي أنَّنا سنلتقي بعد أن برِمَ أحدنا من الأخر والفجيعة العُظمى هي أنَّ الطرف المتشبّث سيفقد أناه آنئذٍ وجدار صموده سيهدم عندئذٍ وهذا الطّرف في أغلب الأحوال يكون قد تلقّى نشأة

غير سويَّة على الإطلاق غنيّة بالهشاشة النفسية ممَّا سمح للحياة أن تتطاول عليه وتسحقه بضراوة أينما حلّ وكلَّما ارتحلّ..."

كان جاهزًا، على الدّوام، إلى نيلها مُستحيلًا، خُلودًا، أبدًا. إنّه حسّاس لغاية لا يُمكن أن يحتمل العيش إذا أصابها خواء مميت.

من ذي قبل، متى كان بمفرده، كان في أتمّ سلام، لا شيء كان في طريقه إلّا وهزمه أو قاومه. بقساوة الحجر يُمكنها العيش من بعده وبلين القُطن لا يُمكنه العيش من بعدها..

كانت "ريماس" في شرب وأكل. كقُوّة مغناطيسيّة، ألقت دوائر سوداء على كليهما، ثم أصبحت تلك الدّوائر السّوداء توهّجًا وعبرت الخيوط السوداء آذانهم وأعينهم. سبّبت انقباضًا شديدًا يلكز عصبوناتهم. وتُحيلها شَذَرًا مَذَرًا...

بقلب فيه من نفخ غارق السّواد ما يُريب أمرته المرأة العجوز أن يُوقعها أرضًا ويُلقيها من النّافذة المُشرّعة، فراح يحدّ النظر في "نور" ويردّد بصره بينها وبين المرآة الّتي على خلفيتها، فتغيّر شيء ما من قسماته، وأغمض عينيه ، ثمّ نأى بنفسه ووضع يديه في جيبه. كان مليئًا بالخلاص الباطل. يتعمّق سُقوطًا ورحيلًا، رحيلًا عن الحقيقة.

ومُطـردة دبّـت راجعـة نحـو المنـزل وأحكمـت إيصـاد بـاب شـقّته بغضـب، وبقـت علائـم قبضـته مطبوعـة علـى ذراعهـا الواجـف، فصرخت "ريماس" في حدة ولم تبن دهشتها:

"كيف له أن يُغالب سيطرتي"

اِخترقت المرأة العجوز السّقف مُخلّفة على عقبيها شيئا من العبث، أخذ كأسًا فضيًّا في يده اليمنى، عصره وألقاه بملء غلّه ليرتطم بالمرآة المقابلة وتحطّمت إلى شظايا..

رأسه غيمة من سواد وغضب ومرارة..

تناثر الزجاج في جميع مناحي الصالون. فهو عن نفسه شيء لا يعلمه.

ضغط على كفّيه. حُفر بداخله حقل من الإحساسات المُتصارعة.

انهار على ركبتيه، يضرب الأرض بقبضته، يهتزّ ببطء ويئنّ كدمية..

ما من مكان يجتلب إليه تجلّي الأفعال.

ولـم تعـد الآهـات تصـرخ، بـل تبحـث عـن الأشـياء الأغـزر إزعاجًـا، تراها تقرع طبلة الألم وتشعر بالدم يتخثّر بين أصابعها المشوشة، السنوات دامية و الأصوات في رأسه تنزف وتحوم حول كومة الحطب المتأجّجة.. الأصوات تصعّد أيديها وأرجلها بغرابة، إنّها منتشية مع نزيفها الشّديد..

على نقيض الآخر، لم يكن كاذبًا. كان صادقًا فيما شعر به عنها. كان شعوره عميقًا جدًّا. لديه قلب أبيض ومُشرق وناضج. بعقله المُعاكس لتخمينات من يُجايله، فهو ليس من الصّنف الّذي يكيد للنّساء حُبًّا زائفًا قصد أن يمتلك أجسادهن ومن ثمّ يتركهنّ مشدوهات في مُستنقع من الوعود الكاذبة. وحده القدير يعلم ما يجول ببواطن البشر. إنّما القدير من يأخذ بأيادي خُذلت من الفاني واستنجدت بالباقي..

لم يشأ أن يترك المسألة لأجلٍ غير معلوم..

لم يمضِ وقت طويل وسرعان ما تعقّب أثرها، ففوجئ بها مُلقاة على عتبات، ورأسها مدفون بين ركبتيها، ليس لها نزعة في أي فعل، ذليلة من وُعود مُتراخية.. مكسورة الفؤاد.. منكسة الرّأس.. والآمال مُمزّقة. وكانت الهزيمة تنشر رايتها قبالة المدينة.. ليس لها استكناه الحق. انحنى وراءها وعانقها، وكانت دموعها تنهمر على خديه، وأنشأ يداعب خصلات شعرها ويشتم رائحتها. قال:

"أنا آسف، أدركني إرهاق قاتل في هاته السّاعة بالذّات، غيابكِ عنّي أرهقني، وجودك الرائع أراحني إلى أقصى حدّ وأمدّني بالسّكينة المفقودة الّتي افتقدتها بين ثنايا الحياة، وها أنذا أربض وحدي والحال على ما كنت عليه بالأمس وربّما غدًا سأكون وحدي كما

الآن، ما ثمّة ضمان في المجهول أو فيما يُعقل أن يكون، آه لو تعلمين كم يجعلني هذا الفكر مرهقًا، فإنّه يقضم أقوى عظمة في جسدي المنهك ويُمزّق خلاياي ببطء، وهذا الأمر يطال نفسي المتعبة و يضيرها إلى أقصى حدّ، وما زلت آمل ألّا تقوّض الحياة كبريائي النّبيل أكثر من كسرها الآن، فخطب الحياة أنّها تُعمّق من درجات آلامك في ميقات كل خذلان، زد أنّنا غارقون في الوحدة حتى نعتاد عزلة الأيّام، في كل خيانة نكبر، وتزداد مخاوفنا معنا، وتصبح أحلامنا أصغر، أمّا حسرتنا فهي ثابتة، أمنيتنا مكرورة ومستهلكة لها منابت سحيقة، ماذا لو لم نُولد من البداية، وهاأنذا على يقين بأنّني لن أتغلّب على نقائصي وأهوالي مادمت غريقا أنا في الانهيار إلى أقصى حد وغارقٌ أنا في شقائي أعظم ممّا ظننت.." ثمّ تدفّقت فيه ضرورة الحُبّ المُستعجل. أمسكها برفق من ذراعها وأمرها: "هلمّي بنا.."

أجابته ونظراتها غريقة في الدّموع: " إلى أين نحن ماضون؟.."

غائص في ابتسامة ساحرة قال: " البحر..هُناك سأُحدّثكِ في جوهر الأمر"

أجابت: "الجو بارد.."

قال مثل شلّال يحتوي: "معي، ستدركين الدفء.."

بعد ذلك، أدرك أن والدها ضرب والدتها إلى أن أصبح التنفس صعبًا وساءت حالتها. هناك أوقات تضيع فيها، عاجزة أمام ما يقف في طريقها ويشقّ عنها أنفس الحياة. ثمّة أحايين وحالات تختفي فيها عن الأنظار. تُحدّد للأيّام نقاطًا.

كان ما بعد الظهيرة وقتًا نقيًّا يبعث على الهدوء.

رطوبة دبقة في الجو.

بطبعه الخلّاب اِستلّ علبة من جيب جاكيته. أحسّ بالامتلاء. وجعل نظره إليها

برقت عيناه. أمرها قائلاً:

"أغمض عينيكِ"

"لِمَ؟"

"دعي عنك الثرثرة"

"سمعًا وطاعة"

تراءى وجه المرأة العجوز المخيف على زُجاج إحدى السيّارات.

أفصح عن مكنونه بملء شراهته:

"أجهل تمام الجهل كيف سيؤول بي الأمر أو أين ستأخذني الأيام اللاّحقة، لا أعرف شيئًا عن الّذي يُؤويه المجهول لي وأنا في حالة يُرثى لها وغير عقلانيّة، أنا في حاجتكِ وحاجتي إليكِ، أنا مُحطّم

ببعدكِ عنّي، ونفوركِ المفاجئ يؤلمني، ففي بعض الأحايين تعتريني شكوك مروّعة، وهُنا أحاول جاهدًا تجاهلها تمامًا غيْر أنّها تُهيمن على تفكيري وهاته الشّكوك تُحيطني علماً بأنّكِ ما عدتِ تحبّينني كالسّابق وغدتِ تشفقين على حاضري، لو يطرأ تغير قبل فوات الأوان، كم أتوّق إلى الصّراخ بصوت عالٍ، كم أتوّق إلى لقاءاتنا الممتعة، الأيّام الخوالي، وما أشقّ انصرامها ذاك وما أمرّ احتياجها وفقدها.."

نشوان، في استرخاء تام، ألجمها قائلاً:

"سنتزوّج في غُضون أسبوع... ليس ثمّة مفرّ من ذلك... كفاكِ إهدار في كنف عائلتكِ"

قذفت "ريماس" "نور" بكريّة مظلمة وقالت تنصب لها شركًا:

"أذعني إلى رجائه" وقد كانت فظّة بطبيعتها.

هبّ نسيم البحر.. تلاطم موجه.

اخضلّت عينا "نور" بالدموع. تنظر زُرقة المياه المُتضاربة. أحسّت اختناقًا في داخلها. ومع ذلك شعُرت بأنّ دماغها فاضٍ.. من جلّ السّواد.. ومن كلّ الخطايا.. ومن جلّ الصّدامات.

رنّ هاتفها. قرأت الرّسالة. قرقفت فرائصها:

"تعجّلي، تحيّاتنا"

ما كان يمكن لشيء أن يدفع بالمرأة العجوز إلى تخريب قرارات وعلاقات من حولها إلا بإحساسها برؤية البؤس في حيوات من أدرك فتات السعادة والعقلانية.

(9)

بأفجع ما يكون، انتفخت عيناه، ليلتئذٍ، على دويّ انفجار، وكان على وشك أن يأخذ روحه للحظة. يعلم أنّه ليس بخير، ماذا عساه أن يكون؟

مُلتهبًا، عطشانًا، وسقطت اللوحات المُعلّقة، وتكسّر زُجاجها، وتناثرت شظاياها. علقت إحدى القطع بقدمه فإنسابت دماء طفيفة. إلّا أنّه تجاهل ألمه تمامًا، وبظل الجسد المُتداعي تحوّل نحو النّافذة. تزمّر الجُدران يضغط على أمعائه.

مزّق السّتائر.

شرّع النّافذة.

في قتامة، ألفى الشّارع مكسوًّا بالثّلوج. أجواء هادئة. الطّريق مهجور.

على هامش الشُعور، أقام الصّراخ على صديقه الأوّل، الذي، أبرق خلال لحظة خاطفة، وراح يُلقي بكرات الثلج في السّماء، في محاولة يائسة لإسقاط نجم من علوه:

"يا أنت، ماذا يطرأ..؟"

لـم يفـه صـديقه الأوّل بكلمـة، و فـي لحظـة غيـر متوقّعـة، اِئتلقَـت السّماء بوميض برّاق.. وسرعان ما اشتعلت ألسنة اللهب، الشّوارع تحتفي بنقاوتها وهي جرداء من أقدام المشاة.

مُنطفئ ومُتصنّم، وبأوّل شيء أعترض بصره من على الطّاولة، رجم صديقه الأوّل. تطلّع إليه بعيون غضبى وشفاه صامتة.

"مالك صامت؟"

فتضخّمت حدقة صديقه الأوّل، وفي الإشارة نحو الفضاء صعّد يُمناه:

"هل ترى تراكم تلك الأضواء النّاريّة؟؟ إنّها تنذر بفجيعة الارتباط، سيجلب لك ذلك طوفانًا من التشاؤم.. لا تقل لي تاليًا بأنّي لم أحذّرك، فما أنت مؤهّل للارتباط بأي شخص، أنت شخص منهك.. وعليك أن تستمر في العيش بمفردك درءاً لأذيّة ذويّك.."

تبلبلت الروح، فرَكَ جبينه متسائلًا:

"ولكنّني متزوّج..؟"

كشّر صديقه الأوّل عن أسنانه ضاحكا وغاضبًا. وأعقب رجم السّماء.

يظلّ كامنًا، مُنزويًّا، تناهى إليه جلبة كبيرة.

أشرع مصراعيّ الباب بحاجة ضمنيّة واندفع للخارج، دُون أدنى شك، كانت "نور" تخطو في الطّريق، غريبة الأطوار، تتحوّل عن أنظاره.. وطفل مُصاب بالاضطراب يناهز الـ5 سنوات يُمسك بيمناها. كل شيء يسقط ضمن طالعه.

ويرتدي الرّجل أدباش الشّقاء عند بلوغه سنّ الشّقاء، ويبقى في ذلك الثوب يلهث بين ثنايا الغربة إلى أن يخلو صموده، كهذا يرون الرّجل في زمن حليفه الشقاء، تقف العقارب الحائطيّة في لحظة الكسر ليُعلن القدر موت مُعاناة اللحظة، لينبعث شقاء الغد مُعلنًا حُضوره في غريب آخر.

(10)

وها هي ذي السّماء مُستاءة وتتلوّن للمغيب كما كانت بالأمس. واتّشح الأفق بشفق أحمر.

كان نوفمبر شديد البرودة غيْر أنّه ولّى أخيرًا حاملاً معه كآبة حلّت في نهاية أيّامه القاسيّة، أقبل ديسمبر واتّبع خُطى الأيّام الأخيرة من شهر ويمّم وجهه شطر الميلانكوليّة.. وكل الشهور سوف تنهج على هذا النحو.

في يوم صاقع، جاء ردّ "جميلة"، والدة "نور"، عنيفًا بعض الشيء: "أيّ قرار عجول ستقدمين عليه؟.. من ذا الّذي وسوس لكِ" وقد ملأ الجزع قلبها.

ثمّ ترامت نحو ابنتها لتلتقط رسائل من هاتفها ما إذا كانت الدولة قد أقنعتها باتخاذ هذا القرار.

جحُظت عينا "نور". محمُومة الأعصاب تقلّصت قسماتها النّاعمة... يشّتط وجه "جميلة". ويكتسي حُمرة قانية. وقالت في ثبات: "لست قانعة."

نوبات تسطع وترسو في بواطنها.

أطرقت بمشقّة عارمة، حين من الزّمن. تقطّعت أنفاسها.

اليوم تعرف أنّ القدر لا يأخذ على مقاس مُشتهياتها دون فائض من مسعى...

كما لو أنّه قادم من مكان قصيّ انسلّ "حامد"، شقيقها من حُجرته. كان مخمورًا بسُموم مُختلفة. ملء فورانه، تعملق صوته: "دعيها تفعل ما تشاء"

دلف "رضا" والدها بضحكة مُلغّزة. كان يترنح من السّكر ويدندن. له عينان جاحظتان.. وبشرة زيتيّة برّاقة. رأسه شكل اليقطين.

فهبّت جميلة إليه قائلة:

"إليك مقعداً... إليك مقعداً"

دفعها دفعًا وقال: "إليكِ عنّي"

ثمّ رمى "نور" بنظرة وخرج من صمته.

.." تلقّيتُ رسالة مفادها أنِك ستتزوّجين في القريب العاجل"

بنظره المشدُود إليها، همّ "رضا" بتقبيلها مُستخلصًا: "تهانيّ الحارّة"

تُدخّر بداخلها، بما كان ينبغي قوله. بقيت في هذا الوضع المُهتزّ ساعة زمنيّة..

"ما أنا في حاجة إلى تُرّهاتك...إليك عنّي"

كزوبعة مُحترقة، نظر كل منهما إلى الآخر في دهشة. خرست الألسن المُتماوجة.. ومع ذلك لم يغضب والدها..

بُتِر صوتها وجرِضَت بِريقهِا بشقّ الأنفس مُستحضرة حالها الهشّة وقتما تجلس القُرفُصاء في ركن غرفة نومها ثم تقفز بملء جنونها، تستميت في ملامسة علياء لا تعرف علوه وثدييها يهتزّان، القدر يلطّخها ويسقطها في حين أنّ ثدياها يهتزّان وشفتيها المكتنزتين تنطقان بشقاء الحياة المريب وصوتها المهيب يكسر الجدران ، كانت تُكافح بجهد وبلا قوّة فائدة ويضيء النّور قصيّا عن حُدودها وأذرع الظّلام الممتدّة تستقطبها لتحتوي شرنقتها... حشود غفيرة تحوم حولها تثلبها وتوصمها بالمُتواطئة. الآن، فُرصة سانحة للمُضي قدمًا وترك عالمها الضيّق. الّذي تنحصر جُهوده في تأمين عواطف من الحرمان وخبرات شحيحة فقيرة على وشك أن تكون غير قائمة. سوف تهجر عالمًا ينبض بالمحدُوديّة وتعويق الذات. جعلها لا تعرف إلى أين تمضي أو إلى أين تصل. فقدت فيه أضأل حاجيات الحياة وقدّم لها مُتطلّبات المَعيشة الأغزر بُؤسًا. أيّ شيء ينبغي القيام به في مدينة لا تخترع تغييرًا في دُنيا باستثناء الزواج. ومع ذلك سوف تستقرّ في شقة "نديم"، على مقربة من عائلتها. وتتّخذ مسارًا مُشابهًا. فهي لم تُتقن التغيير ولم تفهم أبدًا طعم الفرح، كما لو كانت مُجبرة على الحُزن الأبدي. في نظرها، تُمثّل

الحياة الشقاء الوقتي للموت. ستظلّ تُعرف الأزمات والابتسامات الدّائمة والإخفاقات الطنّانة الّتي لن يعرف عنها أحد.

كان الوقت فجرًا ضائعًا متى تحوّلت "جميلة" إلي غرفة "نور" والتّي كانت بدورها في حالة من الفوضى والصحو التام، مشحونة بخيبة الأمل.. محفوفة بالمرارة. مسمومة الأيّام.. نظراتها مشدودة رأسيًّا إلى الأعلى، حيث تُتوّق إلى أن تكون.. كمن تنتظر شيئًا ولا تتشوّف قادمًا.. لا شيء يُدهشها أو يُثير بهجتها. ترتخي ذراعاها.. تُعانق والدتها، والألم المخزون الّذي يلوب في بواطنها ينتفخ.. يتمدّد.. وبرغم ذلك، لم تكن قادرة على كبح جماحها.. فارت رغوة تشجنّها وانطلقت تشنّجات بشكلٍ مفرط.. لم تُوفّق أحيانًا في إخفاء ما يعتمل بداخلها.

حلقها يُصدر صدى كالورقة المُمزّقة:

"الاختناق يضغط على صدري"، قالت وتشّتت الزبد من شفتيها.

"لو كان بإمكاني القضاء على كل الأشياء القبيحة"

"لا أحد يستطيع"

"تقبّلي أسفي إذا ارتكبت آذيّة بشكلٍ مُتعمّد"

"إعتذارِكِ، لا تعليلات له.."

"لقد فشلت في تربيّة أطفالي"

"ما جدوى الاعتذار في الكبر إذا كان الأذى في الصغر؟"
"ليتني سلكت طريقًا عادلًا"
الهوّة بينهما تكبر أكثر من أيّ وقتٍ مضى.. غُبار الماضي يتعاظم بللًا.
تحت رقابة، يمثّل هاجسًا، كانت المرأة العجوز تُلقي نظرة قصيرة عليهما، من خلال مرآتها، في حين تُطلي أظفارها. عالمة بكل ما يحدث.. راصدة لكل ما يجدّ.. واثقة كل الثقة بما تفعل.. وجهها مقبرة وقلبها ضامر.. غريقة في الغيبة والنّميمة.
تُنشد شعرًا قالت:
"إن غدرك القدر.. واِسودّت شياطين خرساء.. لتوثقكم صلة ملعونة أيّتها الدمى.. وكنتم مراقبين وضعافا في صفاتكم.. وما كان يمكن لشيء أن يثنيكم عن السير ضدًّا "
وجعلت الظلام يزحف إليهما، يبتلعهما
أردفت "جميلة" تُقطّع هذا الصمت:
"انتقمي منّي بسعادتك"
من فضلك، لا تزيدي الطين بلة ""
"سيُعوّضكِ "نديم" عن جميع المخاسر"
"لست أكيدة.. ما أنا حريصة على الآمل"

"كوني سعيدة أو عيشي وأنتِ تحاولين"
"سأحاول ومع ذلك لن أفي بوعدي"
"أرجو أن تكون حياتكِ الزوجية المستقبليّة أجدى نفعًا من حياتي"
"الغد مُفجع"
"ابنتي القويّة قادرة على مواجهة أعتى الصعاب"

وانثالت الدموع مدرارة.. دون رحمة، كان ثمّة شيء ما يُقطّعها.. الأسيّةُ تلفّ حول رأسها.. ليست ما أرادت أن يؤول إليه الشعور.. غريبة على عالمها ومُتغرّبة عن الانتماء.. تطرق جُدران المُحرّمات.. لا تعرف حقًّا ما إذا كانت ستبلي بلاءً حسناً فيما سيأتي.. ليست على بيّنة من وجهتها.. كل ما تعلمه أنّها ضائعة.. ضائعة للغاية..

لن تتحسّن حالتها إلّا إذا سارت الأمور كما هو مأمول، وفي الأغلب تمنّي النّفس أشياء ألا ليتها تكون جليّة قبالتها أو حتّى تبصرها في الأحلام.. كانت تُريدها على أرض الواقع، تلاشت حياتها وافتقدتها على مدى عقود، بات لزاما عليها أن تُعيدها إلى نصابها، تُريد حياة على عكس هاته الحياة، تريد أن تعيش في سلام

"اسمحوا لي أن أغتنم الطريق القويم"، ظلّت على همهمتها إلى أن نامت.

العائلة؟ هل من الغريب أن يعيش المرء اغتراب الأوصال مع من يجمع السّقف تحته؟ أغريب أن يولد وسط اغتراب معلن؟ أهو ظهور لإيهامه وتذكيره بأواصره المقدّسة؟ أم غريبة هي تلك العائلة؟ تراه خائنًا إذا سعى للصعود، تراه غادرًا وتنكره وتلفظه ولا تقبل به إلّا إذا عاد برأس مُنحني من خاطرة الارتقاء، مصيره وتتلاعب به مثل دمية خشبيّة يذعن لها لا شعوريًا، أوَ ليست غريبة هي هاته العائلة؟

(11)

تتأرجح السّماء بين ضوء النّهار وظلام الليل. كان غروب أجمل من ذي قبل.

مثل قاتل مُوجّه لمحق الوُجود، سأل مُوَثَّق عقُود الزواج:

.." "نور الهاني"، ابنة السيّد "رضا الهاني"...أتقبلين الزّواج من المدعو"

"أقبل" وبملامح الخرقاء الّتي لا تعرف أي شيء تُريد على وجه التحديد أجابت:

"هل أصبتِ في تخيّركِ..."، تضاحك مُوَثَّق عقُود الزواج مازحاً..

ثمّ توجّه بذات السّؤال إلى "نديم". في حالة من شواش الفكر، وجم، جعل نظره إلى صديقه المماطل "الرّابع". أمّا ما كان من أمر الثّالث ففاهه مُخيط. تجاهله "نديم" تجاهلاً تامًّا.

قال الثّاني بشيء من التفاخر: "أصبت في اختيارك يا عزيزي"، بارك خُطوته فجعله على يقين.

"لا تتزوّج.. دعكَ من هذه الخبيثة، ستحطم حياتك" صرخ الرّابع.. "استحضر ما أخبرتك به يا طيْر الهلاك"، أعقب. "يجب عليك البقاء أعزب و تموت كالكلب دون إحضار أطفال إلى هذا العالم". يُحوّل ذهنه إلى كم البُؤس الّذي سيقضيه بين أحضانها ليلة بعد ليلة..

إلى مكيال الوهن والفُتور، أحسّ بعدم الاتزان والإجهاد الذهني. كان ضجيج مخاوفه جهيرًا بَيْدَ الوجوم الّذي يجري.
أدركه في بادئ الأمر خفقان مريع. تكدّر بصره. تضخّم مقياس حرارته. يتضجّر ويتكاسل. يسأل نفسه. خمّن في الواجب صنيعه. استقرّ على رأي حازم.
كمن انتهى من الذكاء واعتنق الغباء، جذب شهيقًا أعمق، وأقام الصّراخ على مُوَثَّق عقُود الزّواج:
"أقبل... أقبل... أقبل"
"إثر سويعات قليلة، سيحتفي كِلاكما بالأخر، بالشّتائم والإهانات، بدلًا من الكلمات الطيّبة، سيواري كِلاكما فداحة قراره بكلمات فجّة وأليمة"، قال مُوَثَّق عقُود الزواج.. "طبقًا للصلاحيات المنسوبة إيَّاىَ". أتمّ لفظه.
وفي الفخ وقعا، وصلت رسالة نصيّة إليهما. جاء فحواها كالآتي: " الجمهوريّة تتقدّم لكما بأحرّ التهاني. كما نتنبّأ بإخفاق ذريع في هاته العلاقة مع خالص الاحترام والتّقدير"
عدواني، كاتبهم تباعًا:
"بادئ ذي بدء، جزيل الشّكر لكم على التّهنئة... ثانيًا وأخيرًا، أرجو أن تكفّوا عن مُشاهدتنا "

رنّ هاتفه. قرأ الرّسالة: "لن نراقبكم هاته الليلة
تاليًّا، كان الوقت مساءً. وجدا باقة ورد وعشاء فاخر في شقّتهما.
رنّ هاتفهما. قرأ الرّسالة: "على دراية ما أنتما فيه من وطأة الجوع
تحيّاتنا."

(12)

شيء حدث في طفولتك، وبدون أن تعي ذلك،

كلّ شيء سيدور حوله، إلى آخر لحظة من حياتك

أحلام مستغانمي

من فرط غبطته، همس لها أنّ مرارة الصّعاب لا حل لها، وظروفها عديمة الرحمة

أضاف:

"الإيمان قادنا إلى حيث ننتمي"

بحياة مُنتظرة أرحب كتب لها مساء أمس أنّ الإيمان يكتنز طاقة مهولة لا تدرك إلّا للأنقياء، متى تعصب تيْنك العينين، وتستنكف عن مشاهدة رعب هذا الواقع، متى تصطاد أنامل الشخص المناسب، تلك الطّاقة المُرعبة تهشّم أعتى الإحساسات المكبوتة..

وفي طلاقة لياقته أخبرها ليلتذاك بأنّه ينصت إلى موسيقى **Chopin-nocturnes**

في الليالي الحالكات راسلته هي الأخرى وبصّرَته أنّ ما كاشفها به قد جعلها أكثر تمسّكًا به واستزادت: " كل من يتعلّق بالشّخص اللّائق ونقاء الحياة، من يتشبث بالقَدَاسة والطّهارة، من يتمسّك

بروح العالم وسحره، بغض النظر عن مدى صعوبة ذلك فلن يخذل أكانت المحن تقصف به، الإيمان سوف يُنير طريقك وكيانك، في خضم هذا الظلام القامع ستمشي واسِع الاطِّلاع، سيسعى السّواد إلى طمرك، هاته المرّة ستسير بثقة عمياء، والفضل يعود إلى اللّائق المُستحقّ، أيًّا كانت أسوارك مرتبطة بأولئك الذين لا يستحقون تضحياتك، لا تقترن بهم، لِئلاّ تغدو مقوّض الآمال ومهشّم الظُّنون، فسيكون من المستحيل الاستمرار في الحياة..

* * *

بكلّ ما تحمله الكلمات من معاني، امتثلا من ثغرات الغير واقتديا من قصص الفُراق ليتّقيا التّعثر في حفر الفجيعة الماكرة ولتلافي تكرارها في حيواتهم، واليأس لن يذرف الدّمع طوال أيّام كثيرة لأنّه أحاقهم، فالحياة ستقلل من شأنهم وهي غريقة في قهقهاتها، تشدّ بطرف ثوبها المُضمّخ بالآهات، تراقص مُنجزاتها في ليلة حالكة، تحتفي بخيبة لا سابق لها ستضيفها إلى رحلة حياتها، ستغنّي الأوبرا لإغضابهم، ستغنّي الأوبرا لزعزعتهم من خلال تخطّي جانبهم المعتم ، ليعبرا بوّابة تؤدّي إلى أبواب الوجل، تُفضي إلى متاهات متفرّعة...

* * *

كانـت تنتظـر هـذا اليـوم ، لكـنّ أجـزاء الأسـيّة نُجِتـت بعنايـة علـى محياهـا، وهـو شـيء يحبس أنفاسـها، يطبق على عنقهـا ممّـا جعـل وجههـا المزخـرف مسـتحيل السـعادة، فـي ليلـة قمـراء كـان "نـديم" جـذلًا، لـم يتخـل عـن ابتسـامته العريضـة، يُخالجـه شُـعور بـالامتلاء، قبعـت تحـدّق بـالمرآة باعوجـاج، كانـت متخاذلـة، اختنـاق الماضـي أعلن وجوده، كانت عابسة تارة وتتضاحك مرّة، وجهها مُتقلّب بين من وقت لآخر، ربض حذوها وكانت عيناه تلمعان كالنجوم في السماء، لم ينتبه لضيقها..

"ستكون أجمل ليلة.. أقضيها في عيْشي..." قال قاصدًا المزاح..

في حال سيّئة كافحت لتزييف ابتسامة خفيفة لكن سرعان ما ولى وجهها متجهّما

رشق نظرة عجولة على المرآة المركونة أمامهما وقبض يمناها ومرّر أصابعه بين أصابعها ثم أحكم إيصادهما.

في مُستنقع الكلمات وبحر الضّياع ومُحيط الضباب عاد يتغزّل:

"اتّحدت أجسادنا وتقاسمنا نفس الكيان، فشكرا للمصير الّذي لمّ شملنا، على الرغم من كل ما خبرناه، ما كان يمكن لشيء أن يشتّت شملنا،.. وسيزاح من ثنايانا كل من يتآمر علينا مُؤامرة..."

يتأسّى، أطرق وأبت تلك الابتسامة العريضة أن تفارق وجهه.. ثم استأنف القول:

"أخذت على نفسي عهدًا قاطعًا لا رجعة فيه بغض النّظر عن مدى الضّرورة... أتتذكرين؟"

كانت مُنصرفة الذهن، دائمة الانشغال بماضيها، نظرت إليه نظرة استفهام وامتقع وجهها.

"ما الأمر.."

"حاولي تحديث ذاكرتكِ قليلًا.."

"ما لكَ تتحدّث معي بغوامض؟"

"أواه لن أطيل الأمر عليك. وعدتك بألّا ألمسكِ إلاّ إذا كنت حلالًا.."

كان ريقها يأبى البلع ، شيء ما يُكمّم فمها، ومع ذلك أردفت تقول: "عن أيّ شيء تتحدّث.. متى كان ذلك؟"، تظلّ تنسى. لديها مُشكلة كبيرة مع الذاكرة..

على النّحو الّذي يُوافق مزاجه افترّ عن أسنانه ضاحكًا وأجاب:

"خاطبتكِ بلغة العقل.. حين كُنتِ تقرئين أفكاري"

يُقاسي من حالة عصبيّة مُتحجّرة، أمسك عن الكلام.

في ظل هاته التقلّبات طأطأ رأسه مُتحسّسًا بأنفه عنُق "نور" ثمّ دفن رأسه بين نهديها الشامخين يلعق في ما يسيل إليه اللّعاب وما أعطته لـه الحياة بحلوها الآثم الجميل وكانت أنفاسه اللّاهثة تزداد تدريجيًا، كانت حلاوة الحب هي الّتي زادت من إثارة التوحد. أسوف يأتيها بالتسافد وبكل وضعيّاتها؟

باشتهاء ينبع من عميقه، نافخًا صدره، امتصّ رحيق شفتيها العسليتين فاشتعلت نيران قلبه وكانت أظفاره المقلّمة على وشك أن تخترق جسدها الناعم، أغمضت تيْنك عينيها تحسّ بذقنه المخشوشن، إلى سنوات سابقة عادت بها ذاكرتها إلى يوم وقعت واقعة أسَرتها في صخب الماضي. عاودتها الذكرى. وباعتداد الرجل المهووس بجهازه التناسلي، طرحها على الفراش في غفلة منها وخلع قميصه ثمّ اِرتمى عليها يقبلّها ويتلذّذ طعم الحياة في سابقة جديدة لا عهد له بها، كل قبلة تعوّض بتنهيدة خفيفة..

تحت آثار الأدوية، كان قضيبه في حالة انكماش، أغزر هشاشة ممّا يظنّ، بطريقة مشروعة أو غير مشروعة يُشاغبه بصُورة مُتواصلة آملًا دون جدوى في انتصابه. فقد المكنة على ذلك. كانت رُكبتاه تُقرقفان. جعل يتحسّس ويُلامس جسد زوجته الممشُوق بعُضوه المُتهدّل مُتخيّلًا إيّاه في أكثر حالات النّشوة، في اكتمال كامل.

في الوقت المُناسب، كما دأبت على ذلك، يتكاثف دخان أحمر قان ويُرغي و ويُومض وجود "ريماس" ذات المكائد، تحور وتدور، كما لـو أنّهـا واقفـة علـى غُصـن شـجرة، مرتديّـة فسـتان زواج، زادتهـا المساحيق بشاعة...

"À qui j'ai l'honneur"

أردف مُعقّبة:

"Ça fait un bail que je n'ai pas vu un couple marié"

بما لا يسرّ البال، هتفت المرأة العجوز في أذن "نور" بعد شيء من الخرس المُربك:

"أنبئيه... هيّا... هيّا... أنبئيه.. من تحت السّواهي دواهي"

نأت "ريماس" عنها وتابعت عقب هدوء مفاجئ:

"دع هذا الزواج يتعفّن"

وراحت تتمتم في حين كانت تتبرّج بأحمر شفاه "نور" وتحملق بالمرآة:

"الله لا يباركلكم في الزّواج..."

مسعورة، رمقتهما العجوز التي يسكنها الأحقاد والكراهية وتدفّقت يـداها نحوهمـا مفتعلـة أسـلاك وتوهجـات سـوداء احتـوت "نـور"

وانغمدت في جسدها آنذاك، غيّر شيئًا ما من قسماتها، أذرع بشريّة غادرة تدفعها عن الجسر، وبلمح بصر العين درأته بمنأى عنها كثور هائج.

ووثبت قائمة على قدميها ضاجّة:

"إليك عني.."

جعلت "ريماس" البشعة دائمًا تلفّ وتدور حولها. ونكص "نديم" على عقبيه.. أسف أسفًا عظيمًا.

قال وقد كان سيئ المزاج:

"أيّ شيء حدث؟"

في مُحاولة عقيمة، أردف بنبرة ملؤها الوجل والذهول بعد صمتٍ:

"أيّ شيء هناك.. ما الذي طرأ.. ما الّذي دهاكِ"

طافت في ظُنونها، منزوعة الروح، المُجهضة، اتخذت الخرس ملجأً ولم تتفوّه بلفظة..

في ذلك الوقت، كانت المرأة العجوز المُترصّدة لجميع مجريات الأحداث تقضم أظفارها وتطنّ بنظرات سامّة لكليهما.. صعّدت ذراعها الأخرى وجذبت اليسير من تلك التوهّجات السّوداء من جسد "نور" وطفقت في شدّها.

كمن لم يستكف من اجترار ماضيه، تضخّم هياجها وقتذاك، يتآكلها القرف، وأطرقت تبحلق في الأرضيّة..
بنزعة مُتّقدة تُتلف ما في تلافيف الدماغ، قبض ذراعها.
إلى الأفق الضيّق كانت المرأة العجوز تخاطبه على لسانها، كسهم مُتّجه نحو جُمجمتها، تضخّمت حدقتا "نديم" واِصطبغ وجهه باللون الأصفر ثمّ اكتسى باللون الأحمر، مُتصلّبة في مُستقرّها الفظيع، ومع ذلك تناهضت قائمة على قدميها من مقعدها وقد اتّسخ ثوبها بدموع ممزوجة بالكُحل ثمّ أردفت بلا تفكير ولا تزال "ريماس" تملي عليها ما تبتغي وتختلق اختلاقًا تعابير ازدراء..
"لا تخطو الحياة الطّريق الّذي نحتناه، لا يوجد فرح، بل الغضب من القهر، وعدد من الأشياء البغيضة الّتي لا يمكن التنبّؤ بها، تقلب نصاب الحوادث وتقذف بالمخطّطات وترفسها بأرجلها، بطريقة ما لم أفهمها، تلبِث اللّعنات تلاحقني، الواحدة تلو الأخرى، كما لو أنّي أقدمت على اقتراف خطيئة لا غفران فيها.. "
وبشراسة تنام في رأسها دقّت المرأة العجوز الأرض بأرجلها.
أمسكت عن الكلام على لسان "نور"
بُكاء آخر.. قهر مُتواصل.. انهمر سيلًا من الكحل على خدّي "نور" ومسحت تسرّبات عينيها الذّليلة ولبثت المرأة العجوز ترمقها

بأحقاد ثمّ انتصبت واقفة من مقعدها ونفثت بغبار أبرق بغتة في كفّها، فركت "نور" عينها آنذاك، مُتعبة، ممقُوتة، في الطّريق المُوحل تُكمل سيرها المُستمرّ، شرعت بإتلاف تسريحة شعرها ونوبة جنون أشدّ من هولات الاحتضار قد ألمّت بها.. كل ما فعله، في ذلك الوقت، هو هزّها لإيقاظها من سبات الانهيار الّذي سقطت فيه.

تعاظم جنونها وبلغ إلى حدّ الصّراخ كما يفعل مرضى الأعصاب، فآل الأمر بصفعها. جُدران البارحة تحوطها من كلّ حدبٍ وصوب. تدنو رغم الالتصاق المُربك.

عمّ الوجوم زوايا الحجرة... وضمّها متى طفرت الدّموع من عينيها الذّليلتين وغرقت في بكاء وجيع.. الصّمت كان جحيمًا.. لكنّه سيغدو رحيما.

أحدّت المرأة العجوز النّظر في "نور" وأقامت عليها الصّراخ:

"أنبئيه.... فأنتِ لا تستحقّين الهناء... لا أحد يستأهل الهناء..."

ترتدّ رغبتها في الإفصاح والإيضاح والبوح والكشف، لا يحق لأحد أن يُسائلها عمّا هي عليه الآن لأن أحدًا لم يخفّ لغوثها متى صارت ترتجي ذلك.

قالت:

"أيّ شيء أتيت عليه لأنال ما نلته"

لا تقوى على الذّود عن نفسها. لا تستطيع أن تُبرّر له مدى عجزها، عن الانتساب إلى ذاتها.

الصّبر اهترأ. انتفخت أوداجه. تضخّمت وتيرة توتره. وجَلجَلَ مُتهالكًا بأعلى صوته..

كانت المرأة العجوز تشاهده في سكون و اِئتِلاقُ عينيها ينمّ على اللّذة والإغواء، من فوق لتحت تمسحه بتيْنك العينين والاِشتهاء يعلو و يربو شيئا فشيئا، جال ببالها آلاف ومئات الآلاف والملايين والبلايين من الأفكار والخواطر الّتي كتمتها وأخفتها في غضون ثوانٍ وسرعان ما ثابت إلى رشدها وارتبكت إلى حدٍّ ما..

مُعتكرة المزاج، كانت العجوز صائدة الحيوات تقضم باطن خدها ، فأصبح وجهها داكنًا وبشعًا.

ثمّ أمرت تقول بهدوء ولا تزال تصرّ على أسنانها:

"الآن سوف تخطرينه "

قبضت "ريماس"، الّتي ليس لها سوى القيل والقال، سيجارة حشيش مشبُوبة لاحت من العدم وسط لقطة سريعة.

اِنقبض الدّهر المهدود برهة قبل أن تدلي "نور" بشيء من شأنه أن يغيّر لون الحياة بيْدَ أن دوائر خرسها شافية كانت لتحيطه علماً

بالحقيقة المعلنة من البدء حيث كانت أبلغ من الحملقة. كم تأنّت إلى هذا الوقت، إلى هذا الحدّ.

وبغتة، اِعتلت خدودها صبغة حمراء ضاربة للزرقة القاتمة، ثمّ قالت بما يعتلج في نفسها:

'لقد تعرّضت للإيذاء الجنسيّ عندما كنت صغيرة جدًّا..أنا امرأة معقّدة جنسيّاً.. ولا أرغب بصنيع شيء معك.." ، تكشف دفائن لفّها النّسيان وغمرها كرّ الزّمان.

الكوميديا هي الوجه المُقنّع للأزمات. نفّثت المرأة العجوز الدخّان في الجوّ ولا تزال تتضاحك:

"Ça ce que j'aime".

انكمش. لم يعد له وجود. تلقّت أُذن "نديم" رماحا وشكت أن تغتاله.. كلمات مرّت.. مثل الشّرارة في أُذنيه.. قرقف ونفخات الهواء الخانقة قد لامست أديم جسده.

قعدت "ريماس". نظرت إليهما في شيء من اللذّة.. طرقعت إصبعيها فأشرق وعاء من الفُشار.

قالت:

"مسار الأحداث يجذب الكثير من الإثارة والتشويق.."

يفتقر القدرة على التركيز، ربض بعد أن خذلته ساقاه.. لا يقوى على الحراك.. ليس قويًّا بما فيه الكفاية ليتقبّل شيئ كهذا. على تحمّل الأعباء. يتعاجز على أخذ قسيمته من الإدراك. فشل القدرة على الإدراك، قدُر كُتب في جميع صفحات حياته.

وقال دون أن يجرؤ على صنيع شيء. صعّد بصره والرّأس مثقل بالهموم والهواجس:

"من كان هذا ؟"

رشّت عليه المرأة العجوز بعض تُرابها وتمتمت:

"اضربها أيّها الأحمق... استيقظ من دُوارك"

في رأسه أُعدمت أُلوف الأعصاب رميًا بالرصاص، تهجّم عليها وقتذاك، صفعها وسحبها من شعرها بجبروت، وكانت عيناه تشتعل فيهما النيران، ألصقها بالجدار، طفق يُفرغ غلّه بلطم الجدار، فيه يجد عزاءه.

مضغت المرأة العجوز أخر حبّة من الفشار. أعجبها طبخه.

"زيدها... أخبطها... أقتل منظرها لحرف..."

سُؤاله المهزوم ينطلق. كانت نظرته دموية

شقي، مأزوم، أشدّ حاجة إلى أن ينفجر كما لم يعتد أن يكُون في سابق عهده. نحبت "نور" واجمة ولا تزال تندِب خَديها.

"كان قريبي..."

مُضاعة في المطارح الأغزر حُلكة، واجفة وسط الأعين الشرسة، اِنتصبت واقفة متحاملة على وجع قدميها.. كان ينبغي لها أن تهرب، لكنّها لم تفعل.. أوْلاها بظهره.. اشتعلت مشاعره.. وتأجّجت.. أغمض عينيه.. مسح نضح عرقه.. ثم قبض ذراعها

وقال في لهجة وجيعة:

"تفترين.."

يا للأسف اِنتهى الفشار فقالت العجوز:

"استزادة... بدأ الفيلم...."

مهدومة، غير قادرة، زعقت "نور" زعقة بشيء من القهر وكان ما قالته ذو وَجاهةٍ:

"اعتبارًا قلت لك الحقيقة.. لو كنت على شيء من التكاذب لما لذت إلى الطّبيب ورتّقت الضّرورة.."

اشرأبّ بعنقه. بدأ يلتقط أنفاسه أن انهار وكانت الغصص السّوداء تنهال عليه.. الحُب مات فيه الصّدق.

من مسامها ينزف الدم. يخرج فقاقيع تُثير القيء، بكلمات طليقة، ومشروخة

وعاودتها الذكرى..

العرق يسيل إلى ما تحت فخذيها، نأت وعمدت صوب النّافذة المُشرّعة تستكفي بمشاهدة مجانين المدينة، وقد توشّح الجوّ بالضّباب، لبث البخار يتطاير من فمها، ولا تزال تشعر بقذارة مرّة، تشهّت أن لا تكبر في عدم الأمان والاستقرار، مكث "نديم"، مبتور الأحاسيس، اغتيلت ملكاته وقتذاك وجذبه الأمر إلى عوالم أخرى حيث الدّوخة تشدّ زمام اللّحظة، قام بدفن جثّته في السرير، يرمق الحائط بنظراته الثّاقبة، يستجوبه في سرّه ويتضرّع إليه

مأخُوذ بما سمع يشاهده أصدقاؤه الوهميّون في كآبة، يثقبونه بنظراتهم، وفي الآن عينه يسترقون السّمع لأنفاسه المتدافعة اللّاهثة. دنت المرأة العجوز من على خلفيّة "نور". احتضنتها وأخذت تلامس صفاء وجهها بيديها الذابلتين وقالت بنبرة يشوبها الحُزن: "أسيتركك تصطرعين ذلك الحسّ المقيت دونما رفيق، أم أنّه سيلبِث عند ذلك العهد الكريم ويؤنسك في ظلامك العتيق.. أمنّي النّفس بأن يتركك..

وقالت حينما عاينت الأمر: "على الأقل وفى بوعده ومكث ناحيتكِ.. لم يخن العهد، ولم يجعلكِ مسخرة للعيان" ثمّ تحسّست بطن "نور" وأردفت بارتضاء: "أيعقل أنّكِ لا تنجبين؟"

(13)

اكتنفهما الزُّؤام، هجرتهما الحياة، وتركت رُفّات امرئ قد تبدّد، زوجان وثقهما الشّهيق والزّفير بمعترك الحياة، أحدهما أبى أن يغادر شرنقة الذّكريات الأغزر إعتامًا وظلّ أسيرًا لها، أن يكون حرًّا عصيًّا وأن يمضي قدما في أنفاق الأيام أبيًّا.

أدار وجهه وكان متعبًا.. يبذل كبير عناء للتوفيق في مهامه اليوميّة.

أشاحت بوجهها. وملّصت يمناها على عجل. قبضت بلفافة. أوقدتها. وسرت بالقُرب من النّافذة المُشرّعة. شمخت برأسها بعض الشّيء. لبثت تنفث الدخّان في الجو. وعيناها قد تجرّد منهما الشعور. وجدت سلوانها في تعاطيها للحشيش.

أعرضت عنه وتظاهرت بأنّها غير مُبالية. حدّقت في الشّارع بنظرتها الثاقبة. تراقب قسمات مجانين المدينة وهم يحتفون باللّيل على طريقتهم الخاصّة. فالبعض أنصفه القدر والبعض الأخر نصب له القدر كمائن في قارعة الطّريق أمّا الآمال فهي قناديل خمدت إثر ملامسة النّسيم لها..

راح يراقبها، فكره غائم، مُشوّش، والأيّام قاسية ومضنية، أثقلت ظهره ولا شيء يُمكن أن يُبقيه على قيد التّشبّث أعظم من ذلك،

فعلامات الانهيار قريبة من التجلّي، والقنوط؟ كان محاطاً بفجوات روح تلتها مُحاولات اصطناعيّة وادّعاءات كاذبة.
مُستهلّ كلّ فجر يوم جديد توقظه رائحة الواقعة، تمرّ إلى خياشيمه. معلنة المُنتهى معلنة زوال الحياة...
اِمتشقت النّظر بعد أن أوهمته بالبرود بيْدَ الضّعف الّذي يقتات على شظايا روح ورُفّات امرئ.
لا تنسى شيئا.
تُبقي ذاكرتها متينة..
لم تنس كذلك المُعالج النّفساني الّذي أسرّت له بما وقع لها خلال فترة من الزمن..
نظر إليها بازدراء وقال بينما القذارة تغصّ بها غصًّا:
"هل استمتعتِ، على الأقل، بما حدث لكِ؟"
ومن وقتها، تلحّ عليها فكرة النوم وعدم الاستيقاظ. لكن حتمًا ثمّة أمل في الألم. سينتهج نسق حياتها منهجًا سويًّا. تعرف جيًّدا ما تبذله من عناء في محاولة تغيير البيئة المُحيطة.
ألقت بلفافة الحشيش من على النّافذة فداعبها هواء عليل وأطفأها قبيل السّقوط، فأمِلت أن تكون نهايتها الانطفاء (الموت) قبيل السّقوط.

تدفّقت الدموع من عينيها. فدهست التسرّبات بظهر يمناها. كظمت صرخة تمنّت حينئذٍ أن تطلق العنان وتضجّ المكان علّ الرّوح تهنأ، حتى لو كان فقط غيض من فيض.

ربّما تغدقهم السّماء في راحة لمرّة واحدة.

آثرت الخرس ككلّ مرة وفرغ منها ذاك الأمل أو ربّما نسيها أو تناساها عمدا.

جعلها نسيًّا منسيًّا.

وقد انضوت الآن تحت لواء كتيبة "كبار مقوّضون" وجرّت زوجها في ثِقال الحلقة المضنية، والظّلماء

تناهى إليها أنفاس زوجها المُتدفّقة فأدركت أنّها مبعث وجع لمن هو عزيز عليها، لمن اعتلى حظوة شمّاء في قلبها...

في كل ليلة تفشل عيناها في النوم لكنّ المنوّم كان رحومًا بها، وهو يُريحها من عالم غير عادل، في عالم زاخر بالسّراب، يُريحها لساعات قبل أن يُعيدها ضوء الفجر إلى واقع مرّ، كانت ترقد على حافة السّرير تحفر في المرآة. العالم يتقلّص من حولها، وأمّا ربيع قلبها بات خريفًا، وسقطت أوراق الأمل وأصبحت صفراء وهشّة قوّضتها رياح عابرة لا مظهر لها لكنّ شعورها عاصف..

أوْلاها زوجها بظهره، فيما كانت تخاطب السّقف سرًا ويجيبها هو الأخير في صمت، أخذ المنوّم يسري في أوردة تكفل البقاء. ثمّة من لم يبكِ، على الرغم، من وُجود كل المُسبّبات والآلام، وهناك، بلا أسباب، من بكى، وكل شيء لا يُعجبه.

تململت وداعبت شعر زوجها.

طفقت تدندن مُتمايلة العبارات، مُغتالة الحُروف

بلغ منها الجُهد. غفت على دندنتها. مثل كل ليلة تمرّ بألم خفي يستنزف الروح وما إلى ذلك.. فالبعض أنصفه القدر وقد حقّق العدالة والبعض الآخر غدر به القدر وأحرقه في دائرته الصّعبة.

مكث على هلع إزاء ما حدث في ليلة زفافه. أحجم عن تناول خلطة عقاقيره..

من هذا الخُلو، في أواخر اللّيل، يرقد جسد "نديم" لصق عارضة السّرير، يُفكّر في العدم، وهذا لا يُضجره، في حين "نور" مُلاصقة له و"ريماس" ذات المكر والخديعة تحتضنها دون أن تلحظ وجودها، ووجودها الاستبداديّ يبتلعها، تُعانقها في نواح مُدقع وتردّد:

"لن تنعما أبدًا بالهناء"

في الوقت الراهن، تقضي القاعدة بأن لا يسعدا بقدر ما يُمكن. أليس هذا لطيفًا منها؟

وها هي ذي الحياة ستذبح نفسها..

يستيقظ في نهاية الليل بشكل مفاجئ.. لم يحصل على أيّ نوم.. يصدر أنينًا من الضجر.. هكذا دون أي سبب، يوماً بعد يوم يفقد ما تبقى من عقله. كان ثمّة شيئًا راسخًا في قناعته. شيء لا يعرفه. يمشي مُضطرب، ثائر، قليل الصبر، في طُول الغُرفة وعرضها.

وها هي ذي الحياة ستذبح نفسها....

محدودب الظهر يميل إلى مكتبه. بعد الزّواج ازداد نُحولًا. يمسك القلم. وبانتظام يضرب مرّات ومرّات دون أن يشعر بالملل ودون أن يشعر بأي شيء، لا يفكر في أي شيء يتعلق بهذا الأمر.

بخطوات مُتردّدة مشى في ذلك الممر ذي المرايا، كان مستغيثاً، تعباناً، يستطلع عن ملجأ، يطرح أسئلة عن الحياة، سار باحتراس، جعل نظره إلى المرآة الأولى، وتهجّم على ذلك الأعجب بالسّؤال فيما كانت عيناه محمرّتان

"لماذا أستحق هذه الحياة؟"

فأجاب بعد أن عقد حاجبيه بغيظ:

"لأنّك في مدينة حيث يُراقب السّاسة فيها سكانها.."

فتجاهله تجاهلاً كاملاً وانتقل صوب المرآة الثّانية وقال:

"أجب على سؤالي "

كان الثّاني هادئاً وصريحاً:

"لو كان لديّ الجواب لما انعتقت وغدوتُ في خيرُ حالاتي.."

أمّا ما كان من أمر الثّالث ففاهه مُخاط، فجعل يُمزّق خيوطه إلى أن كشط جوانبه. راح يتخبّط ويئنّ.. وتدّثرت المرآة بالدّماء

تسمّر قبالة المرآة الرّابعة وأعاد ذات السّؤال..

وفي حُمّى من الهذاء الشّديد، قال له:

"ستكون إجابتك في المرآة الخامسة "

....

"لأيّ شيء أستحقّ هاته الحياة؟"

فما أن فرغت كلماته حتّى انكسرت المرآة نصب ناظريه، وتاه الجواب.

وبعد الفراغ من الضّرورة يكرّ عائدًا إلى حُجرته ويُوجّه عينيه إلى زوجته. تبث غمغمته الصحو فيها.

"فيما قيامكُ؟"

"في الموت"

"هدّئ من روعك"

وها هي ذي الحياة ستذبح نفسها....

كوابيس، كوابيس، كوابيس والكثير منها يتداخل في يقظته، حتّى الكوابيس تأتي إليه، أم أنّه نتيجة ذهان قاتل. قنابل. طلقات ناريّة. أصوات تنتحب. ضجيج مستفزّ. غريق. يغرق في بركة من الدماء اللزجة برائحة شروخ الصّدمات والسّقطات والوقعات والتعثرات وذلك الشرخ ينزف لسنين، إلى أن تألّفت بركة كبيرة من الدّم، ليهوي فيها متى كبر

في شهقة ناريّة، اِستفاقت من تلقاء نفسها، تجد "نديم" يتأمّلها ويُغمم عبثًا:

"أشعر أنّ بيننا امرأة... شُت"

ارتعدت فرائصها. أظلمت. أحسّت بالضّبابيّة في رأسها. كان الشرّ يشقّ طريقه من وراء ذكريات الماضي.

"لا يوجد شيء من هذا القبيل.."

فوجئت بالطّريقة التي يتحدّث بها منذ الزّواج، أدركت أنّه كان غير واعٍ وأنّ هناك شيئًا مريبًا فيه يخيفه ويختبئ عنه.

أخطرها أنّه كان قد تيقّظ من غفوته مساء أمس ورأى رؤيا العيْن امرأة عجوزا مخيفة لدرجة الجنون، والمفزع أنّ هاته المرأة كانت تتهّجم عليه في أحلامه وتحوّلها إلى كوابيس، كانت العجوز تسير على خلفيّة "نور"، كانت كظلّها، تقتفي أثرها خُطوة بخُطوة، فألقى

بالكأس بعد أن ساورته الشّكوك واختلطت عليه المسائل غيْر أنّها لم تُحرّك ساكنًا ومكثت تخيط حجرته بغرابة والعجوز على عقبيها كظلّها، فانقبض عقله وتجمّدت عروقه وقتما استدار رأس العجوز وأعطته نظرة خائفة تُنذر بمكروه ووضعت سبّابتها على شفتيها وأمرته باحتضان الصمت، ثم غادرتا حجرته وانكمشتا في الشقّة دون أن يُسمع لهما أثر وبعد دقائق تناهى إليه صوت صفق الباب، كان ينزّ عرقًا.

في صلابته، وحدّته، الّتي لا لزوم لها، إلى هذا القدر، أحسّ بيد خفيّة تخنقه.

غمغم كما الخشبة. ولم يكترث بأدنى شيء: "كوابيس"

ثمّ يُلقي أسئلة بهيميّة تشي بعدم اكتراثه لها.

"بمَا تُفكّر؟"

"الموت، فيما أظنّ.. لا أستطيع به وصالًا.. أريده بشدّة"

كانت المرأة العجوز تغرقه في دُهان مريب.. وإلى غير ذلك من تذليل.. تأمره بـ"..".. وتُحيطه علماً أنّ هذا هو مصيره المحتوم أينما كان.. وتُعمّق من رغبته في ذلك، إذ حالما يُحيدُ عن احتكامها ويندثر سحرها، تعود لتحتويه في أحلك حلقاتها.

يفقد، غير مرّة، مفاهيم سهلة و بسيطة: «كيف يأكل. كيف يستحمّ. كيف يفتح الباب. كيف يبدأ مُحاورة» تفقد نور أعصابها صارخة أنّ هذا غير منطقي ولا يجوز..

"لستَ طفلًا أيّها الأربعيني. حسبُكَ عتهًا"

عقله يُناقش الأشياء المُحيطة على نحوٍ مُشوّه..

لفّت وجهها بين يديها مع إحساس بالخيبة فيما كانت الأجراس تقرع من الأمكنة المجهولة، تكتم غضبها الّذي كان لـ"نديم" سببًا فيه..

ليس كما عرفته..

يرميها بنظرات مشكوكة بشكلٍ غير واقعي..

تحسب أنّه سيفقد عقله..

يرتدي ثيابه بشكلٍ لعين. يلقي بكيس الحاوية في منتصف الطريق ويعود أدراجه. يُطلق العديد من الشكاوى. يشتم روائح كريهة. يمرح على أكثر الأشياء مأساةً. يحمل الملعقة والفرشاة بمنطق معاكس. كان جليًّا أنّه يقضي وقتًا عصيبًا في عقله. كان له سببًا وجيهًا وهو أنّ العالم مقلوب على رأسه وأنّ كل شيء على وشك الخراب. نسي عمّا كانت حياته تلف وتدور. ينفي أي معرفة بنفسه. في مُحاولة أن ينسى أحزانه. ويظل في هياج وسط الظّلام

المُتراقص. يُخفي شيئًا. يُنقِّلُ نظره مثل المجانين. ينطوي على خاصيّة قلّة صبره.. يدرأ وخزات قلب مُحطّم. يُميّز العاقل، بعد لحظة من المُلاحظة أنّ "نديم" يطلّ من نافذة غير الّتي يطلّ منها من هم عاديون بطبيعتهم. هناك من جرّه من مكانه ورماه في مكانٍ آخر مجهول، أين يُطلق فائض من الجنون. يتخّبط دومًا. تكون أعصابه في حالة غليان قصوى. يفكر بكآبة. خائب الأمل.. يستولي عليه الخوف. على الأثر غلب يقينه أنّ لا شيء يجد له حماسًا يستحقّ النّظر فيه. أصبح ينهار بسُرعة. يختنق بنسق مستمر. يلوذ بأماكن حسنة التهوية. يشعُّ منه الصمت والركود. من وقت لآخر تتدهور صحّته دون سبب..

يعيش كجثّة ضخمة..

جسده ثقيل. يجد صعوبة بالغة في الانتقال، حتى في تركيز المعلومات وحفظها. كما لو كان هناك ثقب أسود في منتصف ذهنه والثواني تجعل كل الأشياء تختفي.... متى صار لوحده، يشرع بسماع أصوات. متى صار برفقة الناس، يشعر أنّ عقله وجسده مُنفصلان... هل من الممكن الخروج من ما يشعر به؟ أهناك طريقة؟

(14)

هُناك شيء قد أنطفأ في قلبي للأبد،
شيء لن يعود كما كان مهما حاولت

فيكتور هوجو

كان الوقت ذاهلًا متى أدركت أنّ هناك من ينطرح لسقًا لها. لم تكن بمفردها، بل مُجوّفة من أيّ دافع لمعرفة معرفة هويّة الشّخص. ثمّة فُروق بين أن تكون وحيدًا وأن تكون فارغًا. إنّها على دراية بما تشعر به من انطفاء وبهتان ورماد..

أحسّت ببطن مُنسكبة بوقاحة كبطن حامل وشيء مطّاطي يُداعب فخذيها بسلاسة. سائح مثل لبان مجرور. انتفضت من ماضٍ لا تزال فيه، يُلاحقها أينما ولّت. آثام سنواتها الأربع والعشرين تنمو. الفجائع المُتتالية تحفر فيها بئرا خفيا من العواصف الرّاكدة.

كانت بليدة المشاعر. لم تصرخ ولم تُقدم على أيّ فعل سوى المضي إلى غرفة الجلوس حيث كل من والدتها وشقيقها ولاذت بأحد الأرائك. أخذت وضعيّة جنين سيُجهض. ترسل نظرات مترعة بعميق فوضوي تعطّل مركز أحاسيسه... شاحبة. مُنكمشة الصّدر، دثّرت وجهها بيديها المتراعشتين. تستنشق هواء فاسدًا. وهربت بلا

قتل. أرادت طعنه ومع ذلك كانت تفيض بلامُبالاة. لن تفعل ما تشاء. لم يعد هناك ما تشاؤه النفس. تفشّى مرض يسمّى التعود.. التنازل.. التضحية.. قسى قلبها وتخدّر إدراكها ولم تعد تتفهّم مأساتها. لا شيء يستحقّ الاهتمام. لم يعاودها الغم وإنّما حنظل الصّمت.

احتلّ الرّأس أصوات مذبوحة مُتأتّية من مُستقرّ المرأة العجوز. كأفواه مُتفجّرة مُنبعثة من روح سقيمة تحوي شُرور العالم. العقارب والثعابين تتدانى ببطء. أشواكها تهرب. تنفث سمّها. كانت شاهدة. أيكون لها دخل؟ البيت لم يكن قط أشدّ تقزّزًا..

سارع الأب للبحث عن أثر ابنته خوفًا من أنها قد تتسبّب في فضيحة أخرى. وعلى وقع التشاؤم فتّش بين غُرف الشقّة ولم يجد لها كيانًا. كان لاهثًا، مُتزعزعًا. ذهبت أقدامه إلى الخارج. نزل السّلالم وبدأ في الاتصال بهاتفها. لم يهدأ له بال إلّا متى ولّى عائدًا إلى مقرّ سكناه. وهُناك تيقّظت الأمّ من منامها لتحيطه علمًا أنّها أتت بحملٍ ثقيل وشاركتهم المنام..

هذا البيت غابة. لا تعلم متى ينقضّ عليك ثعبان غادر..

يقرع إصبع يرتجف هاتفيّة غامضة إلى شقيقها مُخطرة إيّاه بأسى ما حصل. هذا الأب يُقاسي من تشوّه واختلال نفسي. أفاقت من

رقادها فوجدت قباحة إلى جانبها. اللعين تدانى وإستمنى في غفلة منها. أصابها صداع وعدم اهتمام وسائر الإحساسات المُضطربة نتاج صدمة لم تعد تُحدث دهشة في نفوس تمزّقت..

بقيت على تأنيبها لذات لم تضع حدًّا قاطعًا لمجريات المقادير. ظلّت على لوم لم ينتهِ. أدانت نفسها بالتّناسي والتعايش تحت ظل ظروف مُنهاة صُلوحيّة الحياة. ما كان ينبغي أن تُنيل فُرصة لمن لا يكون خليقًا. ولاسيّما أشياء كهاته. لا يغفر المرء لمن ينتهك حُرمته..

كانت يده تعبث بشعرها..

أنين خافت يتصاعد..

ولعنة الكون..

وتمضي بها الأيّام بالوسوسة..

سيتسمرّ هذا الموت إلى أن تموت..

كان الألم رفيعًا إلى مقياس يأمل المرء، من قذارته، أن يُغطّى الكون بقنبلة ماحقة..

ابتعد عنها ملتصقًا بالهواء الّذي يهبّ

شقيقها لا يندّ عنه جوابًا. كان أخرسًا. ابتلع صرخة سحيقة ظنّ أنّها انتهت. عيناه زاغت. سئم. تعب. كلّ. غاب كغياب انتقام مُخدّر أفاق من عدم اهتمامه. الكل ضائع على إيقاع المعرفة ومع بطء مرور الأيّام..

أشعّة شيطانيّة تنبثق من مرآة يختبئ خلفها كائنًا يحترق بالكراهية. يلهث حقدًا. مثل قنديل جاء من باب الجحيم. يفلت بأسلاكه المعدنيّة والمُكهربة. كالشفرات يُدميكَ. يلتهم دقائق جميلة ليُحيلها ذكريات بشعة لا تخطر على بالك، تتعقّب راحة بالك..

كان الظّلام دامسًا كأقدار ضائعة وحيدة وبلا وجهة ترتكن إليها

قال وقد كان مذعورًا:

"انتهى الأمر الآن"

"أعصابي تؤلمني. سئمتُ من التغاضي"

"عامليه وكأنّ شيئًا لم يحدث "

"هل أنتَ مجنون"

"أنا لستُ مجنوًنا ولكن أنا رجل واقعي"

اندلق من المرآة سمّ يفتك بأعصاب هرمة لم تعد تتحمّل. استحالت الأجساد جيفة. انطلقت فوقها ديدان راكضة. وفي بيت النّفس لا صراخ غير صمت الصمت..

"لا يمكنني تحمّل هذا بعد الآن. أنا سئمت منه. لقد جعلني شخص غريب الأطوار. شخص مُثير للشفقة. تخيل أنك تستيقظ مرعوب في منتصف فترة الظهيرة وتجد ما قلته لكَ. تخيّل ذلك. أنا لا أعرف أبدًا كيف لذت بالهرب من شبحه"

"ليمحى ما خبرته "

"هل تعلم لماذا يفعل هذا؟ لأّنه يعرف على وجه اليقين أن أشياء كهاته ستبقى دائمًا في ظلام الصمت

"انتهى الأمر الآن"

"سوف أُقدم على فضحه"

أغلق المخارج كلّها:

"ستفضحين نفسكِ. وستسقطين كرامة زوجكِ. الرجل لا يُعاب بغرائزه"

القسوة واللعنة..

أجفلت..

أحسّت بحاجة إلى النّحيب..

يُحيط بها مُناخ من المكر والترصّد..

وغاص في صدرها غدرًا من الدعابة ألّا يتحسّبه المرء في زمانٍ يعجّ بخيانة مُطلقة. انغرس كدبّوس ضخم يُصيب بمرض عدم

الوثوق بأحد. الغريب، إذا كان أحد الأطراف هديّة ولاء، فسيتمّ تغطية الطّرف الآخر بعطيّة الخيانة...

لا أحد لأحد..

إنّها ليست على دراية بسبب مُعالجة شقيقها مع موقف كهذا بهذه الطريقة. بشكلٍ لا ينطبق على إنسان سوي. لم يتسربل بالإنحياديّة وإنّما بالانتهازية. لا عتب على بني البشر. فهم يتقولبون أنّى رغبوا. وبما أنّ الأمور لا تأتي من خلالهم فإنّهم لا يبالون ويرونها هزليّة تستحق النّكات ولا عجب في ذلك المُتاجرة بها في قاع العتمة. لم يهمّه أمرها. بل هناك شيئ جعل فيه هذا التحوّل. التحوّل الّذي يُؤثّر فقط على الأشخاص الّذين يُشترون بثمنٍ بخس. ليس للبشر قيمة في مدينة حيث تتقاطع مصالح الأشدّاء وتُباع فيها القضايا في مزاد الافتراس.

أصبح بها الأمر عسيرًا ، في ذات عشيّة، وفات الحدّ، امتدّت سحابة سوداء، وانسحبت الشّمس بأكملها معلنة انحسارها وعجزها، غدا الطّقس مختلّ التوازن، في غاية الاضطراب، تدنت درجات الحرارة بعد أيّام قاسية فتبادر إلى ذهنها مقولة سحيقة راجعة إلى والدها بأنّ "عقب الجمر بردا" داحضًا تصريحه بأنّ مياه البحر تتبخّر تحت تأثير

الحرارة ممّا يفضي ذلك، تاليًا، إلى تكاثف السّحب و اِنهيار السماء بالمطر.
جهارًا نهارًا، أبرق العالم بغتة فارتجّت أوصالها في حين أنّ المرأة العجوز مستلذّة بقُعودها. وسوست لها "ريماس" وهي مُضطجعة فوق السّرير، ذراعاها ممدودتان من التعب والخمول
صعّدت بعضها وبرزت عيناها منتفختين. كانت مرضًا يفتكّ بالُعقول والقُلوب والحيوات. طفقت "نور" تمشي بشكلٍ غير متساوٍ في الحُجرة غدوة ورواحا في انفعال، أحسّت بأنّ أعداءها يقرعون يدًا بيد ويتهامسون فيما بينهم، يرقبونها بنظرات شاخصة.. راحت بنثر بصرها بين الزّوايا والفراغات وروحها تنهار شيئًا فشيئًا، **ما الّذي يطرأ لي يا ترى؟ أي تيه هذا الّذي حلّ؟ من أين أتى كل هذا الخُلو؟ أيّ أمر غريب هذا؟** ترامت هاته التّساؤلات إلى ذهنها، أحجمت عن التجوال وران الصّمت لحين من الزّمن..
كانت والدتها، في غضون ذلك، تتحدّث في الهاتف مع شقيقتها، طرقعت "ريماس" بإصبعيها:

تضخّم صوت والدتها:

"حقّا، الّذين من جيلها مُستقرّون ويتمتّعون بحياة كريمة.. هجرت زوجها.. سحقت كرامتي.. ألبستني رداء الذلّ الصّاخب في أرذل العمر، لم أعد قديرة على ملاقاة أحد.."

يُرفرف عقلها في الظّلام وتنمو حبيبات الضغائن على غفلة منها، زفرت في غيظ والجمر يُداعب ملمس أديم جسدها في غنج، اعتراها دُوار رهيب غيْر أنّها مكثت تمشط المتر ونصف على غير استواء وبلا وهن..

غرق بها الحال في دوّامة مثيلة بدوّامات الأيّام الخوالي، لذلك، ما من شيء ينعشها كما كان من قبل، ربما يكون الّذي بداخلها قد انطفأ، أو ربّما تسير الأمور السيّئة جنبًا إلى جنب مع من هم من أمثالها، قليلي الطّالع، مُنعدمي المُشتهيات، مُشتّتي المصير، اعتراها الوسواس ثمّ الهلوسة، التخيّلات البغيضة، ذاك الأزيز الشّامت يخترق طبلة أذنها، يُحيطها علماً بأنّها لا تصلح لأي شيء وغدت عبءً، فإنّ عدم وجودها أضحى مُناسبًا لهذا الوجود العبثيّ، شيء ما يخنقها، إنّها تتخبّط، دواخلها مُترهّلة، إنّها شاحبة الخدّين، مُتّقدة العينين..

قالت المرأة العجوز:

"ليس لكِ الهرب من هاته السّحابة الظّلماء الّتي تلفّكِ، لذا أتي بأي عمل من شأنه أن يُريحكِ بشأن ما حدث لكِ"

لم تتركها "ريماس" في حالها. لبثت مُتشبّثة بأطراف أذنيها. تثقب طبلتيهما. وهي شاحبة الخدّين.

ورجمتها بشحنتها المُظلمة قائلة:

"صُبّي جام غضبكِ على من خرّبَ لكِ الحياة"

وغمغمت العجوز تقول:

"فاتح الأبواب وباني المعراج لتفتحي أيتها البوابة"

تركتها "ريماس" ذات القبائح في أقبح حال وانقشعت..

تُعجّل في خطواتها فيما عيناها مُنقلبتان، لا يلوح منهما سوى البياض... دلفت والدتها.. تسمرت مكانها.. داهمتها من قفاها.. تخطو على أطراف أصابعها.. اِستبدّ بها الجزع.. أدركت أن شيئًا مريبًا كان يحدث في الغرفة.. داخلها ارتياب بليغ...

وضعت يمناها على كتفها تقول:

"ما الأمر؟."

مُولّية ظهرها، تضخّم صوتها:

"أنتِ على شاكلتهم، لا تختلفين عنهم، يمكنني رؤية هذا في عينيكِ، لا تبغين الإصغاء إلى مكنوني، لأنّكِ لا تُلقين بالًا لألفاظي وترينه يسوءكَ بيْدَ أنّي أصغي إليكِ كلّما احتجتِ إلى التحدث. لهذا ركنت إلى أحضان الزّواج. كلّ هذا بسببكِ. اعتقدت أنّني سأحيا وإلى الأبد.. سأنتقي الزّوج الأنسب لطفليّ وستكرّ بنا الأيّام ونحن في رغد العيش ونجوب جلّ أقاصي أقطار العالم.... والآن؟.. أقبع مُمدّدة في الرُكن الأكثر عتمة، مُختنقة بالسّواد، أحملق في السّقف.. مُجوّفة من الأحلام.. أسبح في مُستنقع القُنوط.. لا أنتظر شيئا.. حسبِي أن أعيد اللاشيء الّذي أتممت به أمسي.."

ثمْ حانت منها التفاتة بصُورة مباشرة فارتعدت "جميلة" من قسمات وجه "نور" المُفزعة الّتي تحمل أحقادًا، وضعت يدها اليُمنى على فمها مبتورة الصّوت. دحرتها "نور" دحرًا حارّاً فعانقت "جميلة" الجدار...

كان عقلها مرتبكًا.

ويُقرع الباب عندما كانت "جميلة" تُغمى في أنفاسها الأخيرة، فأقبل اللّيل بظلامه بشكلٍ مثير للرّيبة، وتسابقت عقارب السّاعة..

وثبت "جميلة" قائمة على قدميها مترنّحة وجعًا، غير مُبالية بدمائها أو بكدماتها أو بشروخها، وولّت "نور" راجعة تخيط الحجرة وتُغمغم عبثًا

وها هي "جميلة " تدلف إلى المطبخ لتعدّ العشاء وتدلك الأطباق القذرة في الحوض وكأنّ شيئاً لم يطرأ..

فأردفت المرأة العجوز في غضون ذلك وهي تتابعهما من خلال حجرتها بين عالمين:

"لقد ارتكبت خطأ الاختيار، يا لحماقتي، ما كان مآلها القتل"

ثمّ جذبت ثوبها واجتازت البوّابة.

(15)

عندما يُصيبنا التعب
تعود الأفكار الّتي هزمناها مُنذ وقت طويل
للهجوم علينا مُجدّدًا

نيتشه

طفق صعاليك الانتخابات الرئاسيّة يجوبون المناطق النائية والّتي يكُون فيها المستوى المعيشي متدنيّا، يعيش النّاس هُناك على صُروح ووعود السّلطة الكاذوبة والمرشّح يتاجر بأحلام الفقراء ليصبو إلي مبتغاه، فالدّهاء مُسعفهم وصاحب الدّهاء الأوفر يعتلي المنصّة، وغالبًا ما يكُون المرشّح يُطالع الفقراء، تتعالى نفسه عليهم، يتقزّز ويتضاحك عنوة ولا يلتمس العذر من أحلامهم السّائبة إثر تولّي مقاليد الرّئاسة، فنشاهده يمدّ لهم بعضًا من الدنانير، مصطنعًا ابتسامة قبالة كاميرا التّصوير ثم يهرش رأسه ككلب أجرب بعد أن ألمّه الوسواس بأنّ القمل أو البقّ قد انتقل إليه، عيناه تقولان: "صوّتوا لنا ولن نُلقي لكم بالًا، فيما بعد"، والمضني في الأمر أنّ الحال يكون مكرورًا إثر انتخابات رئاسيّة أو تشريعيّة، كان كلّ شيء في هاته المدينة محضِ أكذوبة روّجت لها الانتخابات، أمّا مواطنو

البلد فلم يكونوا سوى دُمى يستخدمها الناخبون لبلوغ غاياتهم، وما أمرّ بلاهة المقادير وسذاجة الذّاكرة وانكسار الكرامة.

غُداة غد مساء، كما الخشبة، كان ينظر التلفاز.. يُقبّل العتمة بشراهة.. قام بإيماءة وامضة برأسه.

كان المُرشّح هرمًا، على مشارف التّسعين، مُتكالب على متاع دار الفناء، يبعث على الاعتقاد لأولئك الّذين "يرون" أنّ موته وشيك وأنّ أقصى طُموحاته أن يكُون في لحظة إفاقة في كلّ الصّباح الباكر وفراشه مُجفّف من البلل. ولكن هل من المُمكن أن يكون لدى هذا الهُلام طُموحات وأمل في العيْش، في حين أنّ أمل الشّباب في الحياة، والّذي يسعى إلى الحصول على مستقبل أغزر جمالاً، يتراوح بين صفر وسالب واحد؟

كان ثمّة جمعٌ غفيرٌ معصوب الأعين يهتف لهذا الكائن الرّخو والقطعة الجيلاتينيّة، في حين كان بعضهم يرفع سلّته والدّموع تنثال مدرارا من أعينهم.

قال "نديم":

"هذا المبعوث الخاصّ لذرف دموع التّماسيح"

استزاد:

"وهـو ضـمن هـذا البرنـامج الانتخـابي القـذر.... إنّهـم يُراقبوننـا..
يبيعوننا"
وقال في حسرة:
"سيرتاد أفخم المقاهي ويقضي نهاية الأسبوع في أرقى الفنادق المُتاحة"
وألقى المُرشّح خطابًا، غير قادر على صياغة مصطلحات متماسكة، مُعلنًا أنّ ثمّة امرأة لـم تشتري حُبوب الهلوسة لمُدّة ثلاثة أشهر، وختم لفظه إلى قول إنّ هذا الأمر لا يجوز ولا إنساني إطلاقًا ثمّ خلع نظّارته وأخذ في فرك عينيه إلى أن احمرّتا. وجاءت كلماته متناثرة ، وتساءل عن المسؤول عن هذا الوضع المتردّي وأنّ هناك من أظهر له كيسه الخاص وكان به لفافة حشيش واحدة.
وأنهى خطابه المُؤثّر مُستخلصًا:
"هذا واقعٌ مرٌ. كُلّنا مسؤولون عمّا حدث وما آلت إليه الأمور..
معاذ الله.. معاذ الله"
كانت المرأة البائسة، الّتي يتحدّث عنها الرّئيس، مُصابة بالدوار، تختلج مخافة منه، كيلا يجعلها ضفدعًا يقتات الحشرات المقزّزة، أو فأرة جبانة محشوّة بالقاذورات تعيش في المستنقعات، وتلوذ بالفرار أيّان ما صادفت أفعى مخيفة، حسبُها أن تكون أَمَة محميّة،

لا تطعن في كلام سيّدها، تعمل، تستهلك السُموم الّتي يُروّج لها، وتنام..

أمرته العجوز "ريماس" قائلة:

"من أنتَ في هاته المدينة؟"

فأجابها سراعًا:

أنا نكرة.. كما تُخبريني دائمًا ""

استزادت العجوز:

"أيّ شيء عنك؟ بالأمس في هاته المدينة؟"

أجاب يائساً مقهوراً:

... "نكر "

فتحسّن مزاج العجوز وقتئذٍ وقالت: "و يوم غد؟ أيّ شيء ستكون في هاته المدينة؟ "

فأجابها مكرهًا:

"نكرة...نكرة"

أنهت العجوز كلامها:

"ستظلّ نكرة"

يهتزّ كأخطبوط أُلقت عليه شراك الصيد..

لم يكن من شيء وفير سوى الاستلقاء على الأريكة أو السّرير مع الهاتف وشاحن الكمبيوتر، لا يطمع في شيء، لا يقتدر قيامًا، أحاط به الظلام العنيف و لم يلق له مهربًا، أضحى مُثقلًا بالألم والتَأوُّه لم يعد شافيًّا والزّمجرة ما بذي طائل..

لا شيء يُلقي له بالًا، لا شيء يروقه أو يعنيه. لديه انقطاع مُتّصل بكل ما يحدث خارج جدران بيته.. تتملكّه حالات من الهيجان، يُعافر في الأرض مُمزّقًا، مغروسًا، صريعًا.. يفقد كامل تيقّظه.. ويقبع شُهورًا بتمامها يغزوه شعور بالنّأي بنفسه عن نفسه.. عن العالم وعن كل شيء.

شعور مرهق وسمج أن يعيش في عالم من العري. أن يُدرك النّاس كيف يفكّر. أن يعرفوا تخبّطاته الداخليّة. صُراخه المُتصّل. والمُبكي في الأمر أنّ لا أحد يهتمّ. هذا من الصعب أن يُشرح. فهو يترك أشياؤه لمار على الطريق. لمن يُجالسه في رحلة مسافة أبعد. بالنسبة لأولئك المُقرّبين منه، هذا عويص. التفكير في الأمر أليم للأعصاب

كان ثمّة صوت خافت خفيّ مخيف يوسوس له وللجميع، كما ألفت المرأة العجوز أن تفعل معه، كما لو كان عقله تحت مجهر كل من هبّ ودبّ، وثمّة صوت يردّد:

"جميعنا دُمى في قبضة واحد منهم، لا توجد وسيلة لإنكار ذلك، يُحرّكنا دون أن ندركه، تارة يُشوّهنا، ويجعلنا ننسى أنّنا أسيادنا، ونسحق أنفسنا، طورًا يجعلنا نخال أنّنا أسيادنا، أنّنا نسوس أنفسنا، ولكنّنا لسنا سوى ما ملكت يُمناه"

"ليس لديّ شيء.. ليس لديّ شيء.. ليس لديّ شيء" مهموم النّبرات، يُحدّث نفسه، مع من لا يدري.

ومن راحة يد السّياسة انتقل إلى راحة يد الدّين..

كان يسأل عن الدين.

يطرح مفاهيم متداخلة.

يُؤدّي فرائضه.

ثم يهجر كل السّابق ذكره ويتكوّر مثل دودة منزوعة الروح.

ويُعانق الصمت المُريب.

واقعه يُناطح الوحل.

خارج مجال الوصال تقول "نور:

"يا نديم. ماذا عنكَ؟"

ناشرًا سمعه للقعقاعات لا يندّ عنه جواب..
"أي شيء تريده على وجه الخاص؟"
"مزيدًا من التعاسة"
"سوف آتيكَ بها"
"أشعر بالسُوء... يبدو أنّ الموت يموت من الجوع للقبض عليّ"
ثمّ تجزع.. وتنكمش في مكانها.. فمن الثّابت أنّ كلّ ما في عقله يهذي بحشرجة ويتقيّأ رُكام ذُهانه دون أن يبلغ صداه مسامع من دفعوه نحو الجنون..
والأيّام تكرّ بينهما..
كانت مرهقة في كشف أوراقه لكنّها تفشل في ذلك. وفي الآن عينه، كان يُحاول أن يخبرها بما يجري في ممرّاته، لكن الظّلام كان كثيرًا ومُتفجّرًا..
تجيء أيّام لا ينفك فيها عن الكلام. من يفهم دردشة غامضة؟ غير مُترابطة؟
كانت عيناه كبيرة. أفكاره عشوائيّة.
"زوجتي لا تحبّني"، يقول بدهشة لا يجد لها منابت.
ثمّ يرمي "نور" بجريرة الخيانةِ. مع من؟ مع "سليم".
يتهدّدها بالقتل.

ليست وفيّة بالصُّورة الّتي كان يتصّورها..
في ارتجاج الصورة.
يقبض بخناقها.
و يُعنّفها في الليالي العاصفات.
كلامه فيه طبقات من التجنّي.
في ما مضى، كان يحصر ثقته في "نور".
من فراشه، يتوجّه إلى شقّة "سليم" ويُشاجره.
يضربه بشدّة. يترك له دمامل.
"أُبْعُد عن زوجتي" وتهتف حُنجرته.
سوف يُطارده بطعنات من سكّين.
يُفكّر بالانتحار. يُريد أن يقتل نفسه بضراوة.
يشعر بالذنب والإثم والخطيئة.
يظلّ على لومه للذات.
يهجم عليه العياء الشّديد.
أشياء تحدث في أماكن أخرى.
عن أشياء ثابتة.

في وقت لاحق، سمّر نفسه قبالة مرآته وحدّق في أجزاء وجهه وشعر بها بأصابعه، عيناه فارغتان ومتعبتان، تقهقر خطوة للوراء جرِضَ بِريقهِ آنذاك. غيّر شيئا ما من قسماته. غضبت عيناه. هزّ رأسه وبدأ يقول بطريقة مخيفة:

"إليك عنّي أيّها الثّالث، على دراية أنّك غيور لأنّني قادر على الكلام وأنت مُخاط الفاه.."

ثمّ أطرق بعض الشّيء. ضرب رأسه بضراوة. أمسك ياقته وغمغم:

"أيّها الثّالث"

أقام عليهم الصّراخ: "كفاكم"

لقد ثبت أخيرًا أنّ الانهيار إذا أبرق وإذا اكتمل، لا ينتهي إلّا بين حُدود عدميّة تشبه ابتسامة ذعر نمت في وقتٍ عصيب حيث كان يجب أن تكون ثمّة دموعًا فيّاضة، فنجم عن ذلك تسرّب سواد اشتدّ عوده ونال مساحة شاسعة من سرّية لحقه كتمان وتلاه كبت وراء سكوت في خضم صدمة..

قالت، مُخاطبة والدتها بما يعتمل في بواطنها، وقد أثخنتها جِراح تنهش قلبها المُعذّب:

"أشعر بتعاسة شديدة"

صرخت "جميلة" في وجهها:

"لقد حذّرتكِ من مغبّة الحُب والارتباط"
أضافت مُتحوّطة:
"أحيانًا يتهوّر النّاس بإحساساتهم ولاحقًا يكتشفون حقيقتها"
قاطعت "نور" الوجوم باقتضاب:
"أيّ شهر هذا؟"
"السّادس من.."
"وبعد؟"
"ما يُصادف هذا اليوم؟"
"يصادف تلك الحادثة "
كانت المرأة العجوز الّتي لا ترحم، مُنتصبة خلفها، تفترّ عن أسنانها ضاحكة بشكلٍ خبيث:
"ألم تملّي الإذعان؟، أشرعِ ما أغلقوه من مباهج حياتيّة واكتشفي مباهجكِ.. اِنحتي مرقاة حياتكِ واستقلّيه بمفردكِ...."
الحياة لم تنصت إلى "نور" أثناء نكبتها، فمتى صار الاكتراث في لحظة البغية تتكوّر غريزة الإنسان إذّ ذاك في التّشافي ويتعلّق بمالك الشّفاء إلى نقطة العبادة ويقدّسه إلى الحد الأقصى من الحالات، هذا ما حلّ معها بعد أن اجتاحت عليها نوائب الأيّام دفعة واحدة وباتت ثناياها متعرّجة ومكتظّة بالألغام والتحمت ورقة

الخريـف الصّـفراء بزهـرة شـبابها وحجبـت عنهـا الضّـياء فـذبلت وحاذت مشارف المُنتهى والشّجن أسهب بقاؤه في عقلها.

(16)

في الرُكن المُظلم من الحياة، يمكث فيه، يُخالجه شعور بأنّه لا شيء. وفي الطّرف الآخر خيبة أمل تنشد أغنية وترقص. وفي كثير من الفترات يُعاني من عدم الشُعور.. ليس في العالم بأسره مكان شاغر له.

كان يعلم أنّه لم يكن الوحيد، في هذا العالم، الّذي يُعاني من الاضطرابات وهذا ما يُعزيّ به نفسه. فالمُصيبة الجمعاء مُريحة في مرحلة ما..

تواجده مع النّاس ضبابيّ..

يُثقله مُرورهم به..

الّذي بات يُمثّل مصدرًا دائمًا للبُؤس..

مُنجزاته تقتصر في النّأي عن ما يُضايقه..

يُراوده الشُعور بأنّ يومه التّالي هو كابوس لا يطاق..

وهو في هذا العالم مُرشّح فيه لكل ألوان الأذى..

لهذا..

فهو دائم التّخمين بالتخلّص من نفسه..

بلا أسباب، تنثال دُموعه مدرارة..

لا يخلو يومه من الفشل..

وهذا ما جعله مُدعاة للضرر
عاش مُرغمًا على القيام بأشياء لا تروقه، فوق مكنته ولا تُناسبه..
أشياء ليست له ولن تكون منه..
مُثابرته في مواجهة تيار تقلّباته تُرهقه..
تردّت أوضاعه من رديء إلى أردأ..
مجَّتِ الشّمس ريقَها يوم الغد، اقترحت عليه زوجته بأن يُغيّر من نسق أرديّته الكلاسيكيّة.
استلّت من الخزانة بدلة شبابيّة أهدتها له في عيد ميلاده ولم يكتسِ بها فيما سبق وفيما تلا.
ارتدى بنطالون الجينز بشقّ الأنفس. بلا أدنى اكتراث كأجرب أدركته حكّة رهيبة أشاح بوجهه وقال في نفسه مرارة كالحة الظُنون: "أطلقيني أتسربل بما أشاء.. ساءني ملمسه" طال ما هو فيه من تحرّكات..
كانت أفعاله تُسفر عن كل ما يستميت في طمره. يتراكم الحُزن طبقة فوق طبقة. متى بدأ كل هذا؟ بدأ الأمر معه متى صار يُكافح من أجل أن يحوز بعض من النّوم. ولا شيء يستقرّ في ذهنه. ثمّ بات عقله في ضجيج مُستدام. وجسده في اضطراب شديد. يغزوه غثيان على الدّوام، تُرافقه آلام بالرأس، ومن ثمّ لم يعد يعرف ما به، وما

الّذي يحصل له. فما الّذي أدّى به إلى ما هو عليه الآن؟ وما عاد فعلًا يشعر بأنّه كان أو ما يكون أو ما سيكون. وكم من الوقت ظلّ على تفكّكه؟ إلى أن أضحى إلى ما أضحى إليه.. تزعزع لا يعي منشئه...

على الدّوام، ظلّ يقول:

"ليس لي في النّوم.. ما أقدر على التّفكير.. جسدي أضحى واهنًا للغاية"

ما هذا الهُراء؟

وأيّ شقاء يكون فيه؟

في السّكون الجامد، رنّ هاتفها. قرأت الرّسالة

"يستقرّ سرّه في المكان كذا... نأسف لإبلاغك أن زوجك... تحيّاتنا"

كان في زمن الخيبات العجولة والجاهزة والملفوفة في أطباق فاخرة، ما أن تراها العين تقفز غبطةً وما أن تفتحه الأصابع، حتّى تموت العين من هول ما أبصرت.

"أنا خيبة سقف توقّعاتك وضريح ظُنونك"

ورسب بصيص من الأمل في قاع الدّنيا يُحيطه علماً بأنّ أحلامه ستكون وليدة الغد القريب، ولم يدرك بعد بأنّ الآمال شامخة لا تهوي من عليائها وأحلامه تُلفظ من قُرص التّحقيق....

خارج الجُدران، المدينة أشدّ رُعبًا، في زهاءِ السّاعة التّاسعة ونصف صباحًا، خفية عن الأعين، يرتجل "نديم" بشكلٍ غير متساوٍ، مُتبلّد الذهن، سيره خامل، وشرود مُنقبض يلفّه. كما لو أنّه يتوكّأ على عصا.

كان يبدو حجريًا هائمًا. وقسمات وجهه مرهقة للغاية. يبحث عن أكثر الأسباب بُؤسًا. كما لو أنّه يُبصر العالم لمرّته الأولى.

تنشّق صقيع الهواء..

يُنشد شعرًا:

"أنا كالبُكاء، أمتزج بماء المطر، دون أن يلحظني أحد.. أنا كآبة سوداء، أطفو فوق غيم الضباب، دون أن أدرك السّماء، أشعر بالضيق مثل عالم من خراب"

في جو فوضويّ، همجيّ، وسوداوي، استمرّ في المشي، كان هناك مبنى به أشغال، كان غريقا في تدفّق الشّرود، تبدّى له على مبعدة عجوز ناهز الستّين يهتف قائلًا: "أين الدولة الّتي لا أراها" ويطعن رأسه بخنجر فضيّ ويرمي المارّة بقطع أفكاره. والآخر يسأل عن

الدّولة الّتي أحسنت صنيعًا بأفضال جُهود الحمقى. ولم يكن هُنالك بالطّبع سبب للردّ.

يسير العلنَ. المدينة مسرح والبشر دُماها.

في وقت لاحق، لاقى أحد معارفه القُدامى، عند طرف الرّصيف، وفي فضول حارّ بادره بالسّؤال عن حاله

فأجابها باقتضاب:

"أمري حسنٌ"

كانت نظرات الآخر كسيرة. يقول:

""أنا على دراية.. الجميع يعرف""

ثمّ وضع في جُيوب "نديم" حُبوب مُهلوسة وابتسم

حاوره عسرًا وتنصّل منه بشقّ الأنفس.. اللعين قرأ أفكاره وعرف بما يجول بداره..

ثمّة من يُطلق همهمات مُمزّقة.

الأمن يلطم بعض المُتمرّدين بهراوات مُدبّبة. حقنهم بمواد مُخدّرة تعبث بالملكات العقليّة.

ثمّ، في الضجيج المُتصلّب، وقع بصره على أحد المارّة الأغبياء، الّذي تُحاك المؤامرات في غفلة منه، يرمقه بنظرة قاسية..

وزأرت المدينة زأرة مُريعة مُستخلصة:

"أنا أكون"

الحياة قد وشت بأحلامهم إلى المدينة. خدعتهم وتلاعبت بهم. بجدارة. المدينة حمقاء، تنتقم لنفسها من أبناء كأمّ لم يرغبوا بها يومًا..

تحت طائلة خطرها المرتقب، كانت المرأة العجوز تراقبه من خلال مرآتها. ألقت شحنة داكنة على حديد الأشغال، يرتطم بـ"«نديم»" أحد المارّة ، المُستهدفة أفكاره، فيتراجع في خُطوات مبلبلة، يهوي الحديد ويرتكز على ذلك الشّخص أينما ارتحل «نديم»، ينغمد فيه مسحوقًا وغاص "«نديم»" في دماء قاتمة وساخنة.

فتخبط "ريماس" الجدار بقبضتها في غلّ وقد اِحتدّت أوداجها..

بقلب مُتحجّر لا علائم للشفقة فيه قالت وفمها ينتهج منهج الانحناء والترهّل:

"اللّعنة على المارة.. أردت قتله على طريقة الأفلام كما هو مُقرّر.."

في وقت لاحق، تسلّل من بين السّيّارات وانبرى يعدو. ما يتفاداه كان وراءه... أذرع المدينة الّتي اهتزّت في أعقابه... قام في يقينه وقتئذٍ بأنّه يجري في أحشاء المذبحة، على طريق عام، أغمض العينين واستمرّ على ركضه.. يعدو.. يعدو، لا يتوقّف أبدًا، يتعثّر. يقع على وجهه.. ارتطم بجسد ما بذي نفعٍ، يحمل فتحة مُجوّفة

لمُستقبل لم يعد له أثر. لامس فاهه فغرة المستقبل وتقيّأ تقريبًا، فبصق تمامًا كما بصقته الحياة في هوّة العبثيّة. كان الجسد كحال حياته في فراغ مُهلك.

ركض إلى أبعد مكان، إلى مقرّ إقامته، أحجم عن الرّكض كلّما اِعتراه حسّ بليغ بالإرهاق والوهن والفتور

ووصل إلى مكان سُكناه.

الحياة ستذبح نفسها..

أخذت الشمس تتوارى على خلفيّة الأفق. الشّارع يقطر ضجيجًا مزعجًا. ورائحة الغد المحترق تدسّ رؤوس مواطني البلد في وسادة اليقظة فيجافي النّوم جفونهم ويهجرها إلى أن ينبلج الفجر بعد ليل طويل.

بأنامل مُرتجّة. أوقب المفتاح في قفل الباب. دلف إلى شقّته. يجرّ أرجله بتثاقل ورأسه مثقل بالوساوس. ودّ لو كان عقله ملفوفًا في صفائح تمنع عن أعصابه الضرر والأذى.

دون أيّة لفظة توارت "نور" بأسرع من غمض العين.

كانت تبحث عن خيط رفيع جدًّا لتُلقي عليه فشل الزواج..

فـي وسـط قاعـة متوسّـطة الحجـم، يـربض صـديقه الثّـاني، بهـدوء وثبات، ينفث لفافة حشيش دسمة وبانت عليه الوقار، دلف حينذاك، وما برح مستقرّه، فطالعه صديقه الثاني مصطنعًا الرصّانة:

"هل تحب ذلك؟."

وتابع ما باشر: "أي وجوم هذا الذي أنت فيه؟ اشرح لي أمرك"

ما المعضلة الّتي يُريد أن يُحاوره بخُصوصها؟

قـال ذلـك فـي حين قطّـب جبينـه فـي حيـرة. جـذب "نـديم" مقعـدًا مقابلاً له. لم ينبس ببنت شفة واستزاد الآخر:

"الوقت مُروّع في خفقانه المُفاجئ.. من قال أنّه سيقودك إلى هذه الحالة"

وضـع صـديقه الثـاني، رجـلًا. لبـث "نـديم" يحملـق بـه. قـال بشـفاه ترتجفان وأفكاره مُتراخية أبدًا:

"كيف عُدت؟... مرّت شهورًا منذ أن تفارقنا"

وثـب صـديقه الثـاني قائمـا علـى قدميـه مـن مقعـده بعـد أن أطفـأ سيجارته في المنفضة ثم وضع يديه في جيب بنطاله.

قال بعد أن توجّه نحو النّافذة:

"أليس لديك ما تُحدّث به نفسك، أم أنّك تخشى مواجهة عقلك.. لن نفترق أبدًا. وإذا تقدم الطب في إيجاد الحلول. فليس هناك ترياق يمكن أن يمحونا"

لا مَناصَ من ذلك، أخذ بضع خُطوات قليلة في ممرّ الشّقة وانكمش صامتًا في الظلام. في شرود، وعديم الثقة بنفسه، ملّص "نديم" يده من فمه وركبتيه تقرقفان والأصوات في رأسه تستغيث راجية المنجى من أذرع الذُهان المقزّزة.

كان اللّيل قد عسعس وانساب ضوء البدر من خُروم النّوافذ المغلقة، كان الهواء كثيفًا وامتلأت السّماء ببعض السُحب القانيّة، أمّا النّجوم فقد توارت على خلفيّة حمرة السّحب. على مرّ السّنين، كان الطّقس ينمو بشكلٍ غريب.

في كون ليس فيه محبّة، يفد صديقه الأوّل. كانت قسماته قاسيّة ومشتطّة. ويتسمّر في موضعه، يحملق في الأشياء.

"سئمت الدّولة من مراقبتك في وضعك البائس والدائم.. القُعود.. القُعود.. لن تغدو شخصا ذا حظوة في المستقبل"

وختم قوله بحركة فاجرة مستفزّة بيمناه.

أبرقت السّماء مُحدثة خرقًا مديدًا تفجّر منه حنق مُمطر.

أطلق "نديم" صرخة مُتّصلة كغيمة سوداء غاضبة:

"أتركوني وشأني"
جاءت أربعة أصوات متواترة ومُثيرة للاستفزاز:
"لن نفعل"
و أعقبتهم زمجرة فظيعة.
يغلون مثل خليّة نحل.
تأيّدت ظنّونه، يرتجّ، مدفوعًا إلى الأمام، ركض نحو غرفته. فتّشً عن علبة أقراصه في مخبأه السرّي. لم يجد شيئًا.
بتجلّي مُفاجئ، من مكانٍ ما، كان الوقت مُناسبًا، اليوم المضروب، تعقّبت "نور" أثره وقالت بثبات:
"أدركت لأيّ شيء تتمدّد مريضًا لأيّام لا تبرح مُستقرّك وتُخاطب نفسك في كثير من الأحيان."
ساكنة، على غير سجيّتها..
في الأفق المُتلاشي، لاحت منه التفاتة بصُورة عفويّة من موضع الصوت. كان أخرقًا، أبلهًا. جاء وقع كلماتها مدويًّا. يعجو وجهه. اِتّخذ رُكن الحُجرة مجلسًا ودفن الرّأس بين رُكبتيه لتخفيف تشنّجات الرقبة.
وفمها كبالوعة لا ترحم بكلمات يضطرب له الكيان. قالت:
"أَليس لديك ما تقوله أم أنّك آثرت الصّمت؟ عادة جميلة؟ "

منذ أوّل يوم زواج لهما لم يشعُرا بمذاق الرّاحة والغبطة والطّمأنينة، كلّ الأيّام تعيسة، محفورة بالسّآمة.
مُرهق الأعصاب، اقتضى منه التّركيز والتّفكير زمنًا طويلًا. أجاب بمرارة:
"ما هي الخطيئة التي ارتكبتها لأنال معاملة لاذعة"
في حُنجرتها احمرار، ضغط، يُحيل من الكلام. يخرج السُؤال مُتشنّجًا:
"لأيّ شيء لم تُجاهرني بحقيقة عقلك المشوش قبل الزّواج... كان زواجنا "غلطة"...لا يُناسب أحدنا الآخر.. ثمّة من أرغمني على الزّواج منك... الحُبّ لا يكفي لاستمرار سعادة زوجين"
سرت هاته الكلمات المؤلمة مسرى العذاب في سريرة نديم. أغمض تيْنك العينين عندئذ. عضّ على شفتيه.
"أي شيء تُعانيه على وجه الخُصوص"، وأنهت مقالها الّذي يقبض بمخانق العقل
"لا شيء، سليم من العاهات. في تمام صحوي"، تناثرت كلماته مضطربة. يضحك في سُأم. عيناه تُرسلان عتابًا مجعجعًا.
أحلامه تتساقط وضوضاء تحطيمها تدوي.
كان يحتضر كسائر الخلق، والممات كان شاهدا على ميلاده.

كان يواري نقائصه بشقّ الأنفس و ما كان له درءها.
كانت "ريماس" تُشاهدهم من خِلال مرآتها.
مثل الزجاج الهشّ، صارت المرأة العجوز، حول "نور" ، ترش بعضا من مسحوقها السحري، فانقلبت عينا "نور" وعلى نحوٍ عجائبي استحال الأبيض في عينيها إلى أسود بلا قاع، ارتجّ رأسها وحانت منها التفاتة وهتفت "ريماس": "هذا افتراء"
اِستبدّ بها خرس مريب. انطبق جفناها. تكتم رغبة جامحة في شيء لا تعرف كنهه. بخطى ثابتة، نأت عنه.. مُترعة بالضباب.. وكعب حذائها يسابق دقّات عقارب السّاعة الحائطيّة وعيناها تدوران في تجاويفهما. مُحطّمة. تتضارب مثل أمواج ناقمة.
انحنت برأسها ساكنة إلى صدرها. في حديث مع نفسها. باتت حجرًا، لا حراك فيها. تطوي خيبة أملها. تبكي جُهودها. ثمّ أطلقت قهقهة مثل قهقهات النمّامين القدامى وكشيء تخريبي رفعت يديها إلى السّماء وبقبضتيها المرتجفتين، لطمت الكمود، فتموّجت المصنوعات الكريستالية سامقة بعض مليمترات في الجوّ وبقت على حالها.
في لمح البصر، أطلقت صيحة مدويّة كالبئر المُعتم العميق يتوهّج في باطنه شُعاع، وقذفت القطع الكريستالية المُتجمّدة في الفضاء،

وتلوح منها، ببطء، التفاتة، بشكلٍ مُفاجئ، كما لو كان شخصًا ما يسحبها ويخضّها كدمية من قماش، في حين أنّ قسمات وجهها مضطرمة كالنّار في الهشيم. ويستحيل تلاطم كلماتها المُتوحّشة صُراخًا مُرعبًا: "أرهقتموني جميعًا".

ألقت المرأة العجوز بكُرة مُظلمة صوب "نديم". وتراشقت عليه وساوسها. احتشد ذهنه بالسُخام.

كشيء هوائي، حلّق صوب "نور". يسوقها من عنقها، بسطوته القانية، دحرها إلى ركن الغرفة، ليس له القُوّة لتجاوز ما بداخله، يخفق يمناه في الفضاء وبضربة قاضية يصفعها بملء تيهه، صفعات متواترة شديدة لا دين لها، فتهوي "نور" ممدّدة أرضاً في عبثيّة محضة، ثمّ ينقضّ عليها كوحش كاسر لا يهابه شيء..

كاد أن يشجّ رأسها.

مُترعًا بالانبهار، نأى عنها. كان على معرفة دقيقة بما أتى عليه. كان يصطرع شعوذة المرأة العجوز.

فقير عن العطاء.. يلفّ رأسه في اللاشيء.. لم يُتمم أبدًا أي شيء بصيغة كاملة.. كل ما تلمسه يديه يُصبح مشوّهًا.. وهو كفرد غير مجد.

في العراء، أين الذئاب البشريّة، مُتلافيًّا زوابع الرّيح، خرج وتاه في الطّرقات، بلا وجهة مُحدّدة. لم يقدر على تحقّق أيّ شيء هذا الذي يعدو إليه، غطّى الضّباب عقله، وعيه كان غائمًا، أوصاله مُرتجّة. فهو في حدّ ذاته مُضاع، شأنه شأن الجميع.

يذهب أدراج الرّيح.

يهبّ هواء مشوب بالرطوبة.

وضجّت المدينة صارخة في وجهه:

"أنا أكون.. أنا أكون.. أنا أكون"

وردّ عليها هو الآخر حانقًا:

"هلّا فككتم قيد عقلي؟"

المدينة سلبت هويّته.

ليس ذلك فحسب، جعلت عقله مُعطّلًا.

تضرّعه رجّ المدينة رجًّا.

كان يخال أنّه قادر على المرور عبر أبعاد مختلفة من الزمن، لإنقاذها من هذا الزّواج، فالسّواد مفاده اللاّشيء واللاّشيء يُفضي إلى الشّيء، ولئن أحسن صنيعًا فيما يروم إليه فهل يجد نفسه في نفس المكان وفي وقت مختلف؟ فأي جريمة أتى عليها في حقّه حينئذٍ؟ ما نفع أن تكون عالقا في ذات المكان ويتغيّر الوقت فقط؟

هل ثمّة رابط بين الزّمكان والذّاكرة؟ أوَ دون الذّاكرة لا يحلّ لها الانتقال بين الوقت والمكان؟ ما العلاقة الثُلاثيّة التي توثقهم؟ أي أبعاد يحلّ لهم بلوغها؟ أ يتمّ، دون أحدهما مواكبة الفعل؟ أم أنّ سُقوط أي حلقة يُفضي إلى العطب ويغدو كل شيء مُحال؟

هل يجس المكان الذاكرة؟ فيفضي ذلك إلى تشكيل لحظة من الزمن يمكن فيها فتح فجوة، من خلالها، يعبر ما تيسر من أنفاق زمكانية؟

ماذا لو فقد شخص ما الذاكرة؟ هل سيتم كسر الحلقة؟ أم أنّ عُنصرًا آخر سيبرق حينئذٍ ويقوم بإحلال محلّ المنكسر؟ أهو الحدس؟ الغريزة؟ أم أيّ شيء؟ أوَ رُبّما يكون القدر؟

(17)

استولى عليه أخطبوط الأذرع الغضبى واعتصر جسده خشية النّجاة من هاته المدينة، شعر أنّ القيء يستلّ من فمه وقطراته تتساقط، هاجمت الرّيح الجّائرة كل من اعترض طريقها، تثنيه وتطرحه على أرض صلبة عساه يعدل عن قراره الّذي فيه طبقات من الصحّة، فأعمدة الإنارة تمكث شامخة ومتماسكة قبالة رياح مدينة الشرّ إلى أن ينطفئ ضياؤها، لتعلن المدينة انتصارها ولا يزال أقوياء العقل يتشدّقون بمنافعها بمنأى عنها بعد أن خرّبوا كلّ ما كان جميلا فيها، هل كان فيها شيء جميل؟

وقع عقله، أكثر من أي وقت مضى، في حفرة لا قرار لها وجاشت رائحة العبث حيث كان الجنون حبيس العالم وعقله أسير الجنون.

في قسم الطب النّفسيّ، يدلف بمفرده إلى عيادة الطّبيب، في حين ترتقب "نور" في الخارج.

"إليك مقعدًا"

في خواطره الغريبة الخاصّة، يتجاهله تمامًا ويجلس مقابله، يهزُّ رأسه وناظريه بثقل مريب والعيون في القاعة تُحدّق به بغرابة مشمئزّة. ضجيج الأصوات المسموعة تُمزّقه، تسوؤه، وكلماتهم عنه تضايقه على أكمل وجه، بيْدَ أنّ كلّ ما يتناقلونه يستحيل إنكاره.

كان الإهمال والعياء الشّديدين صارخان في معالمه. كانت الحرارة مُشتطّة في الغرفة. وشعر بقبضة يد قوية وترامى إلى مسامعه صوت مهين وحشي وضحك شيطاني خافت في أذنيه فلاذ بالانكتام.

كان الطّبيب جذلًا، في أواسط الثلاثينيات، في أبهى طلّته، في أتمّ الصحّة، أملس الشّعر، حليق الذّقن، ذا عينين زرقاتين، يبعث على الاعتقاد لمن يرتئيه لأوّل مرة بأنّه يتميّز عن غيره بثقة سامقة لا تزعزعها المُؤثّرات الخارجيّة وإنّما في الآن عينه تندّ عنه ابتسامة ملؤها الخُبث.

سأله الطّبيب، الّذي يتمتّع بصلابة في الأعصاب، عن بعض الأشياء لكنّه لم ينبس ببنت شفّة و واستمرّ في إلقاء نظرة جوفاء على الغرفة. وأورام مُنتشرة في أجزاء وجهه.

ولجت "نور" بعد مناداة الطبيب الّذي في أتمّ الصحّة.

توجّه إليها بالحديث."ما صلة قرابتكِ بـ"نديم"؟"

أنبأته بأنّها زوجته.

"منذ متى وهو على هاته الحال؟"

بصّرَته أنّ غرائبه تفاقمت بعد الزواج.

أخطرته أنّه حصل لها التّكشّف على فيض من الأدويّة. والوصفات الطّبيّة. جذبت ما كان في حقيبتها وفردتهم على طاولة المكتب.

تأمّلهم الطّبيب مليًّا

كانت صورة "ريماس" ذات الكوارث منعكسة من خلال مرآة وتُراقبهم بشرور مُكتسية بضباب لا يعرف له حُدود أو مُنتهى.

غُيوم اِحتشدت بها السّماء في حين كان الخامس يُغمغم بنبرة جد واطئة:

«هل ترغب في إنقاذك ممّا أنت فيه»؟

في هذا التفكّك، استزادت "نور" دفعة واحدة:

"يُحجم عن مخالطة البشر. ليس لديه مصلحة في كل ما يؤمن به في العالم الحقيقي. يهجر النوم جفونه، يفقد نشاطه وحيويته. يخال أنّه مراقب وثمّة من يقتفي أثره. يخال أنّه في استطاعتي قراءة أفكاره. قلّما يأكل إلى أن رقّت عظامه واسودّ ما تحت عينيه. ثمّ تعاظم به الحال وبلغ مداه. يرى أشياء لا وجود لها ويتحاور محُاورة غريبة مع الأشباح. تتالت العوارض وغدا قاسيًا وصامتًا وشجيّ النّفس على مدار اليوم."

مُتقزّزة، دهشة صريحة تتآكلها، أضافت:

"كما أعلمني فيما مضى أنّه يعتقد أنّ إمرأة عجوز تعيش بيننا"

ضجّت "ريماس" بصراخ رهيب:

"أنتِ العجوز"

العقل مُتهدّل، بات مُبتذلًا. رمقه الطّبيب وهو يأمر كائنات لا مرئيّة باعتناق الوجوم.

:تابعت "نور" لفظها والحلق جاف

"في بعض الفترات تصبح كلماته خاوية ويتعاجز عن صوْغ عباراتٍ مترابطة."

في ما بعد، تأمّل الطّبيب ملفه وحدّ بصره إلى ما جاء في صور الأشعّة وقال بإيجاز:

"الفحوصات الجسديّة قامت بتدليل سلامته من العلل العضويّة وخلوّه من المشروبات الكُحوليّة والمخدّرات. وكشفت الأشعة السينية أن هناك أجزاء تالفة من دماغه"

"كان يعاقر الخمر ويتعاطى السُموم، فيما سلف، وكفّ بعد أن ساءت حاله"، مُختلّة التوازن قاطعت "نور" لفظ الطبيب الّذي في أتمّ الصحّة ولاذت بالصّمت.

لا يربو عن كونه مُتفرّج، تلاقت عينا "نديم" بعينان الطّبيب غيْر أنه أشاح بوجهه بعُجالة.

أخذ الطّبيب جوّاله وهاتف المُمَرّضة:

"كأسًا من الماء من فضلكِ"

وضعه نصب ناظري "نديم" الّذي لم يكن يُلقي بالًا. و متى تناثرت قطرات الماء من الكوب، هرع الطّبيب لإزالة البُقع من على الطّاولة.

وعلى كلّ حال تدارك ارتباكه حالما رأى تفحّص "نور" لاضطراباته. انتظر بضع دقائق ثم خرج عن صمته وتوجّه إلى "نديم" بالسّؤال:

"لأيّ شيء لم تتشرّب الماء؟

"الخامس دسّ السّم بالماء." رد باختصار وهياج صارخ. دوافعه شمعيّة مُحنّطة. بما لا يدع مجالًا للشك، دوّن الطّبيب الّذي في أتمّ الصحّة أشياء كثيرة في حين أنّ اليقين مرسومًا على قسماته. الليلة سيبقى تحت المُراقبة للتأكّد من أنّه لن يؤذي نفسه. هُما في حاجة فعلًا إلى بعضهما، أكثر من أي وقت كان، فهما أصدقاء قبل كل شيء وزوجين بعد ما حدث ويجب أن يَتَساعَدا في اللحظات الظّلماء. سوف يحصل كل واحد منهم في كل مرّة على العثور على الآخر من مصابه.

كسالف الأزمان، إلى تلك الأيّام عادت، بقيت مُتأرّقة على نار الصّبر.

.. كانت على تواصل مع حالات من الفقدان المُستمرّ

فروحها المُتشبّعة بالمرارة تجعلها ظمأى في سبيل لذّة الحياة، مما يزيد من ألمها للشرب من كأس الوجود، فالشّراب يطلعها على مظهره الحسن ويطمر خباياه، تراه يسري في أوردتها ويجعل دماءها قانية، فيعبث المشروب بركائز عقلها ويصيّرها مجنونة، تلطم رأسها ضدّ الجدار وشعرها يختلج، تتنافر كل شعرة عن أختها وتلبث منفردة كشظايا روحها المُضطهدة..

(18)

لأغراض غير بريئة، تنعكس صورة "ريماس" في المرآة وتُراقبهم بثبات.

قالت "نور" من دون مُداراة:

"كم من الوقت سيستغرق الشفاء؟ أنزْني"

"أولًا أطلقيني أشرح لكِ. تحاورت مع المُعالج النّفسي الّذي يصرف له الأدوية"، قال الطّبيب موفور الصحّة العقليّة.

تبلبل ذهنها. قاطعته بحدّة والشّرر يتقاذف قذفًا من حدقتيها:

"أخبرتني الممرّضة أنّه يُعاني من الشيزوفرينيا أي انفصام الشخصية"

"لا ليس الأمر كما تعتقدين. ولا يوجد مصطلح في علم النّفس يسمى بانفصام الشخصية. هذا ما يُروّج له كُتّاب السينما والرّوايات الأدبيّة."

"هل لكَ أنتَ تفسير؟"

"أعلمني المُعالج السّابق أنّه يُعاني من الاكتئاب الذُّهاني. استحال إلى فُصام في أسرع وقت ممكن جرّاء السُموم الّتي كان يتعاطاها."

صاحت المرأة العجوز الّتي تضمر العداء فيما تشدّ على فاهها بوضعيّة الإوز:

"لي شيء هام فيما يحدث

أمسك الطّبيب عن الكلام لهنيهة. وقال من جملة ما قال :
"زوجكِ مريض بفُصام العقل وليس باضطراب انفصال الهوية"
كالعادة، مؤخرًا كانت على وشك إيقاد لفافة حشيش لكنّ الطّبيب زجرها عن ذلك وتابع لفظه:
"ما ألمّه يُعدّ إخفاقًا ذريعًا في تحقّق الواقع من عدمه، ومن بين عوارضه الرّائجة الهلوسات السمعيّة والبصريّة والتفكير الباهت وتبدّد الشّخصيّة وغيرها"
"لا أعنى بالعوارض بمقدار ما أنا في بغية إلى إنهاء الأمر وإبقائه سرًّا"، تهيّجت إحساساتها. زعقت في وجه الطّبيب موفور الصحّة العقليّة.
بقساوة العالم وتصلّبه لا شيء كان يمكن أن يثنيها عن رأيها.
أثارت حفيظته.
جرِضَ الطّبيب بِريقهِ واستيهامًا منه أنّها تطمح للتخلّي عن زوجها.
ردّ باختصار:
"كما تشائين. تريدين إلقاء زوجكِ في مستشفى للأمراض النفسية لآخر رمق له، لن نقوم بتطبيب العلّة ولكن سنُخفّف الأعراض"
وفيما هُما كذلك، عمّ صمت لثواني معدودة.
الأمور وصلت إلى ذروة قصوى. قالت:

"لستُ على شيء ممّا تقول، بشكلٍ أو بآخر أُريده أن يُشفى في القريب العاجل"

على غير ما توقّعت. أجاب الطّبيب مُعقّبًا:

"لن يندمل زوجكِ على الإطلاق. هذا المرض سيرافقه لبقيّة حياته. له أن يُواصل عيشه كسابق عهده بدعامة العقاقير. أعتقد أن حالته ساءت لأنّه كان غير منتظم في أدويته أو كان على أساس منتظم بين الحين والآخر. أنتِ قدرُه الآن."

قالت وقد علت وجهها تقطيبة:

"الأشباح الّذين يُحاورهم ليسوا على شيء من البيّنة؟"

أجابها:

"مجرّد هلاوس سمعيّة وبصريّة"

"والعجوز الّتي يستشعرها؟"

"مجرّد أوهام"

جَلْجَلَ صوت "ريماس":

"أنا حقيقة"

لم تجد القوّة على أن تفه بأدنى كلمة. أدركت إحساسًا أنّ الأرض كانت تدور حولها، وشعرت بغثيان شديد. يجب أن يرتاح تمامًا في الأيّام القليلة الأولى من العلاج الأوّلي. ينبغي تحديد لون

الفصام بعد جلسات كلاميّة وتحليل متين. هذا ما قاله الطّبيب. وبشكلٍ وافٍ، شرح لها مرّة أخرى أنّه لا يُوجد شيء من هذا القبيل في قاموس علم النّفس-أي انفصام في الشخصية-وإنّما ثمّة ما يُسمّى بالفُصام العقلي، فالشّخصيّة لا تنقسم بل يحدث فيها تفكّك وتعدّديّة، أيّ ما يُسمّى باضطراب الهُويّة. ويتقاطع الفُصام العقلي مع الاكتئاب الذُّهاني ويتقاطع مع اضطراب ثُنائي القطب والفُصام هو شكل من أشكال الذُهان. مريض الفُصام ليس لديه استبصار بمرضه ولا يعترف بكونه مريضًا ولا يمكنه إعالة نفسه، حيانًا يكون لديه بصيرة متقطّعة، وفي بعض الأحيان يكون أكثر عرضة لقتل نفسه. أمّا مريض الاكتئاب الذُهاني فلديه استبصار وله أن يُمارس أنشطته بشقّ الأنفس. يتمّ استخدام جرعة من مُضادات الذُهان وفقًا لمقياس الانتكاس. فالفُصام إذن هو اِلْتِجَاج شديد يُصيب الدّماغ، ويُعطّل نمط حياة الأفراد، يُفضي إلى إفساد وتقبيح تفكير وسُلوك الشّخص المُصاب. في المدينة، خطر إصابة المرء بالفُصام يكُون مُرتفعًا. يرى المريض العالم من حوله بطريقة مُشوّهة مقارنة بالآخرين. لديه معتقدات خاطئة. بالإضافة إلى السلوك المهين. ونتيجة لذلك، تتدهور القدرات الجسديّة والعقليّة، وينقطع المريض عن العمل والأسرة والعلاقات الاجتماعية. أسباب الفصام كثيرة،

بما في ذلك الاستعدادات الوراثية، والبيوكيميائيّة، وانهيار الأسرة، والضغط الاجتماعي، والصدمات النفسيّة، والكحول والمخدرات. في الختام، وبشكلٍ غير مُباشر، قال لها الطبيب، الّذي يمتلك قُوّة في الأعصاب، أنّ زوجها له عقل منهوش مُفزع. والصدأ منه. عقله الصّالح التّقي قد تدنّس.

سلّط، حليق الأمراض، الضوء، كذلك، على نقاط هامة..

حبّذ أن تستمع إلى زوجها بعناية فائقة. أن تجعله يطمئنّ إليها. أن تُسهّل عليه احتياجات وأحاجي الحياة. أن لا يترك في خلده ما يُريد الحديث عنه. أن تجعله يُدوّن، ما يجول بذهنه، من خواطر سيّئة، في الورق ويحرقها، في وقت لاحق. أن تُعطّر غرفته. أن تعتني بأكله. وتظلّ بجواره إلى أن ينام. وإذا لم ينام، فحبّذا أن تدلّك راحة يده وأصابع قدميه. أن يبقى نائيًّا عن السلبيّة قدر الإمكان وعن كل ما يجعله أكثر بؤسًا. سوف تُولّد التراكمات انفجارات مُروّعة. فالبوح أبسط طريق إلى التداوي. يومًا بعد يوم، من اللّافت، سوف تلحظ علائم تحسّن أكيدة الأثر..

كما يُبدي الطفل احتياج إلى الشُعور بالأمان والعناية والاهتمام، كان يحتاج إلى الشُعور بالحُب والحنان. بطريقة مبهرة ومحيرة تخطف الأنفاس إلى حدّ ما..

إن كـان هُنالـك مـن أمـل لإنقـاذ المـرء سـوف يُطلـق عليـه مُسـمّى الاهتمام والصّداقة الحميمة..

يجب اتّخاذ أقصى درجات الحيطة.

(19)

أودُ لو أتقيّأ قلبي

سيمون دوبفوار

مشاهد قريبة وبعيدة. سماء الذاكرة مُتكدّرة بضجيج وصخب في لحظة خرس كادت أن تتراقص خارج هذا الدمّاغ المُشوّه بالكسل. هذا الدماغ ثقيل بالأفكار والعقاقير والكلمات والذكريات والشُروخ. هذا الدّماغ النّازف تقريبًا إلى حد أعصاب أصابع الأقدام. كان ينبغي لهذا الدّماغ أن يُشقّ إلى شقّين. يُفرغ إلى آخره. يُرتّق ويُباشر الحياة من نقطة المُنتهى..

كانت إنارة الباحة تنطفئ وتُضاء ما أن ترصد حركة آدميّة. بات الظّلام يُرعبه أكثر من السّابق. يتعاجز عن تحديد مُستقرّه من هذا العالم. ومن يجرؤ عن وضع حُدود لعالمه؟ عالم الذُهان الّذي لا طريق له. بل كان تيهًا هستيريًّا. كان تجولًا من الصعب العثور فيه على مخرج. يستحيل الخلاص منه.

قرب مدخل غرفة العلاج، يبصر، لوحة في وسطها شجرة يافعة وعقّار اسمه "سوليان" أسفل الشجرة. أخطره الطبيب خلال إحدى

جلساته بأنّ هذا لدواء سيكون له كالماء الّذي يجسّ نبض الحياة من أجل نبتة حصد الجفاف جُذورها.

أغمض عينيه حينما أتت كاتبة طبيبه النّفساني

"جئتما باكرًا"

"أرهقني. لا ينام كدأبه"

يخفق قلب "نور". يركض كنيزك يُوشك على السّقوط. أكان يوشك على الاستسلام والتخلّي عن من أحبّت. عن من تُحبّ؟ وعن من ستظلّ تحب. وهل يصل الحُب إلى حد تركه في أشدّ أزماته؟

"الدّفع من فضلك"

ما كانت النّقود تسدّ حاجة الكاتبة

"تضخّمت تسعيرة الأطّباء"

"بكم أصبحت؟"

"الفحص بمكتب الطّبيب: 75 دينارًا. زيارة أثناء النّهار بالمنزل: من 75 دينار إلى 112 دينار. زيارة أثناء الليل من 110 دينار إلى 150 دينار"

"أضحى الموت أرحم من تطبيب المرض"

قال أحد الجالسين أنّ الطّبيب الجيّد، ليس هو الّذي يتهافت عليه المرضى من كلّ رُكن، وإنّما هو الّذي يتميّز باللين والوداعة، من

يرهف سمعه إليك، من يشعر بوجع مرض أصابك قبل أن يسألك عن موضع العلّة، من لا يدفعك إلى دفع فاتورة الطبيب إلّا بعد مغادرتك لمكتبه. ومن لا يقتضي بتسعيرة عمادة الأطبّاء..

كما أنّ الأدوية الموجّهة لـ"نديم" باهظة الثمن وذلك لقلّة آثارها الجانبيّة مُقارنة بتلك الرخيصة والآثار الجانبية مُدمّرة.

كان قُدوم الطّبيب متأخّرًا. قبله كان هناك مجيئًا هستيريًّا لرجل زوجته وقعت بين براثن آثار الدواء. بدا وكأنّ منسوب الغضب قد فاض منذ أيّام..

"أتّصل بالطبيب ولا يرد"

"سيأتي عمّا قريب"

"سألوذ إلى القضاء. رسائله بذاكرة الهاتف"

تبتسم:

"أخبرتكَ سيأتي عمّا قريب"

يقول أنّ في هاتفه رسائل مُتبادلة، وهي رسائل من شأنها أن تُحضر الطبيب إلى السجن، فاغتبط نديم لما سمع..

لا يعرف شيئًا عن طاقة تحمّل أعصاب كاتبة حليق الأمراض. لا ريب أنّ طبيبه غير قادر على العمل مع من هم أقل شأنًا في أعصابه. والأكثر رجحانًا أن تُنتهك حرمة أعصابه، هي الأخرى،

وتصبح تالفة، مُمزّقة بالكم الزمنيّ الّذي سيقضيه بين حوائط قذرة وفاسدة.

تنسرب تشقّقات ما سيأتي. دلف الطّبيب هلعًا رفقة من سيزجّه إلى السّجن. مكثا وقتًا طيّبًا. ومن ثمّ اندفعَا خارجًا..

مرّ حين..

يُمازح الطّبيب أعصاب نافرة:

"ما أمرك اليوم؟"

"أمري حسن"

"ألحظ فيك تقدّمًا بارقًا "

"لا ألحظ شيء في نفسي"

"خُذ نفسًا عميقًا. أغمض عينيك. أخبرني بمكنون ما رأيته. تنفّس بعمق. أحسنت. كذلك.. استمر"

"أرى نفسي مُلقى على أحد القبور وأبكي بجنون"

"قبر من؟ تحقّق من اسم صاحبه"

"ليس لي ذلك. ضباب يكسو جوانبه"

لقد كان بطيئًا في التفكير وبطيء في الحديث. بدأ بالبُكاء. يهرش مثل قط تغزوه البراغيث. ما كان ينبغي للطّبيب أن يُصرّ في كشف كل ما ملكت يمناه. لا حرج في ترك مساحة آمنة مع المجهول.

في ارتباك الضعف، تبدّى لـ "نديم" أنّه مكبل بالأصفاد على سرير متعفن، بينما الصراصير، سيل من الصراصير يقفزون فوقه، يتفرّس بالسّقف في وجود فارغ بعينين متعبتين وزائغتين، وضوء وامض يتدفق عبر نافذة محطمة بلا جدوى ومغلفة بالخشب.

المكان مظلم تقريبًا. يطلق سعالًا خانقًا مليئًا بالأتربة والهواء الثقيل، وكان جسده يهتز بضعة مليمترات، الغرفة مليئة بالبول القديم، جدرانها متهالكة غاية الإهتراء، وكل ما بداخلها مُحطّم من عربات وأسرّة وسمّاعات طبيّة وبطانيات متسخة وأريكة مقوّسة في الزاوية، غرفة نظيرة بغرف المستشفيات العقليّة، الّتي تمّ التخلّي عنها وغدت مهجورة لعقود بعد أن حلّت بهم كارثة وتلاطمهم الشّؤم

يتّخذ الطبيب الأعجب أنيق الهندام مستقرّه حذوه ويقول:

"ألازلت تعاني منهم؟، أفصح عمّا بأغوارك فلا حرج معي.. ليس بي أي مشكلة"

فلم ينبس ببنت شفّة ولبث في حالة الشّرود، فقال حليق الأمراض:

"أيّها الثّالث يُرجى ترك المجال لـ"نديم". أعدك بأنّني سأجري عملية على فمك"

ساد شيء من الوجوم في غضون ذلك، فقال الطبيب باقتضاب:

"أتسمح؟"

فتنحنح "نديم" بصوت خفيض

"نديم "أتسمعني؟ أهذا أنت؟.."، فتنحنح "نديم" وعقد ذراعيه إلى صدره ولم يفه بكلمة"

اقتصر علاجه على المُعالجة الدّوائيّة أولًّا: مُضاد ذُهاني ومُضاد للاكتئاب. المُعالجة النّفسيّة ثانيًّا. والتأهيل النّفسي الّذي يشمل تنمية المهارات. وإعادة الاندماج في المجتمع..

المُجتمع في حالة سقم...

عن أيّ اندماج؟

مجتمع؟

المجتمع في حالة من الضيق...

رابعًا: العلاج الفردي الذي يهدف إلى تبسيط المرض للمريض..

خامسًا: العلاج الأُسري والغرض منه هو تثقيف أقارب المريض حول طبيعة المرض والتعامل مع المريض من باب الغوث..

خامسًا: الإستسشفاء

سادسًا: المُعالجة بالتخليج الكهربائي

سابعًا: العلاج الجراحي في أنسجة المخ

فضلا عن الانتماء إلى مجموعات دعم مرضى الفُصام..

وعقب جلسات كلاميّة تُثير في النّفس قُشعريرة قاتلة، في طريق عودته، دأب أن يترجّل من سيّارة التاكسي ويصرخ بارتجاج ومرارة في حين كانت "نور" تنظره نظرة قاتمة..

في عشيّة من عشايا الشّتاء، وضعت له فيلم «عقل جميل» والّذي يرصد حالة فصاميّة لعالم الرياضيات الشهير، جون ناش، الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد، وتبعات ما ألمّ به. يظلّ البطل في ألم دائم وصمت كئيب. وعلى الرغم من شلله الفكري، كان مثابرًا ومرنًا في مواجهة تبعات ما عاناه. الحُب والصّداقة وعدم الإخلال بالوعود هي أسباب في أن يُحسن صنيعًا على الصّعيد المهني..

ألم يكن ينبغي لها أن تُسدي تدريبات مكان أن تقوم بمهانته؟

ما كان ينخر قلبه أن يتأذّى ممّن ينال مساحة يقوتيّة في أعماق أعماقه.

كانت "ريماس" تُثير فيها الإحساس بالذنب. تأمرها بصنيع ما تبتغيه. حين رفض أكل الطّعام وشرع بالعبث بمخزون الطّبق، لم تستطع "نور" كبح جماح غضبها في واحدة من أكثر الأوقات غزارة، وصفعته بمقت العالم.

ليس من شيم الأسوياء أن تُبدي تعامل لا يقلّ عن تسميته تعاملًا رخيصًا بحقّه. ليست الأولى، في غير مرّة تجعله لا يشعر بأي شيء

إزاء نفسه، كما لو كان عدمًا مُبتذلًا، لا يدنو من جُداران عدمه، يمضي غالب ظنّه إلى عواطف تُجرجره إلى سُقوط حظوة جاهد في اكتسابها. ألن ينتهي ممّن هو على قيد أذيّته؟

مكث على جلده للذات. وبعميق حُبّه تأذّى.. ومضى يصيح بقذارة أن تظلّ بمنأى عن أسوار عاطفته.

صرخ: "إليكِ عن حياتي إلى الأبد"

لا شيء يعود كالسابق..

جعلت في داخله شعورًا يفيض بالقهر.

لم يعد به بغية لمحادثتها.

وكُلّه شكر وامتنان إذا بقيت على مبعدة إلى أن يحين ميعاد ارتحاله عن أرض الفناء.

يسقطُ مريضًا لأنّه كثيرًا ما يُراكم الكلمات ولا يقولها.

مرّت أيّام يُخرج ما في نفسه: "هل تكون غير حقيقة بشأني؟"

ومع ذلك، كمّ يُحبّها بجنون، لا يستطيع دفعها إلى ما وراء حدود مشاعره، ولاسيّما بعد ما حدث بينهما من ودّ خُرافي لم يحدث لمن مرّوا على أرض الكون سابقًا. هي واحدة من قناعاته.

لم يعد يعتقد أنّ حبّها له كان صادقًا. ومضى إلى الاعتقاد أنّه كان مُثيرًا للاهتمام مثل أي شخص آخر. الكل يريد أن يكشف عن حياته.

والآن غدا مثيرًا للشفقة.

(**20**)

فعندما يمرض الشخص،
يبدأ النّاس في الابتعاد عنه وتجنّبه.
فذلِك هو حال النّاس دومًا،
إذا لم يكُن لديك شيئًا لتقدّمه لهم،
فإنّهم دائمًا ما يذهبوا ويتركوك وحيدًا

ميخائيل شيشكين

بهمجيّة وجُنون لا قرار له كان ينقضّ عليها كلّ مرّة، مصعوقًا، مُنتفضًا، مُحتجًّا، شرسًا، يشتمها، ولم يكن نادمًا على ما يأتي من فظاعة، فأخذت تتفكّر في مخرج لها، وقد خططت للتخلّي عنه وعدم المجيء إلى هنا.. كان قادرًا على قراءة أفكارها تمامًا كما هي قادرة على قراءة أفكاره..
إنّها لا شيء. انتهت. تسقط عضوًا إثر عضو.. إنّ هذا كثير جدًا عليها.. ولأنّها ضائعة تبحث عن أشياء لا تعرفها.
كلبوة مصروعة وخائرة صرخت في وجهه دلالة على مدى وحشيّة التمزّق:
"Je ne te dois rien"

"كان بيننا عهد وميثاق.. أوفوا بالّذي قلتم." أبدى صوته تصميمًا رصينًا تحت وقع خطر الفجيعة. تحت وطأة الرّحيل.

ما حزّ في نفسه أنّها تغيّرت بثقل التغيّر. تلوّنْتَ منذ أن عرفت بأعماقه الظلماء.

أخذ حُقَن عضلية طويلة التأثير لامتناعه على تناول عقاقيره ولتقليص مرّات الانتكاسات. يتمّ تقديمها كل أسبوعين.. ومشوار التّداوي لا يقلّ عن حياة كاملة.

بحُلول المساء، يظلّ في حُجرته ويتحيّن بصبر افتتاح العالم المُوازي الّذي سيتولّى مقاليد حُكمه، دماغه مُمزّق ومتعب للغاية، لا يعرف ما جدوى البقاء في هاته المدينة. قال إنّه سيُصلّي قدر المستطاع، في هاته اللحظة، إلى أن يجيب الله على رسائله، كان على يقين من أنّ الله يُبقيه هنا لأسباب مُقنعة لا يعرفها بعد. يُنصت إلى ذبذبات تضايقه كثيرًا. يتعاجز عن التّركيز أثناء سماعها. كان مليئًا بخيبة الأمل والأسيّة من الكراهية.

"زوجتي سُحب قذرة وسيْل أكاذيب" يفحّ كأفعى
يُكابد الأصداء
الواحدة بعد مُنتصف الليل

يستحضر فقرة من ذاكرته. طالع يساره وبذراعه العنكبوتيّة لوّح إلى العدم. غير قادر على استدعاء الصُّورة بذهنه.

يعتقد أن الطّبيب، الّذي يمتلك قُوّة في الأعصاب، قد لاحظ هذا أو رُبّما تجمّد لبضع ثوانٍ.

قال الطبيب موفور الصحّة العقليّة."يا عزيزي، ليس لك أن تُعالج نفسك بمُفردك"

في السّاعة 1:35 صباحًا، يُبدي محاولة تحريك الأشياء من موضعها، باستخدام العقل، ولكن دون نجاح.

كان يرتعب ارتعابًا شديدًا ما أن يترامى إلى مسامعه طرقٌ شديدٌ ومدوٍ، في أعماق الظلام القاتل. وهل هناك دليل على تآمر زوجته عليه بمعيّة جاره "سليم"؟

ثم شتمها وصفعها على وجهها

يُكابد الأصداء

ضوضاء استفزازيّة تمنعه من التفكير كما هو الحال دائمًا.. يتنفّس بصُعوبة.. يشعر بأشياء تمنعه من الحركة، يُكافح الأصوات اللّائمة والآمرة، يقتتل وجوهًا شبحيّة مُسترابة، عقله ثقيل ومظلم، كما لو كان ممزّقا إلى مليون قطعة من الأشواك؟ يعلم أنّه يُبدي مُقاومة لسنوات عديدة... يمشي في طريق طويل من المُقاومة. يودّ أن يرى

أنـهّ سـينتهي، بـاللوذ بـالهرب إلـى العـالـم الآخـر أو يُقتـل لأنّـه يشـعر لضـعف شـديد لدرجـة أنـه لا يسـتطيع أن يقتـل نفسـه أو يجـد ذريعـة لقتـل نفسـه، لقـد فقـد جرأتـه للقيـام بـذلك، لكـنّ أفكـار الانتحـار تُلاحقه.

دون وعي منه، يحلو له أن يخرج ويمشي مُشتّتًا لساعات طِوال في شوارع مدينة الضوضاء الّتي لا تموت. مُطأطأ الرّأس، يرمق خفية وجوه النّاس، يختنق، ويقول لنفسه: "أنا لست رجلًا مُضاعًا وإنّما أنا رجل لا يعرف ماذا يتشهّى من الحياة. كما أنّه قد أساء فهمها" بيْدَ أنّ الطبيب حوّطها من خروجه إلى الشارع لئلّا يتعرّض إلى المتاعب. ولـن يكـون مسـؤولاً عمّـا سـيحدث لـه. كـان يُشـير إلـى الانتحـار. لـم تعمـل بإيعـازه. تعاونـت معـه أردأ تعـاون. لقـد كانـت شخصًـا أُصـيب بخيبـة أمـل وإحبـاط مـن جميـع الأشـخاص الـّذين لاقتهم. و متى قابلت واحدًا مُمتازًا، شرعت ضدّه، وبدون شفقة، على فعل كل البشاعة والأعمال الوحشيّة المذكورة آنفًا.

ويُحجِمُ معظمهم عن الحياة حين تمشي بهم أهواء الحياة على غير استواء، شعر التّكرار الفاتك في كلّ مرّة مشى فيها على عتبات الرّصيف وتفكّر في حالة المارّة المحفوفة بالمخاطر، كان يرمق أحلامهم الوضيعة المتواضعة المضعضعة الّتي لن تبلغ غاية مرادها،

الّتي لن تُستهدف إلى حدّ صغير، وأنّه لن يأتي شيء منها، كان قد عاشرهم وفرّ عنهم، ناء حتّى النّهاية المطوّلة، إلى أبعد مدى، إلى أغوار غائرة إنسانيّا وعقيمة بشريّا وكان عقله يعتصره بوحشيّة، كان قد عزم وجزم وحزم أمره على أنّه إذا لم يكن قد انشقّ عنهم لما لكان في أردأ حال على التتالي، كان أحد أولئك الذين يرتقبون ويُراقبون ولا يقتربون، لم يكن يفهم الأشياء وإنّما يتقنها جيّدا، آمن بأنّ الانزواء المريح أسمى من الاختلاط القاتل، ففي هاته الدّونيّة الاجتماعية لم يعد للأشياء قيمة فاللاّقيمة غدت قيمة مطلقة..

كان خاضعًا لاحتكام كائنات غير مرئية، تلتقط أفعاله، تُضايقه وتُضجره أشدّ ما يكُنْ.. وهذا يمنعه من التجوال بشكلٍ مُريح في هَرج شوارع المدينة الّتي لا تموت. والكائنات الّتي تسير تُشاهده يرتعد ويتعرّق وكأنّه كان قاتلًا خطيرًا هاربًا من العدالة. حتماً لا ينتمي إليهم.. ولن يكون منهم.. عُيون المارّة الملأ بجُنون الارتياب تُعلن أنّه خنزير نتن. لا يعرف الاستحمام. وهكذا توقّف عن الخُروج تمامًا.

في هذه الليلة .. لقد تجاوز عتبة التعب.. شعر بأزمة مروّعة. رجعت به الذاكرة. كان لازمة تكراريّة لوضع حد للذبذبات الصوتية الّتي تسخر منه.. يجب أن تتوقّف هاته الألاعيب القذرة. أرخى

عينيه وأظلم العياء عقله. كان مسكونًا بفكرة أنّ الحُلكة ستبتلعه عمّا قريب..

يعتقد أنّه محشور في لعنة خلقها شخص ما لسنوات عديدة لتدمير حياته.

مضى ظنّه إلى "سليم"

"حتمًا "سليم".."، غمغم.

وهو يعرف ضمنًا، وبأكبر قدر من اليقين، من أن مآل زوجته سوف يكون فاضحًا، وأنه في يوم عاصف شديد البُرودة، سيُمسك ذراعها بغلظة ويزجّ بها خارج البيت فيما لسانه يلهج بالسّباب، يوصمها بالعاهرة بينما ألسنة النّار الملتهبة ترحب بها بأذرع مفتوحة وجماهير غفيرة تحوم حولها للأخبار السارّة الّتي تقلّل من ازدراءهم لأنفسهم.

تيقّظ بشكلٍ مُباغت في نهاية الليل وكان مُشبّعًا بالظلمة. لديه رغبة كبيرة في مُقارعة "سليم" الّذي يكيد له كيدًا. أن يُخرج أقصى كمّ من السُخام. أن يشعر بتحسّن. أن يقتل كل شيء بدواخله.

فما حاجته إلى العقاقير؟

من حين إلى آخر، كان يستدعي شجرة عائلته الّتي عانت من مرض الذُهان. جيلًا بعد جيل تتوارثه أفرادها. ينتقل الجين بصورة

مُثيرة للرهبة.. تُنذر بخطر التخبّط المُستمرّ بين النّاس. تذكّر كلّ شيء وبكى.

اعتادت زوجته أن تترك له مساحة آمنة لأخذ حمّام حارّ من شأنه أن يُوقظ عصبونات نائمة..

ومن خواء يعي حقيقة ما هو عليه بدأ بتقطيع شرايين زرقاء مُتفجّرة دمًا. لم يكن ثمّة صوت. كان في حالة بكم. وعلى الرغم من قباحة ما فعل، لا يزال شيء بالدّاخل يحتاج إلى قتل. قتل شفاف. قتل حقير. قتل مُتشدّد. قتل لا يُشبهه قتل..

وبمجرّد أن فتحت باب الحمّام، نما صوتها مثل قنبلة رعديّة:

"إلهي"

استمر في النّزيف. كان الجسد الشّاحب يستغني عن دمه. تقاطعت دائرة الحياة والموت..

بينما كان يُساق إلى حيث لا يعلم، كانت نظراته مُعاتبة، تُلقي بملامة الخذلان: "أحببتكِ كثيرًا. لأي مُراد فعلتِ هذا بي. لقد وعدتني والإنسان الحقيقي يجب أن يأخذ وعوده مأخذ التنفيذ. لماذا فعلتِ هذا بي عندما تعلمين أني أحبّكِ أكثر منّي بكثير. أسوأ شيء في هذا العالم أن تخذل من وثق بك، من أخلص لك، من وأحبّك. لماذا فعلتِ هذا بي، بعد أن فتحت قلبي لكِ، بعد أن كنتُ

شخصًا جيدًا جدًا لكِ، عاملتك حسنًا. خذلتني، أشعر بخيبة ومرارة. أشعر بازدياد الظلام بداخلي"

وزُجّ به إلى مستشفى الأمراض العقليّة.

حُجرته في التقاطع الأوّل. يُشاطره فيها خمسة أصدقاء ونزيل لم يُغادر المُستشفى مُنذ سنوات. شيئًا فشيئًا، ومع رُكود الاهتمام، تقلّصت الزيارات، إلى أن بات نسيًّا منسيًّا..

قال المريض:

"ستطفو فوق عزلة خالدة"

"كلّا، ثمّة من يُحّبني "

"الأيّام بيننا"

أتمم:

"إذا كُنتَ تُحبّ شخصًا ما فهذا لا يعني أنّه سيبقى معكَ في أصعب الأوقات"

"حسنًا"

غضب وجزع ممّا قِيل له. شارد اللّبّ تمدّد على سرير يصدر ضجيجًا يذرّ غُبار الأرق..

قال أنّه لا يخاف من فكرة شريك غرفته. ومع ذلك لم يكن على دراية بمحتمل نشوءه..

جاء صوت صرير من السقف، تلاه وقع خُطوات عجولة في الممرّ المُحاذي لحُجرته.. فأنسلّ من موضعه.. وجد المرأة العجوز واقفة في زاوية مظلمة وتتحدّث إلى المجهول.. أي شيء هذا الّذي ترجوه في الوقت الرّاهن من عتمة الليل؟.. ويجيبها الظّلام الّذي يُحادثها.. ينبعث صوتًا عميقًا... بشعًا... خشنًا من الرّكن المعتم.. أطلقت "ريماس" نبحة غاضبة.. فقهقه الكائن المُتواري في العتمة... أطلقت العنان لآهة مريرة.. وأنشأت تتأوّه وتتعفّن وترشح عبثًا وتتلاكم بالأذرع.. وسرعان ما فقدت سيطرتها وسقطت أرضًا، فتضخّم صوت صرير الأرضيّة الخشبيّة من تحتها..

ركض نحو حُجرته.

بعد فشل الأدوية كان يخضع للعلاج الكهربائي. تحت التخدير، يُثبّته الطّبيب حليق الأمراض فوق السّرير. ويجعل الأقطاب مُتّصلة بفروة رأسه. كان لا يأتي أي صنيع عدا التشنجّ.. لا يرى العالم في لونه الرمادي وإنّما لا يره على الإطلاق. لا عالم ينتمي إليه.. هذا لم يستمرّ أكثر من عشر دقائق..

هو مريض وكل كلمة يتلقفها يأخذها مأخذ كما يشعر. بالإضافة إلى أنه لم يهتم أبدًا بأهمية كلمات تُقال له من أُناس لا شأن لهم.

ولا يجب أن تنسى أبدًا أنّه مريض وبمُجرّد وعدها بالبقاء معه حتّى نهاية هاته الأيّام يُعدّ وعدًا مُقدّسًا..

وحدث ما كان يدرأه بفكره. للبشر ألوان مُخادعة لا تنتهي منها الخذلان والتخلّي. كانت الحياة مُصمّمة على أذيّته بتلاشي أدنى النّاس إليه عن مجال البصر.

لسوء الزّمن، فإنّ معظم النّاس في الوقت الحاضر يسعون وراء مصالحهم الخاصّة فقط: "من الأثير أن تكون بمفردك مكان أن تكون مع أشخاص يمتنعون عنك دائمًا في الأوقات الصعبة.." قال نزيله في الغرفة

تغيّبت عن زيارته لأسابيع. كاتبته مُوجّهة معاذير رخيصة: "أردت أن أستطلع عن أمرك في المستشفى هذين اليومين.. لقد ترددت.. كنتُ قلقة من أن تكون في غير راحة حال مرآي.. آمل أن تكون على ما يرجو.. وأتمنّى لكَ يومًا جيدًا... أنا لكَ في أي وقت.. اعتني بنفسك.."

كتب جوابًا وكان وجهه يشحب، ينكمش ويذوي: أردت أن أستعلم كيف أنتِ؟.. آمل أن تكوني على ما يرام... لقد قطعتِ مسافة طويلة جدًّا يا زوجتي، وآمل أنّكِ وجدتِ بعض الراحة. خمس ثوانٍ، أكثر من اللّازم، لن تأخذ وقتًا للرد على رسالة أو مُكالمة..

ولكن هذا يعني الكثير بالنّسبة لي.. ويُوحي كم أعني لك.. يا للخيبة.. يوم جيّد.. عُطلة نهاية أسبوع رائقة.. اعتني بنفسكِ.. سأظل دائمًا قلقًا بشأنكِ.. أحبّك، يا أثمن شخص في حياتي. حياتي تنتهي بدونك"

كان واحدًا من أولئك الّذين يُبادرون، على الدّوام، بالتّنازل والتغافل عن الزلّات والسّهو عن السيّئة، كان شخصًا صادقًا مُخلصًا وإذا أحبّ يُحبّ أبدًا. أمّا من عاهده على البقاء، فكان صنيعه يقتصر على إصرار التجاهل والإهمال والكذب المتّصل بالغياب.

وحده الإهمال من شأنه أن يهدم كل ما تمّ إنشاءه.

ويُخبرك المرض أنّك وحدك، أنّ لا أحد يُلقي اهتماما وأنّ لا أحد في دعامتكَ مهما كان حُب الشّخص لكَ.

حُبّه غير مجدي. ولن يكون لأي زمن من الأزمنة القادمة.

والشّخص الّذي يُحب عميقًا صبره نافد للقيان الطرف الآخر

كان يتوقع أنها ستأتي إليه بأسرع ما يمكن، ولن تخذله مرّة إثر مرّة.

فجأة تذكر ما قالته: "كل شخص يستحق مكانه"

أيُبيج قلب العاشق بمكانة الأشخاص؟

هي الّتي لا تُنيل حظوة للوحيد الذي يهتمّ بها أشدّ اهتمام. لا تبالي أبدًا كيف تحب. وبقلب مُتحجّر يطيب لها أن تهجر من يقف على

أرض ليست ثابتة. في سابق حياتها، لم يكن هناك حُب واسع النطاق. من وقت لآخر، يظل على ذكرى انهيارات تمّ في خضمها التنازل عنه. كمّ كان يعرف نفسه حين يُحبّ، يغفر كثيرًا، ويستسلم دومًا، إلى أن يستسلم عنه الطرف الآخر.

توقّف عن العلاج خلال اليومين الماضيين... يُقاسي من ألم شديد في كل من العظام والكليتين.. لم يعد للنّوم طريقًا على الرّغم من أنّه لم يكن.. لقد أُصيب بنوبة هلع.. كان ينزّ عرقًا أكثر من المُحتمل.. ولا يستطيع السّيطرة على نفسه.. يشعر بالهدوء بعد إيقاف دواء ضبط الجنون ولكن الألم في الكلى مُستمرّ.

تهمله كالمُعتاد.. لن يلتمس التواصل وإيّاها بعد الآن.. ستبقي حيث هي، غارقة في لا مُبالاتها... تجعله يشعر بالمرض.. تجعله يشعر بالغثيان.. دائمًا...

لا يستطيع العُثور على الكلمات للتعبير عن مدى الإجرام في تخلّي النّاس عن الّذين أمنوا..

حتّى السُقوط تخلّى عنه وتركه بلا شيء..

كان سقيمًا للغاية وفي حاجة إلى مُقابلتها. رأسه تُؤلمه وقلبه عليل. هجر الأكل. جرجره المرض إلى ما كان عليه سابقًا. الانفصال قد ترك فيه أثرًا كبيرًا

"لأيّ شيء أوصدتِ وسائل الاتصال في وجهي؟"

"كُنتُ مشغولة بشؤون"

"كُنتُ مريضًا تمامًا، كُنتُ بحاجة إليكِ بشدّة"

"يجب عليّ أن أغادر"

"لا تتعاملي معي بهذه الطريقة. تعلمين أنيّ رجل حسّاس ورقيق"

"سوف أغادر"

"انتظري دقيقة"

"الله يُبرأكَ"

"أحبّكِ كثيرًا"

"شُكرًا وإلى المُلتقى البعيد "

"أريدكِ أن تكوني بجانبي"

"عائلتي تنتظرني. في حاجة إلى معونتي"

"وأنا؟ ماذا عنّي؟ من المفترض أن أكون لكِ"

"عندما أعرف الإجابة سأخبركَ"

التمس قاع حُزن من أتون دكانته بات لا قاع له. تُعرّي هذه الفوضى الحياة بمعانيها.

بدلًا من أخذه إلى برّ الأمان، باذلة كل قُدراتها في الهجر أدارت له قِفاها ومضت بمفردها.
جُرحه باتَ عميقًا إلى درجة أنّ كل الأسف الذي في العالم لن يداويه. لم يكن يعرف أنّ الوفاء قد أصبح بهذا القدر من شيء لا يستطيع وصفه. يهون بدرجة كبيرة.
كمّ يُدرك مُستقبلًا أنّ خذلانها لن يكون نسيًّا منسيًّا كسائر ما خبره من أتراح بل نزيفًا يستظلّ به في حين أنّ أقدامه تتلظّى بحجم لهب الإستيهام بتواجدها في خضم مُعاناته. الخيبة، لم تكن في تشبّث المرض به، بل في من تخلّى عنه وفي غُمرة انهياره.
كان ثمّة رابط بينهما ويبدو أنّ هذا الرابط قد بدأ في التمزّق بسبب هذا التكرار الوحشي للفراق، إذا كان الرابط سينفصل عنه بالكامل، إذًا حتمًا تكون منتهاه.
أخيرًا، اقتنع أنّها لم تُحبّه يومًا. لو أحبّته لما أبدتَ صنيع الضرر به. لمَا أقفلت وسائل الاتصال بينهما.. لمَا حدث ما حدث.

حبّة بعد حبّة، تجمّع لديه ما يتدانى من ستّون حبّة. وحين اطمأنّ من فراغ دورات المياه من القائمين، أخذ وعاءً رفيعًا من الماء وأنشأ

في ازدراد ما جناه طيلة 20 يومًا. وخرّ ساكنًا على الأرض بينما تدفّقت رغوة لزجة إلى مستوى الذقن.
دارت السّنة دورتها وهو قابع في المستشفى.
وفي إحدى الزيارات الّتي يندر حُدوثها، حدّثها، حليق الأمراض، عن بدء استقامة عقل زوجها.
"اطمئنّي. يثوب إلى رُشده"
"لا شفاء، أليس كذلك؟"
انتظر وأفصح:
"كلّا. مرضه وراثي. فرضيّة غالبة أن ينتقل الجين المرضي إلى السلالة القادمة"
شُعور ينقبض بعدم الاكتراث جعل ما أدلى به الطّبيب في طي النّسيان. مُضمّخة بالعرق مرّرت أناملها على رأسها المُتساقطة شعره أرقًا..
ساءلته مجدًّدا:
"ألن يُشفى؟"
أجاب:
"كلاّ"
تغوص في انفعالات شرسة وخبيثة:

"ألن يُشفى"

ردّ دفعة واحدة:

"كلّا"

تكرّرت المشادة الكلاميّة بينهما.

بين سُؤال وجواب، تغضّن وجه الطّبيب. تحطّمت قسماته. اكتسب حيّزًا من كآبة الظّلام. يتلفّظ بكلام كثير. يصير ريشًا أسودًا. وبمُكر الصُراخ، في خلقة "نور"، وجّهت المرأة العجوز تهديدًا مكان الطبيب: "لن يُشفى. والدّور دورِكِ"

لن يسلم من شركها وشرّها أحد..

والويل كل الويل، لمن يقف في طريقها..

(21)

أمام الخسارات، وحين مُواجهة النهايات، كلّ يتصرّف حسب أصله

أحلام مستغانمي

الشّمس تُدمي وتُرسل بأشواكها البرتقاليّة صوب مقرّ سُكناه، مُذكّرة إيّاه بشيء يُراد له النّسيان، حتّى الشّمس تحالفت مع الغدر وأتقنت المكر، مشهد الغروب يأتي على ذكره بخديعة النّهار، فالغروب يطمس ويطمر تشوّه النّهار ويُضمر لسعته ولكزته وتعثّراته المهينة ليفسح المجال تاليًا لسكرات اللّيل وشؤمه وبؤسه، فيشفط اللّيل آخر قطرات الصّمود والتشبّث.

تدنو من أمّها وتُعلمها بمرارة مدى خضوعها. تكاد تُجنّ وتختفي. فتضمّها الأخرى وتتلمّسها في حنو: "تعالي... إلى الدّاخل يا بُنيّتي. "وبسطتها على الأريكة. وانكمشت فيه "نور" على طريقة الجنين. انسلّت "جميلة" إلى الخارج. وتلو هُنيهة قفلت راجعة حاملة في يدها مجمرة مُتوسّطة الحجم. وذرّت البُخور بين الأركان. ثمّ طلبت من "نور" أن تستنشقه. تاليًا، تدور والدتها حول نفسها وشرر المجمرة يتطاير بشكلٍ غريب. ثمّة رياح غير معلومة المبعث، تلفّها، إلى أن كانت "ريماس". تهوي المجمرة من مُستوى اليد وتنكسر.

أشياء سوداء غريبة تنبعث منها وتنتهك الجسد المسكين. يسقط عقلها نائمًا وهو يُقبّل الأشياء المُمزّقة. في حين كانت المرأة العجوز مغمورة بأحاجي غامضة.

كان ضجيج الشّوارع يقلّ ويخفت تدريجيًّا، ليصخب بين أربعة جدران، فيعم السّباب والتذّمر، لمجرّد أنّ الحساء كان مالحًا، البطاطس غير ناضجة، والأطباق غير نظيفة، فالنّفوس تمسي مكفهرّة بعد أن أضناها تعب النّهار.

مُوطّدة العزم، قبضت بحقيبة أغراضها، وإلى الناحية الأخرى، جعلت نظرها إليه.

كان عقله قصيًّا عن الواقع مُتجرّدًا من غطرسة الزوج، قال بشيء: من الثّبات.

"ما موضوع خلافنا؟ هل ثمّة ما يُضايقكِ."

حادّة الطباع استحال لونُ وجهها إلى الغضب.

"أيّ شيء طرأ؟"

يستدرّ شفقتها وعواطفها. يسعى إلى لمس شعرها فتثنيه قائلة بما قلّ ودلّ:

".. "إليك عنّي

استرخى إلى الخلف مُبقيًا خُطوات بينهما. مساعيه في الحفاظ على هذا الزّواج، لم تتكلّل بالنّجاح.
بلغ من الحُب والوفاء عتيًا..
أراد حياة مخضُوضرة. فاستحالت منيّته إلى حياة مُتصحّرة. يخرج عن صمته:
"لستُ سيّئًا وليس الأمر كما تتخيّلين"
الطريق إليها ضرّاء..
ظنّ بها ظنًّا جميلًا فسحقته سحقًا دنيئًا..
لم يتوقع قط خيبة أمله. لقد لمح خذلانه مُتقولب في شكل من كان يعتقد أنّه الولاء. في شكل ما اعتقد أنّه لن يتحقّق. الشّلل أردمه عن آخره. لا أحد يلاحظ خوفه وخيبة أمله. ارتعاش ظنون لم يكن في الحُسبان. كيف يتخفّف من هذا الثقل الصّادم..
اصطفت الفراق مُنذ أن أدركت حجم سُقوطه. دقّت فيه خيبة آمل نازفة. حطّت من حظوته. استرخصت مشاعره. ومع ذلك إفهو يعرف يقينًا أنّها ذا اختارت شخصًا آخر لبناء حياة سعيدة جديدة، فإنّ ذلك المُختار سيخيب أملها تمامًا كما فعلت مع شخصها الأكثر إخلاصًا. سوف تشعر بفداحة الغياب والاهتمام والتقدير وجميع الفوائد الّتي حصلت عليها من قبل. في الإدراك المتأخّر،

يندم النّاس على فقدان أحبّائهم الّذين يرعونهم بإخلاص. يندمون عندما يُرافقون أولئك الّذين يهينونهم ولا يهتمّون بوجودهم..

متى أصبح بحياتها، وجدها امرأة جوفاء من أيّ إحساسات كآلة الإنسان. يمرّ بها البشر دون أن يلحظونها. أحسّ أنّ بها خيبة عائليّة لا تلتئم. كان مُتريّثًا معها. كان عالقًا معها. وأبدى غير مرّة مُحاولة استرداد نفخة الحياة الّتي أظلّتها على الرّغم من حقيقة كونه في احتياج إلى من يُعيده إلى نصاب الحياة..

استزاد برجاء مُدقع يصهر الأعصاب. يُزعزع الذاكرة. وتنضِبُ له أنهار الصّبر. وتُذرف الفواجع من :أجل خاطره

"أُدرك أنّ لديكِ عقلاً متوازنًا وعاطفة"

سريعة الغضب، غير آبهة بحيله في استجداء عطفها، أشاحت بوجهها وألجمته قائلة:

"لنفترق. بالّتي هي أحسن"

انعقد ما في حلقه من كلمات.. كلماته، الّتي لن يقولها، تستحيل إلى التهاب شديد في الحنجرة، فهو رجل يرتضي أن تتآكله الكلمات قصد أن لا تخرج فتجرح الآخرين وتُسبّب لهم آرقًا مُستدامًا يُفجّر أعصابهم.

استوى في مستقرّه. رمقته هي بنظرة مهزوزة. أدرك بأنّ الحديث لا ولن يجدي نفعا فرغب أن يستبين مآل الأمور..

قال:

"لم أُطلق أحكامًا على ما مضى في عيشك. ولم أكن سلطويًّا"

"ما حدث بيننا كان عاجلًا. لم أتمكّن من معرفته. كنت على شيء من العوز."

النّاس، يقولون أحبّك إلى الأبد، ويبدأ هذا الأبد في التقلّص حسب المواقف الّتي تستنفد مستوى الحب.

وترامى إلى أحضان العدم يستجدي بمرارة:

"أجهل ما بي، ولم أعد أعي شيئا، لم أعد أدري أين حقيقتي، غليان ذهني يتصاعد مع تتابع الأيام، كتلة القهر عالقة في حلقي تأبى الخروج، تزداد اتّساعًا وتزداد اجتياحًا... أتوسّل إليكِ لا تتخلّي عنّي"

تُلاحقها رغبة في شيء لن يُراد له الحُدوث، فهي لم تعد تُريد نوال شيء، كل الأشياء الّتي امتلكتها أسفرت عن ما في باطنها واستحالت زيفًا مُنتفضًا في وجهها. فالعائلة غدر. والزواج غشّ. والصداقة مكيدة والعالم بأسره خديعة. العتمة مكانها الأثير للبُكاء. العتمة صديقة لا تخون.

"أنقذيني ممّا أنا"

"أنا مرهقة. ولا أعرف الخلاص من نفسي"

"سوف يأتي يوم لن تجديني فيه أبدًا"

"لا بُدّ أن أروح إلى حال سبيلي.. أنا أفقد الثقة في كيف أرى الحياة"

"تموتين في صمت فأموت في صمت فلماذا لا نحيا معًا؟"

انتهى..

حين يخون المرء صديقًا وفيًا، سيخونه كل من يُخاطر بهم، سيكون له شعور بالخيانة حتّى من نفسه

انتهى..

في بُعد آخر، أدرك المُنتهى. لن يُفيد في شيء. لم يكن رائقًا في تعامله مع البشر. فهو، رغم كلّ شيء، يعرف معنى الإخفاق في في كل الأشياء. هذا ما زعزع قناعاته. ارتج بعض الشّيء وسرعان ما غيّر من شُعوره.. ذلك الوجل، يرتئيه؟... يرصده من سائر الثّنايا، تراه يخاتل ويطوّقه، يرتئيه فريسة يسيرة المنال، شيء ما يخنقه كلّما كان مستعدًا لأن يُحسن صنيعًا، كما لو أنّها أنفاسه المتدافعة الأخيرة الكاذوبة؟

لمن سوف يعيش؟ والتكاذب الّذي حصل له التجلّي رفع بينهما سورًا لا ذروة له..

انتهى...

فهو يؤمن إيمانًا راسخًا بضرورة التخلّي عن بعض الأشياء والرحيل سواء كانت مُنهاة أو غير مُنهاة...

كما يشهد الله أنّه لم يكن سببًا في خيبة أو خذلان أو وجع أيّ شخص مهما كانت تفاهة الأمور. وأنّه أوفى بعهوده وإن كانت ليست بالشأن الهام. ولم يخدع أحدًا بزيْف مشاعر. وأنّه كان في معونة الجميع على حساب وقته وصحّته ولم ينل عرفانًا واحدًا من أولئكَ الّذين أحسن إليهم بأفضل طريقة ممكنة. كان واحدًا من أولئكَ الّذين تخلّوا، دومًا، عن حياتهم، قصدَ أن لا يُحدث تصدّعً في بواطن الغير.

انتهى...

"خيرًا تصنعين..لا تأتي يوم غد. انتبهي إلى نفسك."

يجب أن تُفكّر في ذلك. في التمسّك به. لن يعيش بدونها. عيناه حمراء. سوف يبكي.

محادثتهم على وشك الانتهاء...

وانتفى الحديث...

انتهى...

اصطفى الصمت مكان أن يكون مُستمرًّا في مثل هذا الموقف السخيف. ويرى إيّاه يخرّ أعمق من يوم أمسٍ من لسعة السّقم والعقاقير ولاسيّما مرأى من وثق به يتخلّى عنه دون أوهى تشبّث بخيط الحب. وضعف بعد ضعف يغدو أوهن ممّا كان عليه. يظلّ بمفرده في معركة بدأ في خضمها ينحدر إلى قُرص الموت. كان شخصًا لفرط فرادته يتوه من الذّاكرة في زمن تماثل فيه النّاس ما بين والافتراء والقساوة والهجران والأنانيّة...

لم ينتهِ...

كان يتأمّلها وهي تتهادى في مشيتها، فخاطبها في سرّه، وبقيت في مكانها لا تعرف شيئًا، دنا منها وتوهّجت عيناه، واضعًا إصبع السبابة على فمها. أنفاس دافئة تلهث. وطبع قُبلة عميقة على شفتيها، وخلا اللّفظ، لم يبق إلاّ النّبض، و لم يتجاسر أيّا منهما على النطق بكلمة، نبض الحياة يتسابق مع نبض المدينة الواهن، فالمدينة تحتضر ولن يُغيثها أحد من براثن الموت العنيف، فالمدينة تستحقّ ما يحدث لها، فالقدر يميتها تمامًا كما أماتت أبناءها وتركت البقيّة تتخبّط. إنّه الدّفء والرّاحة والسّكينة، ثلاثتهم انفجروا، ثلاثتهم تخلّصوا من أذرع المدينة بعد أن غدت واهنة وعليلة، ثم ضاعوا

كالنّار في الهشيم، لو كان هذا الزّمان بزمان بائعة الكبريت لما قضت نحبها، لأنّ الدفء سيغمرها ولن يطغى عليها البرد، إنّه الدفء والراحة والسّكينة، ولن يلقاها المارة، يوم غد، متحجرّة بعد أن قهرتها المدينة بردا وأماتتها غمًّا، فالمدينة كانت وما فتئت تختم الضياء حتّى لو كلّفها مصرع أبناءها. المدينة تُقبِرُ أبناءها مع سبق الإصرار والتّرصّد، ثم تتراقص وتطوف حواليها وتقهر.

المدينة تحتضر لأنّ هناك من هو سعيد.

ترك رُضاب قُبلة. قام بلف خصرها الرقيق بذراعيه وأسدلت يديها على رقبته، طفق كلاهما يتثنّى ببطء على موسيقى وهميّة، غريبة، غريبة للغاية، لها إيقاع متمرّد، الإيقاع يتحرّش بذاكرتك لتستحضر السّعادة.

أخذت تمرّر يمناها النّاعمة بين شعره الأملس. وضعت رأسها على صدره. وتشبّثت به.

أردف يقول:

"عند شفير الصُدفة

تلاقيْنا

فطاش قلبي

وتهدّم العالم أمامي

عند زاوية الألم

أذرّ حُبوب الغد

في رُكن الخراب

سينبت الأمل

ومعي

هيامُنا سيُهال التُراب عليه

ومعك

هيامُنا سيُرفرف

ويحميه الطّير"

أخذت الصّمت ملجأ لها ومكثت تبادله الشّعور، عالقة في بحر تجمّدت مياهه، خفق قلبها، وكانت كلمة أحبّك كلمة لم تسمعها صدقًا طول حياتها، للحُبّ نوافذ كثيرة كتمها البوح.

لفحتهما رياح عاتية آتية قادمة من مسافة ما، من ذلك المجهول الغامض، إلاّ أنّهما لم يتقدّما قيد أنملة كمسمارين في ذاك الجدار الطويل. مثل جدار يتوارى على خلفيته من يحجب الحياة ويلبس الغشاوة..

أنفاس متدافعة حارّة ممزوجة بالرياح العاصفة ورائحة العاطفة تفوح منها رائحة النيران.

لبث السّواد يشتطّ حواليهما وتتراكم العناكب من كلّ اتّجاه لترشّ خيوطها على أطرافهم. تشدّهم بضراوة. عناكب، عناكب، عناكب آتيّة من كلّ حدبٍ وصوب. نظيرة القدر. كلاهما يرشّ خيوطه ويتلاعب بأيّ كان. دميتان تراقصهما العناكب وتشدّهما كلّما تمازجت الأنفاس المتدافعة. والحال جميل. واللّيل مشتدّ والظّلام دامس، دامس.

تومض المرأة العجوز آنذاك، فداخلها فيض من الغضب. امتقع ووجهها الطّافح بالمساحيق. قلبها المُتحجّر آخذ في الانهيار التّام، يخفق بقوّة مُتصاعدة. جنّ جُنونها إلى حيث لن تعرف أبدًا السّلام.

كان عقلها مرتبكًا و كان لسانها يتماوج، يتمدّد، يكبر ويغدو سيفًا حادًّا ينغرس آذاه في أي مكان:

"بعد كل ما فَعَلَتْهُ لكَ"

خرجت عن صوابها. ندّت منها صيحة مُريعة. رجمته بشراكها السّوداء، شبيهة بشباك العنكبوت البيضاء، واحتوته هالة من الظلام..

همس في أذنها:

"لم أجد من نفسي القوّة على مُجاراة ما بيننا ولست خليقًا لمُواكبة ما سيحدث بيننا"

وما جعلته المرأة العجوز يقول: "أنتِ لا شيء في حياتي.. أحتقركِ لما حدث معكِ"

والقرف حلّ في نفسه..

انتهى...

بغتة نأى عنها شديد الحساسيّة للأصوات. أنتهج نهج الإذعان. وانتقل إلى غرفته يخطو إلى حتفه. يمضي في حال سبيله.. ملدوغ ومعضُوض.. ليس له رصيد من الحظّ. صفق الباب على عقبيه مُخلّفاً إيّاها مسمّرة بشكلٍ غامض في موضعها. مثل علامة إستفهام.. في لحظة الجبن تتخلّى وتبكي.. قامت بإمالة رأسها إلى صدرها وحفرت الأرض بنظراتها.. لا تُطيق المهانة.. وقد هالها عدم اكتراثه.

"لقد حطّمت قلبي"

"لقد حطّمت قلبي"

"لقد حطّمت قلبي"

"لقد حطّمت قلبي"

ترزح تحت وطأة الحُزن، ظلّت على همهمتها.

فتضخّم صوت "ريماس" السّاخر: "الحال رديئة... أبداً لن تنعما بالهناء.."

و مُتطفّلة، إلى ما لا نهاية، تعقّبت المرأة العجوز الّتي لم يسلم من شرّها أحد سير "نديم".

راح كلاهما يُطالع المرآة في وجوم. قبضت ذراعه تقول:

"الليلة.. الليلة.. الليلة"، مُتضرّمة هي هاته العقرب.

مقطوع الآمال، قال:

"دعني أعيش، أو أعطني يسيرًا من الوقت، كي أُتمم ما ينبغي إتمامه، أن أقول ما يستوجب قوله، أن أقوم بما كان عصيًّا ويُستلزم صنيعه.."

تشظّت الحياة إلى قسمين.

قسم يحتضر من حضورها المنعدم، ينتحب ويرتقب غيابها المفتعل.

وقسم ينسج المُؤامرات ويُحيك المصائب.

يغدرك المقرّبون، و في بعض الأحيان، يدنو الناس منك ويرغبون الغوث دون مساعدة، لفظهم مبعثر، وغدرهم يؤذي طبقات من الأذى، ويسبّب ضرًرا إلى مكيال الضّياع، إلى حدّ التخلّي عنهم، إلى نقطة الخسارة، فمن الذكاء أن ترمّم شظاياك التالفة، بغض النظر عما إذا تركتها متصدّعة، لا يهمّ إن تلامح لك مظهرها متشقّقًا، ليس من المُهمّ.. ومن يُلقي بالًا؟

(22)

أقام صديقه الخامس الصّراخ كغيمة مُدلاة في سماء ظلماء غاضبة:

"اكتفينا فكفى"

أليس من الرائع أن ينقضي كل شيء، ويُمحى من الذّاكرة ويُنظر إلى المُنتهى على أنّها أمارة على زوال ماضي ونُشوء حاضرلا سابق له، إنّها لحظة أخيرة ليتفرّس بالأمكنة ويسترجع ذكرياتها بحلوها ومرّها، بلطفها ووحشيّتها، بحنانها وقسوتها، مقيتة هي الذّاكرة، وقاهرة إلى مقياس الممات، أليس من العدل أن توافي المرء المنيّة مرّات في الحياة وينقضي مرّة في الموت ذاته؟

اِنتصب صديقه الخامس واقفاً وتمتم في لهجة قاتمة:

"مُت أيها العقل المشؤوم... لنرقص معا على قبورنا.."

ثمّ أطلق "نديم" ضحكات مُقزّزة أمام المرآة، فقاطعتها الغصص لتعيده إلى واقعه، بين الظّلام وفرط الظّلام، بين السّواد و السّواد القاتم..

كانت "ريماس" ذات الدّسائس مسندة ظهرها صوب الحائط تراقبه في خرس. فأعربت تقول:

"الجنون ليس له حدود، أنا لا أعرف لأيّ شيء يُفرط المجاذيب بالتّساقط في طريقي"

إنّـه يعـدو بـين ثنايـا الـدّنيا المتعرّجـة بمـلء ذُهانـه، أذرع الممـات الممتدّة تُطارد دربه، كان يلتفت بصُورة مباشرة يمنة ويسرة، ينبطح أرضـا ويهتـزّ لمواصـلة هروبـه مـن أذرع الممـات الممتـدّة وأعـين "ريمـاس" الكبيـرة الحاقـدة ملتصـقة بدربـه، ألا يعتريهـا الخجـل مـن البغضـاء المكنونـة لطريقـه المنطفـئ؟ رياحـا عاتيـة أحاقتـه، تجعلـه يمشي القهقرى في حين أنّ أذرع الممات الممتدّة تصبو إليه..

لا يعـرف علـى وجـه اليقـين مـا إذا كـان بإمكانـه العـودة إلـى سـالف عهده..

نظرات اللّيل بلغ منها الجُهد وكسيرة أعظم ممّا ينبغي.

المدينة الّتي لا تموت لـم تعد تحتضر، نبضـها ولّـى راجعا بجسـارة قـاهرة، عـزل كـلّ مـن الحنـان والـدّفء والارتيـاح لتتغـذّى علـيهم المدينة وتُشعّ الحرمان مكانهم..

كانت ليلة صاخبة.

تساقطت قطرات المطر بشراسة ومع ذلك إيقاعها كان جميلًا، فكلّ واحدة تسابق الأخرى، من تراه سيهوي أوّلا؟ أمسى السّقوط مرادا يقتتلون عليه؟ يا لمرارة اهاته اللّيلة وما أجمل وجومها المطبّق على هاتــه المدينــة الكئيبــة ومــا أجمــل رائحــة المطــر، رائحــة المطــر الممزوجة بالتربة الرخوة قد عبقت في الأرجاء، استكانت الرياح

العاتية بعضا من الوقت، فسحت المجال للوجوم المطبّق، حلوة هي المآلات، سواء كانت هانئة، تعيسة أو مأساويّة، فمرارة المآلات الجميلة، عساها تطول وتبقى، وتظلّ المآلات أسلوب حياة يُرضي الجميع.

القصد من هاته الليلة هو إنهاء مسألة الوجود، قال الخامس:

إنّها السّماء..

قد تلفّعت بالضّباب....

والقمر زاغ على مضض....

منيّات لابثة ترتقب وميض التّحقيق أن ينبعث...

عساه يشفق على ضحايا الانتظار....

شاخت الآمال....

القدر أغلق مصرعي أبوابه...

وأضحى السّراب مخيّما.....

لعلّ منيّاتهم ترصد بزوغًا....

وولوج الخيال في معترك الحياة....

فيتمّ إنصافهم لمرّة.....

لعلّ القدر يرأف بهم...

ويُوليهم غيض من فيض....

لربّما يغدر بهم في قارعة الطّريق ككلّ مرة....
و يقذف بمنيّاتهم على خلفيّة لأفق...
فتبتلع...
ليهنأ قدرهم من ذلّهم المستمرّ....

(23)

نحن دُمى تعاني في هذا المسرح،
وأنا الدُمية الوحيدة الّتي ترى الخُيوط على ذراعيها

آلان مور

إلى المُلتقى الأبديّ الآخر

لم أندم أبدًا على حبّي لكِ على الرغم ممّا فعلته بي، الوحدة جعلتني أعيش في سجون وهميّة وهي تشبه ما قاله الشّاعر أدونيس، "أقسى السّجون وأمرّها تلك الّتي لا جدران لها"

وتلك السّجون ما أصعبها ما أصعبها....

اقتنعت بانعدام الأشياء من وجودها... واقتنعت بوجود الأشياء من انعدامها.. وهذا ما اِستقطبكِ إيَّايَ، أمنت في الأخير بأنّ ذلك لا يهم..

أعلم على وجه اليقين أنّ قدراتي لن تستمرّ زمناً أطول وسيظلّ التّمزّق لاذعاً لكِ، لطالما كنتِ تأمرينني أن أُولّي وجهي شطر الجانب الممتلئ من الكأس قبل أن يجفّ، بالحملقة إلى الجانب المشرق قبل أن ينطفئ وهاته المُثُل المحفزّة أكرهها.

كنتِ كفيلة لجبري تلو كسري ومن بعد كسرتي قلبي

كُنتُ بمجرّد رؤيتك أتبعثر إلى شظايا والآن لم أعد أرغب برؤيتكِ ما مدى خطورة هذا العجز وما مدى إجهاد هذا الشّعور، من الممكن أن يستسيغ الإنسان قساوة الأشياء وفي الآن عينه ما كان يمكن لشيء أن يجعله يستسيغ غلظة الموقف ومرارة الحياة الأبديّة، شهدت سقوط شهاب أمسٍ وكم كان رائعًا سقوطه، كان محافظا على بريقه المتّقد وضياؤه رائع كروعة اللاّشيء، واللاّشيء هو مراقبة مصائرنا البديلة في حين يعيشها غيرنا ويشتكي منها لأنه لا يدرك حظوتها في ذواتنا تمامًا كما يراقبنا الآخرون ويروننا نتذمّر لأنّنا لا ندرك حظوتها في ذواتهم، وما أمرّ أن يراقب كِلينا حيوات الآخر البديلة بأنظار واجمة ومرهقة، ماكرة هي نظراتنا، تلمح وتضخّ الوجع للعقل وفي الآن ذاته يُوجّه العقل لطمته الأليمة ويحوّل الوجع إلى نظراتنا فتغدو زائغة وخائرة كما لو أنّنا قضينا الليل الطّويل مثلما نفعل في خيبات الأمل، تكون أجسادنا متعبة بعد أن حملقنا بالسّقف لساعات وساعات، بعد أن حاورنا السّقف خرسا وردَّ علينا صمتا وبين الخرس والصمت لا ننال سوى وجوم الأشياء المحلومة ونفورها منّا كلّما اجتهدنا في تقريب المسافات بيننا، إلّا أنّها تحضر إثر مشوار طويل ونكون أوان ذاك بلا روح لم نعد نطمح إليها كالماضي، ونمكث على هذا النحو ولا يطرأ تغيير

من يأتي على إشارة سوى أنَّ الوضع يتعاظم ضيرا وأنَّنا نجنّ أعظم مما تخيَّلنا، والطّريف في كل هذا أنَّ الحال لا يصفح عنَّا ولا شيئ يشفع لنا تعثّراتنا..

اختلقت من اللاّشيء كل شيء فحصلت على الكلّ من اللاّشيء

كان الصّبر حليفي، أمّا عن البريق الّذي ينبجس من حدقتي دخّرته هو الأخر، احتفظت بأضأل ما أملك لأنال ما أستحقّ، وحالما ملكت كل شيء كنت لوحدي، وإنّما؟ البقاء بمفردك ولديك كلّ شيء أجدى نفعًا من الارتباط بكلّ شيء وليس لديك شيء.

كان في عينيكِ ما لا يقوى على أذيّتي. كان الصدق في أعيننا لا يتزعزع من اهتزاز الأقدار. كانت خاطرة وجودكِ وما قيل بأعيننا سببًا حاسمًا لنفخ الحياة في نفسي. قلبي في حالة سيّئة من وقتذاك وتنفّسي صعب. كُنتُ أستقوي بكِ. فكرة وجودكِ جعلتني راضيًا عن الواقع. كُنتِ الشيئ الآمن. أنشأتُ في تأسيس السّلام مع العالم. لقد تخلّيتُ عن كل شيئ من أجلكِ، وكنتِ سريعة في التخلّي عنّي.

وبحجم حُبّي لكِ كان غدركِ بمقداره. لأي شيئ غدرتِ بي، أكُنتُ صادقًا بما فيه الكفاية كي تُجازيني بالغدر؟

أجهل سبب تركِكِ لي في مواقف أكون منهارًا كليًّا، على الرغم من قُدرتكِ على انتشالي من ظلام سقوطي اللحظي. كما ترين لا يمكنني كتابة هذه الرّسالة بشكلٍ جيّد. رجوتُ شيئًا ضئيلًا ألّا تخذليني. وحُكِمْتُ أن يكون حُبّي هو هلاكي. لا يُمكنني أن أصف لكِ غُبني ومرارتي. كنُتُ محض وسيلة لتتخلّصي من عائلتكِ. أكرهكِ بشكلٍ لا يُوصف.

(25)

تلاشت الحرارة وتلاشى الخوف أيضًا.
شعرتُ بالطمأنينة فجأة.
كان الناقوس الزجاجي
يتدلى على بعد خمس أقدام فوق رأسي

سيلفيا بلاث

وحين أزفت اللّحظة الحاسمة، كانت عيونه طافحة بالهلاك.

وتحت تنفيذ الحُكم كان صديقه الخامس يوسوس له تمامًا كما توسوس له المرأة العجوز:

"حياتك يسيرة المُنتهى"

صريع المرض، أدرك العالم الآخر، ولم يستطع بُلوغه بُلوغًا تامًّا، يرحل رحيلًا أبديًّا، لم يجد مُتّسعًا من الزّمن لكي يبكي، أحسّ بوُجود دُوار مُريع يخنق خياشيمه ويُخرّب بصره، كان على وشك أن يهوي أرضا. يسترشد. تشبّث بحافّة الطّاولة، وراح يخطو على وتيرة متعثّرة لصق الجدار.. ممسكًا بسواعد وهميّه، ذراعاه جد ثقيلتان، يتلمّس طريقه إلى فراشه، اِرتمى فوقه على وضعيّة الجنين، ثمّ تردّى على قفاه، كانت عيناه ف مائيتين في لحظة انصهار للإرادة

الضّئيلة، تضخّمت رغبته بفقدان الحياة وتجاوزت لحظة الموت. الفُصام يُشبه التواجد في بئر مظلمة، لا يسمع من في الخارج نداؤكَ. وكلّما ناديت، يتّسع حجم البئر مثلما تتّسع فكرة إنهاء الشخص لحياته.

بنقصان الانسجام، بفقدان القدرة على أن يُؤقلم نفسه، على المُسايرة، على التحدّث، على التحمّل صرخ وهو يصرّ على أسنانه وأوداجه منتفخة. كان يُقاوم. يُصارع قوّة مرضيّة خفيّة تُسمّى "ريماس". حالة أبيّة الشّفاء. كلّما قاوم شعورًا عميقًا بأن لا يوجد، أصرّت المرأة العجوز على تعزيز هذا الشعور. أن يتشهّى أن يكُون منزوع الروح. أن يكفّ عن هذا الوجود. ألّا يُحبك قدره. لن يجيء شخصٌ لإنقاذه. ومع ذلك لن يكون مطيعًا بعد الآن. لن يكون خانعًا. كشيء شيطاني مُدمّر ، طفقت المرأة العجوز تسحب الأسلاك السّوداء المنبثقة من قذالة رأس "نديم". كان الأمر اختراقًا أكثر ممّا هو مُشاهدة. تسيح دُنياه نصب ناظريه سوادًا لزجًا. صعّد بصره. وجعل نظره رأسيًّا إلى الأعلى، في السّقف. يضؤل "نديم" ويختفي كدودة سحقها عابر له فكر مُشوّش، يتلوّى على مستوى متفاوت

تعملق صوته إلى أن أصبح ثقيلًا:

"دعيني وشأني"

"سأدعكَ ساعة أشاء"

تعاجز رهيب يتعمّق في أغوار لا قرار لها ، تتماهى الصّور في ذهنه من قلب الظلام.

كان عقله يستحضر كل ما يجعله على قيد المقاومة: "اعتني بنفسكَ و لا تُساوم عليها ولا تُخاطر بحياتك. أنتَ لستَ للمُراهنة ولا للمُفاوضة ولا للمُخاطرة. متى ساومتَ على نفسك، ساومتَ على حياتك"

بوجهٍ علاه وجع كان صوته قد تبدّى أقلّ إمتلاء:

"دعيني وشأني"

تفاقم عجزه. الأمر كثير. غدا كل شيئ أكثر فجاجة. يمضي إلى ذهنه أنّه في حالة صحو داخل حياة كابوسيّة مُرّة.

السّاعة تدقّ

نكرة مثل لعنة. بدون إسم كالعويل. يندّ عنه قذف عصبي. يكاد يُلامس قلبه أرض لم تتبيّن قدماه لمسها. ما بين التوهم والإقصاء ينضب ماء الحقيقة وبين الخيال والجنون والمنطق، تتلاشى الروح. سقوط رهيب يتوعّد بارتطام كارثي. كان جليًا أنّ جثّة مُؤنّبة ملقاة في أواخر صفحات رواية لن يُفهم من صفحاتها عدا ما كان الكاتب

يرغب بإدلائه. بقي على تجمّد ضبابي. ظلّ على يقين متذبذب وشكّ مستقر. ليس الأمر كذلك. كلّا، ليس الأمر كذلك. النّهاية أوّل من تشهد بذلك. هنالك أصوات تعيد له حقيقة ما سيحدث تعيد إلى الواقع ما سيحدث. وهل من المحتمل أن يلقى حدفه بإرادة مرض لا يُحجم عن افتعال الخبائث؟ لا يمتنع عن ارتكاب الأخطاء؟ يتسلّى بتدميره. عمّا عساه أن يُقدم على فعله كي يُلقي بكمّ الخراب المحشو برأسه. وضرب القدر يدا بيد فنزف العقل وبين لحظة وأخرى تشكّلت المرأة العجوز من عدم الكون ومن ضيق الصبر ومن هوان النّفس. وعلى الرّغم من شواش ذهنه تفكّر في كيفيّة أن يُغادر المكان برقًا.. أين العنوان؟.. أين العنوان؟.. غير أنّ «المرأة العجوز» جحيم العقل له بالمرصاد.

صُداعًا دائمًا بمرض يكاد ينتهي. فجأة اختفت مخارج العقل الدُوديّة. الأبواب انغلقت، تحجّرت. بحث عن الأمارة الهادية. للإنسان رادار حسّي له أن يدرأ طُفيليّات أحاطته. الخيال هو الوجه المُعاكس للجنون. سيجد مفرًّا إذا كان يعرف كيف يستخدم خياله لمُواجهة جُنونه. للخيال احتمالات لا تنتهي، بما في ذلك الهروب والبقاء والخلاص. ثبت فيه بما يُشبه الاختناق. عاودته رغبة بالقياء. استدعى مكنوناته. ومضات الماضي مدقوقة كرياح قاصفة للذاكرة.

والقادم شلّال من ظلال تُخفي مقادير الشرّ. تبدّت هواجسه حقيقة لا زيف فيها وواقع شيئ منه. وهذا كلّه إشارات جسديّة تنمّ عن تضرّر جسيم حدث للعقل.

:تبدّى الصوت ملحاحًا

"كم تبقّى على الموت؟"

انصهر اتّصال الصّوت. تمزّقت المرأة العجوز إلى أن كانت حقيقة أعصاب تالفة تقتضي المُعالجة السرمديّة. كان عقله بارزًا. جهارًا نهارًا. كان مُقزّزا، مُشوّهًا، ينتفض ويخفق خفقان رجاء الإغاثة. مثل بُندقيّة مُلقّمة تنتظر الطّلق. لم يتجشّم قباحة ما رأى. أخرج إعصار من قياء كبحر ينعكس على سطحه سماء غاضبة. المُقاومة لن تُساعده كما يُخيّل له. وحده الخيال قادر على خلق منافذ النّجاة. الخلاص هو نقطة مُضيئة في طريقها إلى الخُفوت. انفجر العقل كأصابع ديناميت نابضة. اندلقت أحشاؤه وتلطّخت بجدران ضاحكة. تقولبت رُفّاته إلى ذات العجوز. أقبل صوت "ريماس" كمعاول خانقة لسُكون لا يتحقّق. أنشأت تحفر برأسه أشياء كالخُمول والضعف والأسيّة. تسعى إلى زيادة تعطيب دماغه. شيئ من الصّدأ يستلّل إلى الدّاخل. يفسد المنطق. يُحجّر الحواس. يقتل الإدراك. تضيع منه كل مقدرة على التعقّل.

.. الوجه محموم
كان يركن حول نفسه كلّما تعالت بين أستار العتمة وشوشات ينسحب السجّاد من تحته ويتركه ساقطًا في فوهة أنا لا أستطيع مُواجهة عقلي، قدري. داخله صوتًا مُفرقعًا يشعر بالضآلة. يُمارس الاستخفاف. يئن مثل أبواب مُقفلة. الضّباب الغامض اقتحمه. يُفسد ما تبقّى من عقله. عضلاته تنقبض وتنبسط. يأكل نفسه. ارتجف حتّى قاع أحزانه. يرعد دعوة إلى الأمان. ينتفض مسعورًا وينطح الحوائط كمن أبرم عقدًا مع الشّيطان منح فيه عقله لقاء نسيان ما يريد أن ينساه. وكان لارتطامه صوت فراغ محشو بضياع ينتهي بانقطاع الأنفس.
اللحظة صامتة.. صامتة.. والوحدة بحر من التمزّق.
ومن فرط ما شعر به من خوف قام بسجن نفسه في رُكن متروك مظلم من عقله. لم يكن هُنالك سوى الصّفير والأنفاس تعلو وتخبو بكمّ الرهبة المُستنزفة من صدره. كان الألم يربو. وفي مثل هذا الارتجاف، يأمل المرء في الموت الخفيف، ورحمة في الروح. لينتهي ألم يشبه السُم. العالم الّذي يحتويه مُعقّد مثل كعب اللون. يكشف كل لون عن فكرة أو صورة أو أغنية أو هلوسة. بين ثانية وأُخرى يحدث تغيير مُرعب في مركز أعصابه.

استقرّ على حقيقة أنّه في مواجهة قوى لا يملك لها ردًّا.. وهذا أكثر ما كان يُحزنه، ألّا يكون في أعماقه عاصفة من الردع تسقط كسقوط مقصلة على عنق الخاطئ. سارعت ذاكرته إلى نقل ما تحشوه من قذارة إلى صورة واقعيّة.. شعاع خفيّ بدأ ينطلق من قيعان عينيه. ثم فهم. الصّدمة هي واحدة من الأسباب الّتي أفضت إلى ما هي عليه الآن. تراكم بالعقل عذابات وقاذورات أدهشت خلاياه وعرقلت حركته. وأخيرًا، عرف لأي شيء تُلازمه هاته المرأة العجوز. لم يكن قد لاحظ ذلك تقريبًا. إنّها مرض لا بُد للمرء أن يطاله. تصاعدت أعمدة من الرأس المحموم. والأعمدة تشابكت. الأعصاب تتقيّأ صدمات بثقلها الموحش. استلقى على الأرض يتصبب عرقًا. أحجمت السّتائر عن الانتفاخ وانبسطت في موضعها. والباب الملحاح لم يعد يُفتح ويُغلق. اِستشرى فيه حقل من البُخار البارد. يزفر أنفاسًا بيضاء في الجو الطّافح بالأوكسجين. وفجأة اختفى كل شيء وشعر بالهدوء والسكينة وصفاء الذهن. كان حُرًّا تمامًا غير أنّ كل ما شعر به كان مُريعًا. إنّه لا يعرف متى آخر مرة كان فيها في مثل هذه الطمأنينة. عَبّ نشقة هواء مديدة وألقى نظرة نصرًا على المرأة العجوز بينما تبتعد وتكاد تختفي، كانت ترنُّ حادّة مُجدّدًا.

خديعة النّفس

نحنُ نسعى لأن نتجنّب الألم أكثر من سعينا لأن نجد السّعادة

فرويد

(1)

إنّ من بين ذكرياتها البكر الّتي تسكُنها هي الذكرى الكُبرى الّتي كانت في أسعدها. مثل قطعان الطيور تطغى عليها. لقد تمكّنت حقًا من نسج مسار يأخذها إلى كل أحلامها. تعمل مُحرّرة أدبيّة في إحدى دور النّشر التونسيّة الكُبرى. لديها زوج رائع. بيت صغير- يشعُّ قويًّا- في الضاحية الهادئة. جيران لطيفون. تقطُن بمدينة فاضلة. لديها كل شيء يمكن أن تحلم به أي فتاة في العالم. كانت سعيدة حدّ نسيان ماضيها. حتّى ذات يوم لم يكن لديها أي فكرة عمّا سيحدث. كانت في مكتبها تُقلّبُ أوراق رواية معنونة "بنات النّفس". تفكّ ألغازها وكتمانها. مفتونة بشخصيّة المرأة العجوز "ريماس" الّتي تسكنها الضغائن. كانت على وشك الاتّصال بالكاتب لبدء العمل معه على الفكرة وتنقيح النصّ. بدت من الأعماق غافلة عن رنين الهاتف ذلك من غرابة ما كانت تقرأه.

السمّاعة على أذُنها كما تفعل:

«تعرّضَ زوجكِ لحادث مُرور»

باغتها المُتصل بخبر مُتوحّش. زلّت يدها جزعة. تركت الهاتف. مُتسائلة تتأمّل ضيق ما قيل لها. في شرك الصمت أصبحت. رياح الفجيعة تهبُّ لتسلب منها بفكّيها السّعادة. يُرغي الدمّ في أوداجها. وَوُلد في نفسها اليأس المتّصل بالهدوء الأبدي. ران الصّمت لمدى زمني. تصرخ ولا تشعر بالصّرخة. تتواجد في عالم قصيّ عن الوجود. تفتّش عن المعنى في الرّمادي. مقصّ مفتوح هي أمام ماضٍ. تبحث عن قطعه. وشيئًا فشيًا. تأكل نفسها. وتكاد تتلاشى.

ليس من السّهل أن تُهديها الحياة مصائبها دُفعة واحدة. وليس من السّهل أن تقع في كمين في أوج سعادتها. فمن المُكر أن تلدغها الحياة وتنقضّ عليها بأنيابها الشّرسة كالثُعبان الجائع. وليس من السهل شفاء ما تمّ عضّه بالداخل. في البداية، لم تدرك أي شيء. اعتقدت أنّ الصّدمة قد جرشتها. ويشتدُّ نبض اليأس بحجم خُسرانها. شيء ما أعطاها نبضًا. هذا النّبض ليس نبضها، إنّه نبض أحد القُدامى الراحلين والحياة قدّمتهُ لها، سواء كان هذا النّبض جيّدًا أم سيّئًا. كانت تمشي في الممرّات مُتعبة، برِمة. أي شيء يتبع

الفجيعة، وهذا الحداد؟ حيث يلفّها الرّماد والغُبار والأتربة. ملامحها لن تُرنّم كلّما تضوّأت الصّباحات في الخارج. يعتريها شُعور أن صدمتها هي الأشقّ، لكن ذلك الشّخص الّذي ارتطم بكتفها، في حين كانت تمدّ يدها لطلب سيّارة أُجرة، يحمل صدمة أعتى من صدمتها، والكآبة تُخفيها.

تنبتُ العُقد من صدمة نفسيّة
ثمّ ينسى سبب الصدمة
ولكن العقدة تظلّ حيّة في نفسه

فرويد

(2)

في تلك السنة، سنة ألفين وأربعة عشر، جنحت الشّمس إلى الغُروب. عرجت "نور" على بيت عائلتها. مُحبطة ممّا كان يحدث في الخارج. رأت العجب. أخذت اعتياد على هدوء المدينة. كان لا بُدّ لها من سحب واستلقاء. في كل مرّة تُغادر فيها عتبات بابها، يغرق رأسها في بحر من الضوضاء والاستياء. أفعالها تتغيّر. توثقها قيود رفيعة تمنعها من التصرّف بطريقتها الخاصّة. تسحبها من أعصابها. كما لو أنّ شخصًا ما كان يلعب بعقلها أو شيء من هذا القبيل. كان بيت العائلة دوّامة، مُرغمون هم على عودته. متى سينتهي جُنون العودة؟ وضعَت الأكياس في المطبخ. جذبت كأسًا من الماء بجُرعات بملء الفمّ لتليّن جفاف حلقها. تساءلت لماذا هي هُنا؟ تظلّ تعود إلى هُنا؟ أم أنّ الممرّات الّتي رسمتها المدينة، بعد حادث زوجها، لم تترك لها أي خيار آخر؟ أمّا هذا المنزل، فهو ليس منزلها، والحياة التي أضحت تقودها ليست حياتها. ذهبَ بها التفكير، في كلّ مرّة تتأخّر فيها عن العودة، أنّ والدتها في حالة من الفوضى وأنّ صوتها أجش. ومُترامية الأذرع تُعانقها. يُخيّب رجاؤها في وقتٍ لاحق. وتُذبل توقّعاتها في كلّ مرّة، حتّى لو تأخّرت نصف قرن من الزمن، فلن يُلقي ذويّها بالًا. وإن زاغت عن رجوعها

وضلّت طريقها؟ فلن يشعروا بوزنها. تعرف ضمنًا أنّ العراء المُتقلّب سوف يجتلبها بين ذراعيه. وتضيع فيه. إنّها جامعة الأنقاض. ما لُغز أن لا يهتمّ لأمرها أحد؟ وما حصيلة ما حدث بالفعل؟ متى ستنقطع عن عالم تُعدّ العدالة فيه جريمة؟ والأحلام كوابيس، والأيّام أبديّة، والحقيقة أُكذُوبة؟ هو ذا الجُنون، النّاشئ من هنا والمُتعلّق بما هو غير مرئي بالوُجودي. ومن هي في ظلّ هذا الوُجود؟ أليست فردًا من بين ملايين البشر. تبخّرت مثل الأتلانتيد. لن يُؤثّر غيابها حتى لو طال. ومن سيُجيب على هذه الأسئلة؟ والمدينة تطنّ، تُريدُ أن تقطفها. لاحظت أنّ السّكينة تتمدّد في البيت مثل الأضواء السّاطعة. نظرت حولها بكثير من الإستياء، كالحدّ الفاصل بين السُكون والصرخة. نادت والدتها، فأجابها المُنادى بصوت مذبوح، وبلغ مُستوى الجُهد.

«لا أستطيع التحرّك»

تمضي إلى مكان الصَّوت والعُيون مُنتفخة، مُرتجفة، ومُلتهبة. تَجدُ والدتها مُنبسطة على السّرير، غير قادرة على النُهوض. كانت المرأة العجوز "ريماس"، في الرواية الّتي باشرت "نور" بتحريرها، مُتربّعة على الأرض، تسكبُ "جميلة" بحُبَيْبَات داكنة ومُريبة. تُضعف همّتها. تُعطّلُ عزيمتها. تُبقيها في حالة من الترنّح وألم الجسد.

تُبقيها مُعلّقة في منزلة جوفاء. تتطلّع أن يكون الجميع طوع إرادتها. يرين الشرّ على كل شيء.

«ما الأمر؟»

«مُتعبة»

«هل ضربكِ كما فعل من قبل؟»

«لا شيء ممّا سبق»

«أرجو ذلك»

عند مدخل المنزل، اكتشفت سجّادة رماديّة اللون. كان هُناك شيء كثيف يتربّص تحتها. متى تقدّمت للأمام واتّخذت بعض الخُطوات غير المُتكافئة، حتّى ارتجفت قدميها مثل شلّال. أصبح جسدها كُلّه مُتيبّسًا. فقدت الوعي أوتوماتيكيًا. تدحرجت على خدّها بصوت مُمَزّق ومدفون، كأنّها مُعلّقة في الفراغ.

«لا يُوجد شيء من هذا القبيل»

«قالت والدتها بنبرة مُؤلمة وجعلت الأمر في مجمع أعماقها. لستُ واهمة»

«محض إرهاق»

أعطتها والدتها نظرة مُشفّرة. قالت وهي تُحدّق فيها بأمل يتلاشى:

«تنُّورة قصيرة عارية؟ في دار نشر كبيرة ومُحترمة؟»

«دار النّشر لا تهتمّ بالملابس، بل بالأفكار»

«أيًّا كان ما تُريدين»

لم يكن لها مُتنفّس كي تُفرغ فيه حُمولة من القمع المُتّصل. سأراكِ «لاحقًا»

(3)

تقضي الليل بأكمله في قلب دوّامة التنقّل بين الكنابيه والكُرسي الهزّاز. أهدابها المُتعبة تُطبق على عينيها مثل إيقاع الموج. تغفو خَرِبَة. بجُروح عقليّة عميقة وعقيمة يلذّ لها-من حين لآخر-أن تترك زوجها "نديم" بمُفرده حقدًا عليه. ارتأت أنّ سلوكها الفظ كان قويمًا. أصبحت أكثر بُؤسًا بالقُرب منه. هل تفتقر إلى الدافع كي تُحبّه من جديد؟ لوجوده في هذا البيت إزعاجًا. جعلت له امتياز الصفر. كان زائدة على الدُنيا. ما أكثر الأشياء الّتي سيفعلها لو توافرت لديه نعمة أن يمشي؟ اكتسى البيت بالاتّصالات غير اللفظيّة. مع وفرة الحزن. وبتمام نُفور. وبتقزّز من مُغريات لهفة الوصول إلى الآتي والرّغبة في البقاء بين أحضان الآني. ربّما هذا الآني أقلّ ضيرًا من الآتي.

خاطبته وقد شرّعت بُؤبُؤين بلهاوين «تبدو بأحسن حال اليوم»

كان "نديم" مُرتديًا بيجامته مُتّكئًا على سريره. يستريح رأسه على وسادة من الريش. غريق في اللاإدراك. ينظُر إلى فراغ الوجود بأعين جوفاء. ليس له على الإتيان بحركة. يُفكّر في العُمر الّذي ضاع بجانبها. أوْلته "نور" بظهرها. دنت من النّافذة المُشرّعة. عينيها تتركّزان بإجلال على ضوضاء المارّة. كم تحسد غبطتهم. هذه

الكراهية الّتي بدأت تحملها تُجاه المدينة. كل شيء حولها رتيب ومُبتذل. ومع ذلك، يجب أن تجعل لحياتها شيئًا يستحقّ الذكر.

قالت مطوية اليدين «يا لها من حياة جميلة في الخارج»

نظرت إليه مُسترخية، بنصف التفاتة، واستزادت في غبش التفكير:

«أنتَ محرومٌ من كلّ هذا»

ألقى نظرة مُختصرة عليها. بدأ الاستياء يتلألأ مثل اللهب الدائم. متى يُفكّر في وضعه، ينزف قلبه كبطيخة مُفلطحة بشكلٍ مدوٍّ. ينثني رأسه وكأنّه يتوقّع سُقوط مقصلة على رقبته، حتى تعتنق الرُوح حُريّة الانفصال عن الجسد المُتضرّر والمعطوب. كان على دراية بهذا الشعور. الشعور بالعجز والإرهاق وعدم وجود ما يفعله. الشُّعور-كذلك-بأنّ لديه الكثير من المسؤولّيات للقيام بها. الشُعور بأنّه لا يُمكن لأحد أن يلمس دواخله ويشعر بما يشعر به بالفعل. هذا مُروّع، بالتأكيد، فظيع حقًا.

رفع رأسه -مثل طفل- يُحدّثها بقدرٍ كبير من التحوّط:

«أنا لم أرغمكِ على البقاء معي، يُمكنكِ المُغادرة»

«آسفة لقد تلفّظت بحماقة»

«يجب على الأقل أن تُظهرِ لي قدرًا من الاحترام والامتنان»

تجاهلته. أسندت رأسها إلى أسفل النافذة. وانصرفت إلى قذف فُتاة الخُبز للحمامات. عندما يتألّم من كلماتها، يستذكر الأيّام الّتي كان فيها زاخر بالحيويّة وعلى أحسن ما يكون. تلك النهارات-لا شَوْبَ فيها-يقضيها في الخارج بين نسائم قُطنيّة تُداعب وجهه. ولا شيئ كان يُعكّر صفو عقله. رجائه الآن أن يكون بعيدًا عنها. يصرفُ ساعاتٍ يُخمّنُ طويلًا في كلّ هذا. وعلى الرغم من كل ما مرّ به، لم يفقد شيئًا من لينه.

انجرفت الشمس نحو الأسفل، غاربةٌ. حلّت الظُلمة الدائمة. كم تخاف الليل. الخوف الأسود يكاد يبتلعها تقريبًا. جلست على طرف السرير. أُطلق صرير حاد. وكانت هواجسها كأقزام مُهتاجة تشدُّها. كان لديها شُعور بالشفقة.

قالت تحت النُّور الشّاحب «سأعدُّ الأكل»

«لستُ جائعًا»

«ستأكلُ رُغمًا عنكَ»

أضحى طعامه باهتًا. فقد شهيته في الأكل. إلى أن فقد الوزن الكثير. وبلغ به النحول مبلغًا. رقّت عضلاته. نتأت عظمتَاه. بات ضامر الجسم. تهدّلت بشرته. استطال وجهه الّذي كان مُستديرًا. وقبع في هشاشة كاملة. المُسكّنات تُؤذيه بشكلٍ كبير. أصبح مُدمنًا لها. كما

أنّ "نور" تظلّ توليه فيتامينات لم يتم صرفها له. لا تأخذ-في كثير من الأحايين-بمشورة الطّبيب. تُؤمنُ بأنّها عارفه وجديرة بتطبيبه. وأنّها على شيء من المقدرة على إيجاد دواء لكل داء.

(4)

إلى مكتبها تصل. تستند إلى النّافذة الصّاقعة. ألقت بصرها بين كُهوف المدينة. تتطفّل على أسرار شاحبة. كرّرت جُزءًا من الرواية ستعمل عليه مع المؤلّف. كانت المرأة العجوز مرضًا لا ينتهي وإصابة لا مفرّ منه. مثل حريق هائل يُلاحق موجات الصّدمة. كاسرة لا يُشغلها شاغل ولا تهتمّ بشيء. تجدها مُستلقية على كُرسيّها. ترصد الجميع وتغرسُ الأخطار والرُعب في أذهانهم. كانت الشّيء الوحيد الّذي له تأثير الخراب والهزّ والموت. جهنّم حمراء. سوداء القلب. فهي الكائن الأكثر سطوة. ذات قلب لا يشفق ولا يلين. تقوم بقهر الجميع. تُؤلّب النّاس فيما بينها، كما يحلو لها. تُمارس هيمنتها. نظيرة بالشرّيرات البدويّات اللّائي ينبشن بحيوات من حولهنّ ليدسسن فيها أشياء رهيبة تُلحق عظيم الضّير والأذى. على شاكلة الطّاعون الّذي يفتكّ بالحيوات دون أن يقف في مُواجهته مُقتدر.

«قالت ألم نلتقِ سابقًا»

ردّ الكاتب «لا أعتقدُ ذلك»

«يُسعدني لقائكَ»

«لي الشَرف»

كانت إنطباعاتها الأولى عنه أنّه مجنون، لكنّه لطيف ويُحبّ اللهو كثيرًا. عيناها مُثبّتتان على النقاط الّتي توُجد فيها الإسقاطات. كم سيكون الأمر سهلًا إذا قال كل شيء في جُمل مُقتضبة.

ردّ الكاتب «أنا أقوم بالابداع»

ندّت عنها ضحكة خافتة «وما الغربب في ذلك؟»

«حاولي مُشاركة هذا الخيال معي»

«إنّه أيضًا عالم غير معروف، لم أختبره من قبل»

«ركّزي تفكيركِ على ما أقول»

«لا تقلق بشأن ذلك»

على سبيل التخيّل تعتقد أنّه من المُمكن إلقاء نظرة فاحصة على العالم الّذي يرغب الكاتب في نقله إليها. هذا البهاء الكبير من كلّ نوع وشكل. ليس ذلك فحسب، تشكّل لديها انطباع بغرابة الكاتب. استمرّت في محاولة اختراق الأقسام الشرّيرة من الرواية. بالنّسبة لها، كان هذا مشهدًا من عالمٍ آخر. وبكثير من التفجّر تمتدّ إلى كُهوفه. تشعر-في انتباه ويقظة-بمُتعة فائقة.

«لا أنصحكِ بمُحاولة إكتشاف أكثر من ذلك»

«وماذا في ذلك؟»

«لن تخرجي منه سالمة»

يصعب تصديق ذلك. مُحاولة داهية-من قبل كاتب مبتدئ- لتخويفها. كل الروايات تُمثّل جانبًا من جوانب الحياة وهذه إحداها. أعربَ قائلًا أنّ الأشياء الّتي يخافها رأسها، يجبُ أن تراها- في نهاية الأمر-رَأْيَ العين.

«ما تخافينه يقع في مجال رؤيتكِ»

«ليس لديّ ما أخافه»

«لدينا جميعًا عُقدة مُنذ طُفولتنا»

«أنتَ مُحاور مُرواغ»

«وأنتِ مُحرّرة أدبيّة حَذِقَة ومُصمّمة»

«مُصمّمة من أجل ماذا؟»

«عن رؤية ما تخافينه»

شرحت له- في النّهاية- بشكل كافٍ أن مُهمّتها تكمن في التعبير عن المعنى الّذي يجب نقله، أي أنّ غالبية الروائيين-وفي أكثر الأحيان- يُركّزون على الفكرة وينسون الكتابة الصّحيحة. وأسلوب روايته يُشير إلى أنّه غير مُبالٍ بالكتابة الجيّدة. سيُنتجان النصّ بأسلوب احترافي مُختلف. نظر إليها المُؤلّف كما لو حُكمَ عليها بالإنتقال إلى الظلام.

«سأُساعدكَ في تحرير روايتكَ التالية قبل عرضها على لجنة القراءة

«هذا كرمٌ منكِ»

«هذا واجبي تُجاه الشباب. كِبار القلوب وحدهم يُشجّعونكَ على أن تُصبح كاتبًا»

حكَا لها عن تجربة نشر سابقة. كان صاحب الدار أستاذه بالجامعة. كان مُتسلّطًا. ويُهينه متى شاء. لم يُوقّع على العقد. فهدّده كتابيًا بسرقة مخطوطة الرواية.

قالت«وبعد؟»

«افترقنا بسلام. درّسني في السنة التالية. أسند لي أقل عدد في الشفاهي ونلتُ أفضل عدد في الاختبار»

«الأشخاص ذوو القلوب الكبيرة هم من يُشجّعونكَ على أن تصبح كاتبًا»

(5)

تتناوب الأسابيع، كما فعلت من ذي قبل- تدور السّنة دورتها- وأتمّت يومئذٍ رسميًّا التاسعة والعشرين. كان للمرض مظهر سخي. ظُهور تجبّر بالأجيال وبالأشياء السيّئة. شيئًا فشيئًا، تفقد قُدرتها على الانتباه والحفظ والتّركيز. أصاب تفكيرها مُرتبكًا. تشعر بضُعف عام أنهك ملكاتها العقليّة والجسديّة. كان من الصّعب إنجاز الأُمور، ومع ذلك كانت مُصمّمة على الالتزام بما وعدت به. ستُواصل روتين شقاءها على الرغم من أنّ الطريق على شفرة حِلاقة. كان لعزيمتها صبرًا. لكن إلى متى؟ كانت تُقاوم. ومع ذلك فإنّها تنطفئ. مُرتعبة من كونها ستحترق في ساعة السهو. مثل المصباح الّذي يُومض ببطء-ومن ثم-ينفجر ويأتي الانتهاء.

قالت والدتها «ما الأمر؟»

«أنا مُتعبة»

«أعاينتِ طبيبًا؟»

«كلّا»

«لا تبقِ على هذا الحال»

«ماذا عنكِ؟»

«أمري من أمركِ»

ردّت وقد كانت عائمة في فوضاها «كل من الأم وابنتها مُتعبتان»
في الكثير من الحالات يستحيل النّظر إلى الأشياء إلّا من زاوية مُشوّشة ومُعقّدة. أضحت أحبّ ميلًا إلى العُزلة-هي الأخرى-ولم تعد راغبة بمُلاقاة أحد. تُعاني من معضلات وظيفيّة في العمل، في البيت، وفي المجتمع. تجدها بين لحظات لا تمسّ واقعها وتغرق في عالم لا يُشبه أي شيء رأته. كالعالم الّذي أخبرها عن الكاتب. لقد اعتبرت نفسها فكرة مأساويّة أو أغنية مشؤومة. الطبيب العام الّذي باشر حالتهُمَا صيته مُمتاز. أجرتا بعض التحاليل الروتينيّة بين الصمت والإنزعاج.

لديكِ نقصٌ حاد في الفيتامينات «شبَّكَ الطبيب يديه تحت ذقنه وخاطب "نور"»

صرف لها حفنة من المُكمّلات الغذائيّة. أمّا عن والدتها فقام بإحالتها إلى طبيب كلى.

خلصَ إلى القول بلهجة مُطَمْئنَة:

«الموعد القادم بعد شهر»

صافح "نور" حتّى مدخل الباب. وضعت دستة من الأوراق النقديّة من فئة خمس دنانير على الكونتوار. كانت مُستاءة بشأن حالة أمّها الصحيّة. باتت لحظات تخرّ فيها أعصابها. بدءً بركل نفسها من بين

الطُرقات والوقوف على شُرفة النّافذة-في مُحاولة منها-لإلقاء نفسها رأسيًّا إلى الأسفل. عِلاوة على ما سبق ذكره، تمكث، طيلة الوقت، لصق شبابيك البيت، مع همهمة نشطة ومُتّصلة. تتفكّر في خُصومها الّذين سينالونها. لا تُحجم عن إحصاء أي شيء. تصبح فجأة بخيلة وإتّكالية. هُجوميّة وجبانة. يتبدّى لها أنّ أجزاء وجهها قد اختفت. لا تُبصر. لا تَسمع. لا تَتكلّم. لا تتنفّس. يقطر قلبها بلاهة وغُبنًا. تُخاطب حشرات كريهة وتأخذ بمشورتهم. تتحاشى مُلاقاة المُؤلّف خوفًا ممّا سيخرجه من دماغها. كان مُرعبًا من كون المرأة العجوز "ريماس" دائمة المُشاهدة لـ "نور" في كل ما تفعله. لا تتركها في حال سبيلها. تلتصق بها كما تلتصق الحشرات السوداوات بالكلاب لامتصاص دمائهم. تُزاول عليها فن الاختراق والمُناورة النفسيّة. تنظر في معظم مهام حياتها-وخاصّة شؤونها الخاصة-مثل الاستحمام وتغيير الملابس والأكل والتبوّل والبُكاء الهستيري. كلّما أسهبت النّظر إليها، كلّما شعرت "نور" بضعف عام يغزوها. تخترقها بعينين مُتوحّشتين لتمرير الطّاقات السلبيّة. تقوم بتغيير مجرى الحقائق وتعقيد مفاهيم الكون. تُحاول بتدرّج إخراجها عن مسارها وإرباك أفكارها. تعتمد المُضايقة الفكريّة لتستفرد بها في ركن ضيّق. لا تفهمُ شيئًا ممّا يدور حولها. تحشو عقلها بترّهات

غير منطقيّة. تعتمد الإرهاق وتدفّق الأفكار العبثيّة والسّخيفة. تُنيرها بحقيقة كم هي ضئيلة في أعين النّاس، وأنّ ما حصل لها في الماضي لا يُسبّبُ انفجار العالم ولا يلفتُ لحظات الصّمت والبُكاء. تُقدّم إنذارات مع مُمارسة الضغط النّفسيّ وأنّ الوقت ينفد. لماذا ينفد؟ لا تدري. تُلزمها بمُهلة قصيرة لتتّخذَ قرارات مَصيريّة. تستخدم الحيلة المُتمثّلة في مُناداة اسمها في كل كل شيء تضعه في أذنها لتجذب انتباهها على نحوٍ أكيد. انقضت أيّام عديدة استعادت فيها عافيّتها. طُرِقَ الباب وكان المُؤلّف. كانت تُثرثر معه على عتبة الباب وقد نسيت آداب الضيافة.

«زارتنا البركة»

«وأنتِ محلّ كل بركة»

وكأولويّة مُطلقة تترى دقائق التّرحاب بالحلاوة والطّلاوة. شرعت –على جري العادة– في صُنع الشاي، مُمسِكة بمخطوطة الرواية في يدها، تاركة له مجالًا للتعرّف على "نديم". حان الوقت ليتقابلا. ولم تُمانع–إذا أراد –حتّى أن يُلقي نظرة على المنزل. دلف الكاتب دافعًا الباب الغُرفة بوركه.

«أسف لقد دخلتُ بفضاضة»

نظر إليه "نديم" وكان مُتوسّط القامة. يرتدي قميصًا أبيضًا. يُخفي حيرته تحت ابتسامة شاحبة. قطرات من العرق الرقراق تنساب على جبهته. لذا فهو شاب مهُذّب وهادئ، في مُنتصف العشرينات من عُمره.

»لا إزعاج إطلاقًا، تعالَ وخُذ مقعدًا«

تلعثمَ بشكلٍ صارخ »هذا كَرمٌ منكَ«

»كما ترى أنا مُقعد«

«زوجتكَ أخبرتني أنّكَ تعرَّضتَ لحادث مُؤسف»

«هذا صحيح. عمّ تدور قصّتك؟»

«خداع النّفس»

ناولت "نور" لـ"نديم" كُوبًا وسحبت الكاتب إلى غُرفة المعيشة «زوجكِ لطيف للغاية. أنا أسف له جدًّا» أعربَ لها مُباشرة بعد أن ارتشف بعض الشاي الضارب للصُفرة. أسندت ساعديها إلى الطاولة، وبدأت في توريق الرواية.

«بشأن النهاية كنتُ أتوقّع أمرًا جللًا»

«النهاية منطقيّة»

«وما المنطقي فيها؟»

«لقد تغلّب على مَرَضِه»

«المريض لا يتغلّب على الفُصام»

«ولكنّها رواية»

«يجبُ أن تكون القصّة مُرتبطة بالواقع»

«أنا أرتكز على الخيال»

«والعلم يقول خِلاف ذلك»

لم تتوصّل إلى إحتمال مُقنع بإمكانيّة الجمع بين الاثنين. صرّح لها بإسهاب-وعينيه لا تترُكان عقربي ساعته- أنّ بطل الرواية قد دخل نفقًا طويلًا مظلمًا ليبلغ أخيرًا -الحد الأدنى- من الخلاص المنشود.

«يبدو أنّكَ في عجلة من أمركَ. سنُواصل في المرّة القَادِمة»

توجّهت للاطمئنان على زوجها وتفاجأت من تحديقه لها في عتاب ولوم. كان صامتًا شاحبًا «أنّى وقت الاغتسال. سأتّصل بأخي لمُساعدتي في حملكَ» قالت بنبرة مُهينة تُؤذيه.

بضيق الأفق، والتخلّي عن التمنّي، نظرت إليه بازدراء:

«أدنتَني بالبقاء معكَ»

كيف له أن يعيش، أن يستمرّ، أن يكُون في حالة إفاقة كلّ صباح وهي الّتي تُرغبه بالموت أكثر من أيّ شيء آخر.

«اغربي عن وجهي أيّتها السّاقطة المجنونة»

اهتاج وشرع في اطلاق صرخات الإستغاثة. كان قادرًا على تحريك قدميه قليلًا بفضل العلاج الفيزيائي. كل ما كانت تقوله هو قبول فكرة الإصابة بالشلل. في مثل هذا السُقوط اللحظي، نأت عنه وانكمشت في الرّواق، نصفها في الظّلام والنّصف الآخر في ضوء المغيب. نقرت بأطراف أصابعها على أزرار الهاتف. يا إلهي كم تحبّ صُراخه. وهي واثقة من روعته في الأيّام القادمة.

(6)

كانت إحدى أسوأ مهامها المنزليّة- الّتي تُصيبها بالكآبة-حلق ذقنه. كل ما كانت تقوله أن يجلس ثابتًا لَئِلّا يحدث شقّ في وجهه. وهل لها أن تستمرّ؟ لقد تحدّثا عن ذلك من قبل. لا يجب أن يدوم هذا طويلًا وإلّا ستفقد أعصابها. لديها سكّين كبير وتُفكرّ أحيانًا في استخدامه. وقد تضع به حدًّا لحياته. تأمل ألّا يحدث شيء سيء لوجهه الجميل. وهذه الحركات المحمومة الّتي يقوم بها لإثارة غضبها ليس بها ذوق. ولن يعرف مقدار الألم الّذي ستُلحقه به لاحقًا. أيًّا كان ما تُفكّر به-يرجو فعلًا- ألّا تفعله. أخرجت شيئًا من الثّلاجة ومرّت على والدتها.

«جهّزي لنا شيئًا للعشاء»

«وزوجكِ؟»

«أعدّي له حساء الخُضار بالبيض المخفوق»

«البيت فارغ من المؤونة»

«وأخي؟»

«يعيش في وحدة تامّة»

«سأذهب للتسوّق بمُفردي»

مرّت بمتجر الغذاء بالمدينة وكان مُغلقًا. لذلك قرّرت الذهاب إلى سوق الاثنين، الّذي يفتح أبوابه عشيّة الأحد. كان يجب أن تأخذ معطفها. الشتاء قادم في قلب الخريف. لا شيء غريب في ذلك، ذلك من تقولب الطقس. وأثناء مُرورها بين العربات الغلال توقّفت أمام إحداها وقد كانت صاحبتها سيّدة عجوز رثّة الثياب. نحيلة بدرجة كبيرة. وتبعث على الأستيهام بأنّها ستموتُ فقرًا.

«اشتري منّي يا حُلوة»

رُؤيتها بهذا الحال يفطر قلب المُتجوّلين. فاشترت منها ثمراتٍ كبيرة الحجم من التُفّاح الضّارب للحُمرة. أعلمتها السيّدة العجوز أنّ السبب الرئيسي لعدم شراء النّاس من عربتها وهو أنّها طيّبة وفقيرة. وهذا لا يبدو مُنصفًا. لن تكون سعيدة بدون هذا الشراء ورُبّما بمقدار أكبر. ثمّ سلّمتها تُفّاحة حمراء هديّة منها.

قالت «هذا لطفٌ شديد منكِ»

ولأنّ "نديم" يُحبّ البُرتقال فقد اشترت "نور" مزيدًا من التُفّاح. وبمُجرّد أن استدارت إلى الجانب الآخر، ابتسمت السيّدة العجوز وهي أشبه بوحش الكهوف. لقد كانت "ريماس" الماكرة. تشردُ "نور" بعينيها نحو والدها الّذي يختفي ويظهر بين المُتجوّلين. يَحمل كيسًا على ظهره. كان يقترب منها شيئًا فشيئًا. لقد تحقّقت

من أمره وقد كان البُعبع. يموء كمواء القطط. دسّت التُفاحة-الّتي لـم تكـن تعـرف أنّهـا مسـمومة-فـي كـيس بلاسـتيكي أسـود. لاذت بالفرار. كأنّها مشاهد مُستعادة وشاقّة. رنّ هاتفها على نحوٍ مُباغت. قـرأت الرّسـالة «إذا كـان هنـاك مـن يتعقّـب أثـركِ منذ طُفولتكِ.. فلا تتواني عن تقديم شكوى إلى أقرب مركز شرطة، تحيّاتنا» ركضت- مُبتلعة أنفاسها-بين الأحياء المُلتوية. خائفة من أن يقبض عليها بفمه الخنزيـر الواسـع. كـان علـى أثرهـا ينظـر إليهـا بعينيـه المتضـخّمتين، والمُخيفتين والقاَتلتين والمُشقّقتين. يُـدرك-فعـلًا- أنّهـا كبيـرة جدًّا لدرجـة أنّـه لا يسـتطيع ابتلاعهـا دُفعـة واحـدة، تمامًـا كمـا يفعـل مـع لُعابـه. أنّـى تسـنّى لهـا مـرآه وهـي فـي ذلـك العمـر؟ علـى عَتبـات الثلاثين. البُعْبُع يُفزِع الصّغار ويَدسّهم في كِيسه. إنّه فقط يفكّهم من أُسـرهم ويحشـوهم فـي كـيس علـى ظهـره ويُقلّهـم إلـى المجهـول المرُعب، نحو أرض الأساطير، أو العالم الخياليّ، حيث يلتجئ إليه الأطفال المضطهدون والمنبوذون والمتضرّرين من أهاليهم. ولكنّها كبيرة، أكبر من أن يفتكّها البُعْبُع. ولأيّ شيء يتحرّق لازدرادها بدلًا من وضعها في ذلك الكيس الّذي على ظهره؟ وأنّى تسنّى لها مرآه؟ أنّى جاز لها مرأى البُعْبُع المخيف وهو لا يتلامح إلّا للأطفال الّذين يتعرّضون للأذى والعِقاب من قبل أهاليهم؟ تمرّ خطفًا أمام المسجد

الكبيـر. يصـدح أذان المغـرب. ترتجـف خوفًـا وبـردًا. فـي المدينـة يموت عقلها. والوحشيّة في شوارعها ضاربة. هذا أمرٌ ثابت ومُحزن تمامًا. تجري على خلفيّة شقاؤها الأخير. تندثر أجزائها. تتلاشى. كما كانت، لا تعود البتة. لن تكون أبدًا. من جوف المدينة تفرّ إلى ديارهـا. صـدامها الوحيـد مـع ذاكرتهـا. واجتـرار الماضـي كسـادها الأبدي. تسعى إلى فهم حيّزا ممّا يحدث لها فتجنّ. ولهذا تُجن. في المدينة لن تعي مأساتها. العيش فيها مُبتذل وسخيف. كلّ الأشياء زائفة. تبني ظنًّا فيُهدم. تتخيلّ حُلمًا فيستحيل كابوسًا. تنام لتحيا وتستيقظ لتموت. غدُها لن يصير على الإطلاق. من المدينة هذا وعد وليس وعيدًا. المدينة ساقطة لأنّها إبنة زنا. لقيطة في المدينة لا شيء من شأنه أن يلوح على حقيقته. كان مساءً مُلبّدًا بالغُيوم. بين كرّ وفرّ، أوقبت "نور" المفتاح في قفل الباب وامتدّت ذراع البُعْبُع البغيضة من على عقبيها، يبغى صيدها وزجّها في الكيس. يُلاحقها ويترجّاها بأن تُحجِمُ على اللوذ بالهرب وتستمرئ مآلها. ذراعه مخيفة. مخالبه المعقوفة شبيهة بظهره المُتورّم المعقوف. يمرّ الوقت ببطء. ذراعه تمتدّ. وفي لحظة دلفت مع كل التحوّط. بقُدرة قادر أجالت بصرها في الشقّة. صفقت الباب على البُعْبُع. تلتمع جبتها من أثر العرق. لم ينل منها هاته المرّة لكنّه لها بالمرصاد.

قالت«هل هُناك أحد؟»

أجابها صوت مُخيف «هُناك المرض والاستياء. مرحبًا بكِ معنا»
تناهى إليها صرير فتح الباب. حانت منها التفاتة-بصورة عفويّة-كما لو كانت مرصودة ومتبوعة. أتراه البُعْبُع قد امتشق مفاتيح الشقّة من الكونسيرج؟ الملعون يدنو. إيقاع خُطواته على وشك ثقب طبلة أذنها. شهقت أنفاسها. البُعْبُع يدنو.. يدنو.. إيقاع خطواته يُقطّعها إربًا إربًا. يتدفّق الموت بتُؤَدَة. الموت شرس هذه المرّة. ساحق للغاية.

تُهمهم إلى الضياع. تتعطّل المفاهيم الّتي تدور حولها مثلما تفشل حواسها في فهم مأساتها.

شيء كالسّحاب يمرّ.

في لحظات التزعزع، دلف شقيقها وقاطع التراجيديا السّائدة فجرِضَت "نور" بريقها.

قال:

«أمّي تعبت وطلبت منكِ أن تعدّي الحساء بنفسكِ»

على عكس ما كانت تتخيّله، أومأت برأسها إيذانًا. يشتطّ ضغطها. ومُنصرفة الذّهن بالبُعبُع قالت: «لا بأس» فربّت على كتفيها «ألديكِ بعضًا من المال؟» أخرجت ما كان في حقيبتها وأعطته إيّاه. لوت

شفتيها في ضيق واستطردت: «عُد. سأبقى معه» خلّص المُحادثة مُعربًا: «أنتِ أفضل أُخت في العالم» كان "نديم" يشحذ سمعه قصد أن يتلقّف ما يُدار. كانت المرأة العجوز تقضم أظفارها و تنظر إليهم -كما تفعل دائمًا- من خلال مرآة غرفتها. عالمة بكل ما يحصل. تسعى إلى تدمير السّاعين وجلب الضيق للحالمين. كائن سادي. تلحّ عليهم أنفاسهم الأخيرة. تشفط مُحاولات في عيش سليم. مثل أجهزة الدولة الّتي تُراقب الناس من مُستقرّهم ولا تتردّد في ترهيبهم. تشعر بالراحة عندما تُعذّب شخصًا ما أو ترى شخصًا ما يتألّم وتكون مصدر مُعاناته. أوّل ما يخطر ببالها كُلّما تضوّأت الصّباحات في الخارج، كيف ستسعى إلى هلاك السّاعين. كانت مُستميتة في تعذيب أحدهم لتُريح ضميرها من هذا اللطف. تجعلهم يعيشون في عذاب نفسيّ وعقلي مُدقع. كان هذا أوّل شيء يُمكن أن تُفكّر فيه. غادر "حامد". ولأنّ "نديم" يكره حساء الفطر تلمّست "نور" طريقها إلى المطبخ لتحضير حساء يُشبه تلافيف الدماغ. كلماته تفرم دماغها، بأوجاع مُنتشرة، تشقّ كيانها شقًّا. كاتبها مساء أمس -بينما الدم يغور في رأسه- أنّه يكره رؤيتها. يبذل قُصارى جُهده للابتعاد عنها. كان لها أن تسمع رأس الكاتب يهتزّ من خلف سمّاعاتها المطّاطيّة. ما يُقلقها؟ ما تودّ الاستفسار بشأنه؟

أنشأ في تفسير علاقة الخوف بالماضي ويُرفق الخيال-بشكلٍ مُلائم- بمُصطلحات نفسيّة. «إذا لم تضعِ حدًّا لماضيكِ فسيعود ماضيكِ ويضع حدًّا لكِ» قال لها الكاتب وقد استغرق به الشرح وقتًا طويلًا. يجب أن تتخيّل قدر الإمكان وبشكلٍ ملموس. خلّص تصريحه بعبارات تتماوج في رأسها «استخدمي خيالكَ» وأغلق الهاتف.

وفي وقت مُباغت، رُجَّ الباب بصوت عالٍ، البُعْبُع الودود ولّى راجعًا بجسارة.

(7)

البُعْبُع يُتعتِعُ الباب. يستميت في تهشيمه. عيناها تجولان في الشقّة. السّاعة تدقّ. أيّ شيء عساها أن تفعل؟ تنقرُ مخالبه المعقوفة بانتظام على خشب الباب. وتهمس أنفاسها من صدرها الضيق. البُعْبُع الودود المُخيف سيحوزها. لازمة أن تتخلّص منه قبل أن يحصل عليها. سينفجر الباب بشراسة. فالباب لن يتجشّم لأكثر من بضع دقائق إضافيّة. وها هي ذي "نور" تقبض السكّين وخُيّل إليها أنّها تطعنه بجسارة. تطعن وتطعن وتطعن. لكنّها أحجمت عن هذه الخاطرة. ستنشلج حتمًا نصب عظمته ويشلّها الهلع. وسينفجر البلل ساريًا على فخذيها ورُكبتيها. ماذا قال لها الكاتب؟ استخدمي عقلكِ. فعزمت أن تنال منه من خلال تأليف شخصية "آكل البُعْبُع". إنّها خاطرة سديدة ستُقاتله بخيال الأطفال. فشرّعت الباب بأنامل مُرتجّة وأطلقت مُسعفها صوب البُعْبُع لينهشه بأنيابه الّتي تتضوّر جوعًا. ها هو ينقضّ عليه ببسالة وانحدرا معًا-في مساحة ضيّقة-من مرقى المبنى. فصفقت "نور" الباب مُخلّفة مُسعفها يُحارب البُعْبُع الودود وتَهالكت على عِضادةُ الباب. عقلها مُرتعد. روحها مُرتجفة. عيناها تنطقان رُعبًا في حين تصيخ السّمع إلى ضوضاء صاخبة تصدح من حين لآخر. تغلّب عليها إحساس بأنّ البُعْبُع لن يتجشّم

زمنًا أطول من ذلك. كان البُعْبُع مُنهكًا، يئنُّ، يعوي، على وشك أن يُبتلع في الحال. الكيس يتمزّق. الثّقب ينتفخ والأطفال يفرّون من مخالب البُعْبُع المعقوفة. كانوا يركضون ركضًا في ناصيّة الطّريق ويهتفون بهزيمة البُعْبُع الودود فتركلهم شاحنة ضخمة حينذاك ومن ثم يقتلون لقاء فرارهم من كيس البُعْبُع الودود. وعويل البُعْبُع يركلها بوحشيّة. يُحيطها علماً بأنّه سيؤوب في سِيماءٌ أدميّة لينال منها. سوف يكُون له عقاب ساحق أوان ذاك وخيالها الخصب لن يسعفها هاته المرّة.

صرخ البُعْبُع صرخة أخيرة:

«لقد أطعتِ والدكِ فيما كان يفعله»

زعقت "نور" زعقة مُريعة:

«كنتُ بالغة الصّغر. كان يقول لي هذا بالضبط ما يفعله كل أب »

بلمح البصر، رنّ الجرس، تمّ القضاء على البُعْبُع. انحنت "نور" بالقُرب من النّافذة المفتوحة لالتقاط أنفاسها. خُيّل إليها من على مبعدة طيْر كبير فصيح البياض. عيناه كبيرتان كالبوم. يتأوّه بصوت عالٍ للغاية ويظهر الكراهية بدقّة على وجهه. فأدركت وقتئذٍ بأنّها في المرحلة الموالية وتمّ إطلاق "أم الذراري" لتنهش جمجمتها وتشفط دماغها كما تأتي مع الأطفال حديثي الولادة. أنشأت تُفكّر

فـي الحيلـة الّتـي اِحتلتهـا للـتخلّص منهـا. لـم تنتـهِ مـن شُـخوص يُعاودون التجلّي من ماضيها. ليس من السهل تجاوز ماضيكِ، قال الكاتب. في الأيام الخوالي. مُنذ قديم الزّمان. في بلد ريفي. كان هناك امرأة يُمطر الحرمان بداخلها إلى أبعد نُقطة. وفقًا للقصص- الّتي توارثتها الأجيال- يُقال أنّها قد رُزقت بوليد. في ذات عوز، اضطرّت المرأة إلى إرسال صغيرها إلى بيت أحد الجيران، بُغية طلب ما يُكنى بالغُربال. ولكنّ هذا الأخير زاغ عن مُهمّته وأمضى اليوم كلّه في إشباع نزعة الطفل في التملّي. مُنهمك في لعبه. يُطرد الملل من بواطنه. صفق راجعًا عند حلول الظلام وهذا ما أثار حفيظة الأم التي ظلّت على انتظارها خائفة ترتعش. كانت ساهمة عند عتبة الدار.. طارت نحوه مرسومة بسحُب ظلماء. ضغط الجُنون على الأعناق. أخذت تهزّه بلا شفقة، مُسدّدة لكمات أودت بحياته. سقط هامدًا على الأرض. وتخشّبت الأم كتصلّب حُبيْبات الندى عند هبوب رياح ثلجيّة. تسرّب الانطفاء-تحت وقع الفجيعة- مُسخت الأمّ على شاكلة بوم كبير مُهدّدًا الأطفال بامتصاص أدمغتهم والقضاء على طفولتهم. ومن يومذاك، يُلاحقها شبح «يا قاتل الروح وين تروح » إلى لحظتئذٍ. فالنعوشة أم سيّئة تمامًا مثل "جميلة" الّتي لم تكن تعرف كيف تحمي طفلتها. لبثت

"نور" مُنتصبة انتصاب الأفعى تشاهد السّماء في صمت بعد أن توارت "أم الصبيان" (النّعوشة) عن أنظارها. وجعلت تجادل القدير في سرّها وتماتنَ قدرها الّذي اختاره. مرّت بأشياء أكبر وأعمق بكثير من واقع الترقّب والخذلان. إيمانها ينطوي على كراهيّة مُطلقة للعالم. تعذّبت في صحوتها وغفوتها. فهي هدف مُتيسّرًا بسُهولة للمُترصّد والمُهاجم. لبث السّواد يكتنف عينيها. ونعيق "أم الذراري" ينقر طبلتها بانتظام. ستتهجّم عليها في ليلة من الليالي من نوافذ غُرفتها، فيجدر بها إيصادها جيّدًا، وسدّ الفجوات لَئِلاَّ تهاجمها وهي نائمة. فهي لا تدرك مدى خطورتها، فالنّعوشة ستكون حتمًا أشدّ شراسة من البُعْبُع الودود.

أنشأت السّماء تتهيّأ للمغيب. وٱصطُبِغ الأفق بمرارة الغد اللّامجدي. توسّخ الجوّ بسواد الذّاكرة. ولاحت المدينة -الّتي لا تموت- من وراء الحجاب كحيوان خُرافي حقير نهّاش، يقِلُّ ضَغينةً، مُكشّرًا عن أنيابه، شاهرًا براثنه المعقوفة وعيناه ناطقتان بالغيظ. وها هي ذي المدينة تفترس بنينها الضُّعفاء، أولئك الّذين لم تُعاشرهم مُعاشرة حسنة. المدينة لا تستكفي ولن تفرغ من هتك بنينها. وها هي ذي المدينة تُسلّط عليهم سَطوتها.

وعادت المدينة -الّتي لا تموت- بسيف قاتل رهيب، قائلة:

«أنا أكون»

فجاش العجز والإنكواء والحُطام المتهالك. في هاته المدينة، كل من عليها سخيف. في حين يرتدّ مدّ مُواطني البلد، تقبل "جميلة" في ساعة الغفلة

«أنتِ في هذا الليل؟ ماذا أنتِ صانعة؟»

«لقد أعددتُ العشاء من أجلكما. ظلّي حيث أنتِ. لقد أتى والدك. لا ينفكّ عن مُناداتك»

بمجيء والدها، يستحيل الحُزن الّذي يُخيّم على وجهها فزعًا وتيقّظًا على الدوام. كما لو أنّها تتهيّأ لتصدّ هُجوم مُباغت. خُيوط المطر تنسلط على المباني المُكتئبة والرّاجفة. تتوغّل "نور" في أمواج الغضب. أصرّت على تناول العشاء صُحبة "نديم" أمام التلفزيون. لقد صنعت الحساء الّذي يكرهه. مرّر لها هاته الرّسالة - وقد كان به حيرة- بأسلوب جاهد في تمحيصه. أثناء العشاء-على نحوٍ تلقائي-يُومض التّلفاز، فتلوذ "نور" بالصّمت. يرمق المُذيع وجهها. يُبادرها قائلاً: «بالصحّة والعافية. ألن تتمّ دعوتي؟» يأتي ردّ "نور" بشيء من العناد والإصرار. «لا، لن أتمكّن أبدًا من الاستجابة لطلبك» كان هُناك إعلان عن اختفاء عدد مهول من الأطفال-في أسفل الشّاشة- ووُجّهت أصابع اللوم والاتهام لأمّ الصبيان. تذكّرت

"نور" حادثة كانت غُبارًا لعقدين. اختفت واحدة من قريباتها من أمام مقرّ سُكناها. أفاد بعض الأطفال أنّ عجوز مُرعبة أعطتها بعض الحلوى وسحبتها من جهة أُخرى ثمّ تلاشتا في وقتٍ غير معروف. يُنقّبُ المذيع تيْنك العينين في كل ركن من أركان الغرفة. هزّ رأسه في سُخط. «مُسيء لكَ مُراقبة الآخرين» خاطبته "نور" بلا لفّ ودوران. «ولكن بالأحرى مُؤذيًا لهم» قال المُذيع. ثمّ اِستطرد: «نقلت المدينة أمنيّتك إلى رئيسنا الأغزر سخاءً وعدلًا يا "نور"» وأردف مُعقّبًا: «يتشوّف الرّئيس أنّكِ لن تنتهي أبدًا إلى المُراد الخاصّ بكِ» وانفجر المذيع ضاحكًا مثل مجنون إلى أن سَعُل. ثمّ، هازئًا، حدّثها مُخطرًا إيّاها إنّه إذا كانت نيّتها السّعي لتحقيق العدالة، فالعدالة لا داعي لها، بل يجب أن تكون مثل الحشيش، ولذا، على رأي، المثل الشّعبيّ المُتناقل، قيل: «لمن تشتكي حبّة القمح إذا كان القاضي دجاجة؟» بين الأخذ والردّ، أجبرت الظّرف "نور" على قطع الكهرباء للتخلّص من التّلفاز. لم تكُن تتشوّف من البشر خيرًا. وتُريد أن يتركوها وشأنها في صراعاتها الخاصّة. جعلت نظرها إلى "نديم". يُحرّك الحساء بطرف ملعقته. يُصدر ضوضاء بين فكّيه وهو يُقطّع اللحمة. أشياؤه الباطنة مُبعثرة. الحَقد يُخيّم على القُلوب. غرز شوكته في البطاطس. لم تعرف شيء، هي الأخرى، سوى

الرّهبة والارتجاف والانتظار والمُواصلة. مع ثقل توتّرها الخَفي، توجّهت إلى المطبخ مثل طلقة من نار. تشعرُ أنّها خسيسة وقذرة. مثل التُفّاحة المسمومة الموجودة على طرف المائدة. أجهشت بالبكاء وجاش المطبخ بدُموع السّنوات الضّائعة. استمرّت في تهديم كلّ ما جاء أمام عينيها، إلى أن انهارت أعصابها وهوت على الأرض تتشظّى. استقرّ بها المقام في أسفل الماضي. كانت مُتبرّمة قصد ألّا تشعر بأعماق الحضيض الّذي تتوسّطه. أحداثها تُحبك في رواية خياليّة حيث الأمان لا يجد طريقه إلى قلبها. هُناك لا يُمكنها أن تكون أيّ شيء سوى ما هي عليه الآن. وتظلّ على جلدها للذات المُعذّبة.

في ساعة الغفلة أيقظتهما عمليّة ذهانيّة نشطة. يُهرمها شُعورًا مُتماديًا بإنهيار من صحوة ما كان يجب أن تصحوها. كان الأمر كما لو كانت بدل ما اعتادت عليه. في شكل شبح ينبثق للتو من خِزانة مَلابس خُرافيّة جامعة لكلّ الأشرار الّذين يُشكّلون خطرًا بمُجرّد وصولهم إلى عتبة المُغادرة. رُؤاها ساهمة. عائمة. تطفو على سطح التبلّد. ولكن أين؟ تضخّم حجم البؤبؤ المفقود بين فُتحات عقل ماكث في بشاعة قوى خارقة للطبيعة يُطلق عليها الذُهان الأبدي. فأوّل شيء فعلته هو الذهاب إلى مرقد "نديم". تُقاوم ولا تُقاوم.

يتماوج شعرها كثعابين مُتطايرة. مثل غُيوم بارقة. بدأت في تفتيش سريره وفُوجئت أنّه لم يكن يتناول الأدوية الّتي تُعطيه إيّاها. تلك الأدوية الّتي لا تجعله يُشفي. بدأت بالصُراخ عليه حتى لا يبرأ ويتركها. لا تخجل عن عواء حاد، مجنون، وعصبيّ. «ما أمر ارتباطي بكَ؟ ما سرّ وجودي إلى جوارك» وبعد طُول مُشاهدة. امتلأ "نديم" بعميق صُراخ كان قد ضمّه إلى مرحلة التمزّق. إلى أن تدثّر بارتعاشات وسيل من العرق البارد. أهناك أي شيء مُتبقّي من شأنه أن يجعله في حالة أردأ ممّا هو عليها؟

وجهّت له تراكمات بغيضة:

«أنا عن نفسي، لا أعرف شيئًا عن أسلوب حياتك»

شعر بدويّ الصّدمة. لا يستطيع التفكير بنسقٍ مُستقيم. كان شُعورًا بالقهر يبتلعه:

«ولكنّي عرفتكِ بقلبي. كُنتُ كتابًا مكشوفًا. فردتُ أوراقي أمامكِ»

«أنتَ أيضًا لا تعرفُ أي شيء عن حياتي»

ردّ عليها وشيء يقبض أعصابه.«ما قُلته سابقًا لا مُبرّر له»

الكلمات كانت تخرج كفيضان دون شفقة ومثل السّياط تسقط. ذرّت بملامة فشل الزّواج على كاهله. تهاطلت عليه قنابل من الإدّعاءات الفتّاكة. إنّ بتر قدميه سيكون أكثر فائدة من استمرار

عذابه. ومُستدركة أنفاسها تضرب قدميه. بدأ بالصُراخ بحدّة وجرّ نفسه حتّى سقط من السّرير وانهار تمامًا. ما كان يُؤلمه، حقًّا، أن يُفعل له كهذا فعل من إنسان اعتبره -سابقًا- أغلى من نفسه. أبصرت "نور" جُرم ما فعلت فقرصته مُفضية طابع الهزل. ثمّ انهارت عليه باكية. بُصِمَ بداخله ما لا يوصف وما لا يُحكى.

(8)

تلقّت-في الصّباح الباكر- أنباء عن إحالة لجنة قراءة الدّار إلى مُستشفى الرّازي بعد أن فقدوا عقولهم. سيتمّ استبدالهم بآخرين في غُضون أسبوع. انصرفت إلى قِراءة الصُحف. وكل ما كانت تُطالعه هو عن مُحاكمة الحمامات اللّائي أكلن محصول القمح. يا للأسف سيتمّ استجواب حتّى حماماتها- بل وحتّى- مُحاكمتهنّ. هذا ما صرّح به وزير الفلاحة، مُؤكّدًا أنّه لا مكان للفساد بيننا. انتقلت إلى قسم التمنية البشريّة. كانت قصّة ثراء ابنة رئيس البرلمان الّتي جنت ثروة هائلة تُقدّر- بـ365 مليار- كمُدبّرة منزل. ألقت الجرائد في الحاوية وقد شعرت بضيق خانق. ذهبت لتحضير زوجها لاستئناف العلاج الفيزيائي. عاقدة العزم على تركه وشأنه حتّى الثامنة مساءً. لا مزيد من الألم. ومن ثمّ مرّت على دار النّشر -بما إنّها فارغة- لتُكمل عمليّة تحرير الرواية. جاءت والدتها لتنظيف المنزل. تنهال عليها-في أوقات قليلة جدًّا- كل أشكال أحاسيس التعب. زاد الأمر عن طاقته واحتماله. جلست في المطبخ لتستريح. سقطت عيناها على التُفّاحة المسمومة. وما أن أكلتها حتّى كان المرض يستشري- بقُوّة- في جسدها ويتزايد بأعماقها. كان الطقس مُظلمًا في الخامسة والنّصف مساءً. وهذا أمرٌ يصعبُ تخيّلُهُ. تمدّ "نور" أصابعها

مُتحسّسة زرّ الإضاءة. تشعر بغثيان مُفاجئ بمُجرّد أن يترامى إليها نعيب أمّ الصبيان. كانت مُتعبة، متعبة لدرجة أنّها تتعاجز عن الذّود عن نفسها من "أم الذراري". ستشفط دماغها برحابة صدر، دون أن تشهر مخالبها أو تُمسكها من شعرها الّذي يُغطي كتفيها وتُجرجرها كمذنبة أذنبت بالذّود عن نفسها. يجري الخوف في عروقها، وعيون ضخمة ترقب فجيعتها بشراهة. كانت تخور وتصرخ في سرّها. "أم الذراري" تضرب نوافذ مكتبها، ولكن يُوجد شُبّاك واحد هو المفرّ، أين بقيّة الشبابيك؟ رائحة الوجل تضوع والنعوشة تُدمدم. انفقعت أصداء أصوات أخرى فافترّت "نور" عن أسنانها ضاحكة في ظفر، إنّها صرخة حياة تعود إلى الهياكل العظميّة الّتي تم امتصاص أدمغتها بشراهة من قبل "أم الصبيان". الهياكل تنزلق من قبورها لأنّها سئمت الموت في قمّة الحياة وعزمت الثّأر من "أم الصبيان". إنّها الخديعة الّتي اِنتقتها "نور" للنّيل منها. والصّراصير الكثيرة تركض ركضًا بين الأتربة بعد أن حيّرتها هياكل الرضّع. لم تجد "نور" من نفسها القوّة على التحمّل.

صرخت النعوشة:

«لقد أطعتِ والدكِ فيما كان يفعله»

زعقت "نور" زعقة مُريعة:

«كنتُ بالغة الصّغر. كان يقول لي هذا بالضبط ما يفعله كل أب » كانت تنهار في سرّها. أضحت كسيحة ذلك من سيل من الترقب. النّوافذ لن تصمد زمناً أطول. يجب أن تفكّر في حل لغوثها قبل أن تنهار النوافذ. فهياكل الرضّع يقتضيها زمنٌ أطول لتصل إليها. عليها أن تجلس مكتُوفة الأيدي وتُفكّر في حلّ. عقلها غائم، ومُضطرب. فالحمامات المشنوقة تُطلق صرخات مذعورة وتُهاجمها بالسّؤال سرًّا عمّا إذا ستكون على أتم ما يرام ثمّ يهوي رأسها ويمكث جسدها مُعلّقًا في الهواء. تهتزّ الأجراس مُعلنة الرّياح الّتي تهبّ لتدرأ بـ"أم الذراري" بمنأى عن "نور". ريش الحمامات يتناثر من حواليها. من أين وفد ؟ وأيّ حمامات؟ الجُنون. الفَوضى. والهياكل العظمية آتية والظّهور على شاكلة القوس والأسنان تتقشّر والعيون خاوية بعد أن أفترسها الدّود والعظام هشّة ولونها بين البياض والرّماد والمعزوفة المتمرّدة تصدح في أذنيها. إنّها نظيرة بتلك الّتي رقصت على أنغامها رفقة "نديم". كانت تصدح شيئا فشيئا. إيقاعه يُسيطر على الزعيق لـ"أم الذراري". تشكّل الغُربال من فراغ الوجود. أنشأت "نور" تدقّه إلى أن نجم الإغماء وانتهى بها الأمر على الأرض بعد أن انفجرت "أم الصبيان" إلى أشلاء في السمّاء. لاح

كائن مُريب. ذائع الصّيت. شبيه بالبُعبُع. وراح يُفرقع الألعاب النّارية في مكتبها. «حللتَ أهلَا ووطئتَ سهلًا يا بو شكارة» قال:
تحت ضوءٍ شحيح طفق يذرع أرجاء مكتبها غُدوة ورواحًا كمن أصابه الجنون. بظهره القاتم والمحدودب، يمشي، بشقّ الأنفس، وما تكاد تمرّ ثوانٍ، حتّى يلتقط أحد الصغار-الّذي لم يخلد إلى النّوم وقت الظّهيرة وخرج يلعب تحت أشعّة الشّمس الحارقة- ويهرع به نائيًّا إلى عرينه المُتموقع في أحشاء المجاهل المُخيفة. ولكن لأيّ شيء برز "بو شكارة" وقت الليل؟ فحُضوره يؤون أوان الظهيرة فقط أم أنّ موعد قُدومه صار مُتاحًا في مُطلق الأحوال؟ في كل الأوقات؟ ككل الأشياء؟ والريف هو مقرّ سُكناه. علّام أبرق في المدينة؟ أم أنّ جميع الشُرور قد تحوّلت إليها وباتت المدينة قُطبًا مُريحًا للأشرار؟ ولكنّ "نور" لا تسعى إلى النّوم لا وقت الظهيرة ولا وقت المساء. تُريد أن تبقى على صحوها. فوالدها كان أبدًا يُغافلها في رقادها. لم تعد على سذاجة الطفولة.

إنّ كل عُقدنا و نَحن بَالغون بدأت في طُفولتنا

أحمد خالد توفيق

(9)

حكـت - بكلمـات مُتهدّجـة والغُصـص تتـوالى عليهـا- للطّبيـب النّفساني أنّها لا تتواصل مع عائلتها إلّا فيما ندر، اللقاء بالنّسبة إليها يُوازي قضاء الوقت في الاحتضار فحجم الخذلان، الّذي أحدثته لها والدتها، لا يُحتمل. ليس من السّهل أن تكبر بين رُبوع الفجائع والألـم. تكنُّ إليهم إحساسات دفينة تعجّ بالقرف. خطبها العظيم أنّها ما عادت تثق بما يُكنى بالأواصر ومع ذلك ما فتئت تأخذ الخيبـة مأخـذ الجـد. فـرادي، تسـقط العائلـة، بـدأ السُـقوط الأوّل بوالدتها، الّتي ألجمتها وتستّرت عمّا حدث. باختصار، الصّدمة أن يُفرض الخرس والمرارة أن يرفض عقلك تقيّأ ما حدث فعلًا، ما يتمّ حذفه بالتوهّم. وكم كان الخُضوع مُذلًّا. ظلّت والدتها على صمتها. فصمت العالم بأسره معها. كان لها أن تردّ الأذى عنها. عن وعـي ولـيس عـن جهالـة، شـقيقها، قُـرّة عينهـا، غـدرها هـو الآخـر. علمـت فيمـا بعـد أنّ شـقيقها بـاع قضـيّة الزّمن تحـت إغـراء قلّـة مـن الملايين. وبقي الأمر في مُستوى التداول العائلي. الاسم، الشّيء الوحيد الّذي يَلملمهم كعائلة. كان الطّبيب يستمع إليها باهتمام. أعطاهـا مُضـادًا للاكتئـاب. ومـع سُـرعة مـرور الأيّـام مكثـت -أمـام الطبيب- على هذا التخشّب. تتصلّب مخاوفها الّتي تلتهم رأسها.

مُحاطـة بالـدم. دم العائلـة يعمـل علـى عزلهـا. يحـدث غيـر مـرّة أن تنفجر ساكنة، ثابتة. تحتمي بالفرار. بأزقّة مُرعبة، مُؤذية، ومُلتوية، يسكنها وحـوش ترقب بحقـد، تنتظـر فريسـة بفـارغ الصبـر. يشتعل الرّماد الّذي في صدرها. هي الّتي اختطفوا، الشُعور بالسكينة، من مخازنهـا. يطـول كـلّ مـا يحـدث. العدالـة لا تتّبـع مسـارها. القـدر لا ينتقم. والروح تثأر من نفسها واجمة. سوف تظلّ ضحيّة في قفص الاتهام والجاني الحقيقي يُضاجع الحرية. ثمّة وجع تعتنق فيه الصّبر على أذيّته وثمّة وجع لا تستطيع له صبرًا. ما جدوى المُضي قدمًا إذا لم تنخلع عن ماضيها ولم تُجدِ أي فائدة في حاضرها. تبدّى أنّ الحاضر يقرفها ويركلها خارج حُدوده. هل تُلاقيه من أجل لا شيء استمرّ الطّبيب في الاستماع إليها وبالغ في جرعة الدواء. بعد شهر، تحت وقع الإرتجاف، أسرّت للطبيب حادثة الإغتصاب الأولى. كانت في الخامسة من عُمرها. في زمنٍ مضى، صوب بيت عمّها، ولّت راجعة أدراجها، بعد أن تاه منها معطفها هناك. فتح لها عمّها وكظلّها دبّ على أدراجها. أخبرها أنّ زوجته كانت تنتظرها في ذلك المكان وتحرصُ على التحدّث معها عن أمرٍ خطير للغاية. كانت "نور" تتقدّمه دخل بها في أحشاء غرفة تفوح منها رائحة مُقززة. إنّها غُرفة مُغلقة مُنذ عُقود. غطّت "نور" أنفها لدرء الكريه

عـن خياشـيمها. حـدّقت بجُـدران مقبرتهـا المُتصـدّعة. كـان الظـلام تقريبًا. وفي نهاية الرُكن كانت هُناك طاولة بها ساق مُقوّضة. ضوء صغير يتدفّق من نافذة زُجاجية مُلّونة مُتعددة الألوان. ارتجفت، وبعد بضع خُطوات إلى الوراء، اصطدمت بعمّها. ظهرت الإيماءة بشكلٍ عفوي. كان ألمها مُرعبًا. ابتعدت عنه وهو يقترب. كانت تبتعد. كان يقترب. حتى توقّفت في إحدى الزوايا وانكمشت في ظلامها. كادت أن تكون غير مرئيّة فيها. تلو ذاك تجرّد من بنطاله، فما برحت "نور"، موضعها، وانغرست كمسمار مزروع في جدار هاته المقبرة. صرخت بمرارة، لكنّ الباب كان مغْلقًا، كأنّ دروب العالم مُغلقة. لبِث العمّ مُحافظًا على موجته الحيوانيّة، أدركها خائرة القوى، بلا عون، أدركها فريسة مُتيسرًا اصطيادها بنظرته المُتّقدة. فتخلّى عن عقله الّذي يؤويه وتقوّى على الطفولة المستغيثة. أمسكها بين ذراعيه وطرحها أرضًا. فهزّت رأسها. نظرت بمرارة إلى صُورة الأميرة سنو وايت. كانت محفورة على حقيبتها، وحدقت في الصوُّرة، لذلك لم تقل كلمة واحدة. ثم أمرها بالوقوف لكنّها لم تفعل. وعدها بالقتل إذا وشت بما فعله. يتهدّدها بأنه سيقتلع أنيابها. سيقذف برأسها الجميل. كلّ ذلك لا يهمّ. ليقتلع ما يرغب باقتلاعه. فالأهم أجتثّ واندثر. وإنّما الطُّفولة اغتصبت. اقتلعت. تجرّدت

وِاندثرت،. غرقت الطُّفولة في بحر قاتم بشوائبه. أظلّت الطُّفولة ثنيّتها وأوقَعَ بها في الوحل القذر. ما من شيء سيردّ لها ما سُلب. وصوب الحمّام ساقها. جعل يُزيل قذارته عنها. يُزيل الدّماء. يزيل أوساخه. يُزيل قُبحه. يُزيل شُذوذه. وقال لها: «حمّام العرس يا تحفونة» ثم فتح لها الباب وأمرها بالمُغادرة، وقبل ذلك كرّر لها التهديد المُبتذل. «أُغربي وإلّا جعلت رأسك مُنشقًّا عن جسدكِ» قال:

في طريق العودة خطت ساهمة. مُجبرة على سحب قدميها مع ذلك الشّيء الّذي ينزف من خلالها. ألمّ بها الخزي الشديد. كأنّها من ارتكبت الجريمة، لم تكن تفهم ما حدث لها، لكنّ غريزتها الإنسانيّة كانت كافية لإبلاغها. عادت إلى البيت. لم تجد أثرًا لوالدتها. فأوت إلى مرقدها وعانق دمُيتها تستطلع عن مكان دافئ لإيوائها. يشدّ أزرها. عن شيء يفكّ كربها. كانت نائمة، مُنفرجة السّاقين، على أقصى ما يُمكن، عندما جاء والدها إلى سريرها وتمدّد بجانبها لصنيع نفس البذاءات الّتي اعتاد على فعلها، بما يُرضي النّفس. وفي المساء دأبت والدتها. فوجئت بابنتها غارقة في نوم عميق. وجدت آثار دم عالقة بأدباشها. حاولت إيقاظها لكنها لم تستجب. كان الأمر كما لو أنّها سقطت في غيبوبة مُظلمة من

الأهوال الّتي حلّت بها. لذلك نقلتها إلى المُستشفى، حيث قالوا لها إنّ ابنتها تعرّضت للاغتصاب، وأنّ ابنتها انتهكت حُرمتها، وأنّ ابنتها سقطت في بحر من الأغلال ولن تعود، أخطروها أنّ القدر ألبسها رداء السّخط الصّاخب، وبكت إلى الحد الأقصى. تعاملت والدتها مع الحادثة بسَرِّية. استنكفت عن تقديم شكوى وفقدت حقوق ابنتها لتلافي الفضيحة. خشية "فُلان وفلتان". من أجل ضمان خرس الضحيّة يصطفي الجاني ضحاياه من ذوي العائلات المُفكّكة. في ذات وقت دهست عمّها. ردّت الفعل في المُقابل.. ترجّلت من السّيارة. دبّت بكلّ ثقة والثأر يغلّفها. رآها العم. كان رأسه مُثقل بالدوار. لم تسنح له أن يقول كلمة. غاصت بكعب حذاءها مسدّدة عاصفة من الركلات في أجزاء وجهه. بدأ هذا الأخير في العواء والتلوّي بعد أن انفقعت ينابيع من الدم. أنهت الأمر بثقب حلقه لتخفيف شدّة حُزنها. تحوّلت -بثقة- إلى سيّارتها مُخلّفة بقع دماء على الإسفلت، تخفت مع كل خُطوة. وبمُجرّد الانتهاء من سرد ماضيها، صرف لها الطّبيب- أنافرانيل 25 مج ثلاث أقراص في الصّباح وثلاث أقراص في الليل- بينما يُتابع الطّبيب قوامها" الممشوقة، البيضاء بشكلٍ مشرق، بعينٍ حريصة، وسُرعان ما تشوّش بصره بعد أن تفطّنت به.

انفجرت بالبُكاء- في حين كانت- تركض بين السيارات. كانت تتقصّى عن الموت. بعض الشُجيرات -الّتي تفرش ظلالًا سوداء- تُزيّن المقبرة، بينما تزأر الرّيح زأرة بطش. تبثّ الرعشات حول حوافها. ينتقل الزلزال عبر عروقها. تموّجت أشباح الماضي المُروّعة حولها. كانت القُبور جدّ واطئة. تُقرقف "نور" كنملة بائسة. تتقاذفها الأمواج وتجرفها إلى قعر دوّامة تصرخ صرخة واجمة. تكتسحها إلى جوف الزوبعة. دوّامة لا منجى منها. ويدوي زعيق رهيب. فهبّت نحو القبر الّذي كان قلبها دليلًا إليه. كان يجب أن تختار قبرًا أكثر رقّة وسُهولة في النّبش بهذه المجرفة. قبر يروقها ويُوافق رغَباتها. كان شُعور ذراعها مُرتخيًا وفضفاضًا وجوفًا وغير قادرة على الحفر. لذا جمعت الشتات بتصميمها، ثم بسملت وتوكّلت. غمامات تُحيطها من فوق. تُغمض ضياء تباشير الفجر. يخترقها رعد من الهواء. وفي هذه اللّحظة-كيْلَا تكون واهمة- الإحساس بالموت ابتدأ يدنو على مهل. وبقلب واجف تحيّنت اللّحظة وطفقت تحفر. تحفر. تحفر. بلا رحمة. إلى أن تمكّنت من مرأى الميّتة الّتي ستحتلّ محلّها. «يا موت، أغثني من حياتي. يا حياتي، انجديني من الموت. يا مسرّاتي أنقذيني! الكثير منّي يروم إلى قتلي. شخص ما يعبث بأعصابي ويدفعني لقتل نفسي. إنّي أريد

قتل نفسي. أن أضع نُقطة للضّياع والألم»، صدح صوت فاجعيّ من قاع القبر. استمعت إلى بُكاء الموتى وصُراخ المُعذّبين. أنّى جرُؤت واقتحمت حُرمتهم؟ وهُنا يهوي بصرها على المرأة العجوز. كانت تضع شالًا. فدنت "نور" من موقعها وأنشأت تتلصّص على ما كانت ترتكبه في هذه الساعة من الفجر. تحفر بمخالبها ثلاثة قُبور. في مفاجأة الأمر كُتب عليهم الآتي : «نور الهاني» «رضا الهاني» «جميلة الهاني» القلب الآيل للارتعاش يرتعد. يغرق في عاصفة من الرّياح العاتيّة. تتوارى "نور" قفا شجرة الصّنوبر وتتقرفص متى رجمت المرأة العجوز نظرات وجلة في كل الاتجاهات خشية أن يُدركها الزّوار. شمخت برأسها – لحظة- دويّ نعيب الغربان. فأدركت حينها بأنّ المرأة العجوز المُسترابة تطبخ فاجعة ما، وقيعة ما. سيلًا من المأساة. وخزتها حشرات غريبة فيمّمت وجهها شطر المرأة العجوز، ولم تجد أي أثر لها هُناك. لم تمكث على هذا الوضع حتى وجدتها واقفة طويلًا أمامها. تُحدّقها بعينيها الخبيثتان الشّبيهتان بعينان البوم المُخيف. بنظرات سقيمة وحاقدة رمقتها. نظراتها ينبعث منها الكره والبغضاء والهشيم اللاّذع. نظراتها تُوحي بالشرّ. عيناها تلوحان شديدتا الحُمرة. وراحت المرأة العجوز تصهل صهيلًا مُروّعًا. وترفس عُنق "نور" رفسًا وتقفز. تنتفض

وتـرتعش. وتهتـزّ كمـن لامسـها تيّـارًا صـاعقًا. تتحـرّر كـل العناصـر الشـرّيرة مـن أغلالهـا وتنشـر الرُعـب في أرواح المدينـة. لا شـك أنّ هذه المرأة العجوز هي أخطرهم. ومع وميض العين، تنفرط "نور" من أذرع المرأة العجوز المُقزّزة. الشّهقة تسبح داكنة. لا تعرف من أين أتت الشجاعة لإطلاق ساقيها إلى الريح. ركضت. ركضت في الاتجاه الآخر. ركلت باب المقبرة ركلًا وتركته على مصراعيه. إلى أمرًا مُريبًا، أصبح فجأة بغيضًا، تفطّنت أنّ المرأة العجوز قد ملّصت ذراعيهـا وأخلـت سـبيلها. دهشـت أشـدّ الدّهشـة. وغاصـت مدينـة الضباب-الّتي لا تموت-في أبخرة كثيفة.

(10)

مع تعاقب الأيّام، تسود غيمة عميقة وداكنة. يزداد الطقس بُرودة. فرغت من تحرير الرواية. ضربت موعدًا للكاتب بشأن الغلاف وكان مُصابًا بنزلة برد.

«تعالي إلى منزلي»

بمُجرّد أن رآها، أطلق لهيثًا صغيرًا. لقد فقدت الكثير من الوزن. أصبحت مثل عصا جافّة. هَامدة إلى حيث مجاهل الضباب.

«ما الأمر؟»

أرته عيّنات من الغلاف. ثمّ زفّرت في كلال بتتالٍ مُتّصل. شديدة التشاحن وكثيرة الإنعطاب تنهّدت وصوتها يُصبح أضيق. وفي دخيلة نفسها، كان غيظها يتنامى، مُنكمشة على نفسها، ولن تُحقّق خلاصها.

أبدى اصرارًا كبيرًا «ما الأمر؟»

تكلّم أكثر ممّا ينبغي:

«كل مجالات الحديث مُتاحة»

حسبُها أن يسألها أحدهم عن أمرها المفقود كي تنفجر في وجهه باكيّة خُسرانها. كانت نسبة كلماتها في تضاؤل مُستمرّ. كسرت صمتها الحارق. نقلت له-بشكلٍ يُدمي-أنّها مُنهارة وتحت مُضادّات

الإكتئاب. تشعر أنّها مُستنزفة. أمواج بحر التعب تنقبض حولها. وأنّها الفاصل بين الصمت والصّرخة. تأتي هذه الفكرة من الُدخان الأسود الّذي يغمر رأسها ويصل إلى المدينة. في ما يُشبه الجُنون عقلها يسيح إلى ضباب وسط ضجيج الماضي. لا هي قادرة على الصعود. ولا هي قادرة على النُزول في القاع أغزر ممّا هي عليه. فيخُضّها بغضب، بغضب كاتب لم يصل معها إلى إحتمال ثابت.

«توقّفي عن هذه الأدوية اللعينة»

شرح لها-تحت ضوء شاحب- أنّ تلك الأدوية ستلعب بعقلها. إنّها في حاجته للتغلّب على ماضيها. في أتمّ الحاجة إلى خيالها. مُضادّات الاكتئاب تجعلها شخص يسير الخضوع ومُدعاة للاستغلال وعُرضة لانتكاس وشيك. لا ينبغي أن تجد حلًا للهُروب ممّا يجعلها بائسة بل يجب مُواجهته.

قالت «لم أعد أعرف من أنا على وجه الخُصوص »

لم تعد على دراية بما تكون. تطفو فوق سُبات مُفاجئ. تكاد أن تغرق مُعانقة الأرض. كما لو أنّ دماغها قد تحجّر وتوقّف عن العمل. كانت الأيّام الماضية تكثر في وسطها تقيّؤات وإغماءات وفقدان للذاكرة وأشياء غريبة أخرى كثيرة. مُستاءة من الكآبة الّتي على وشك أن تُودي بحياتها. طبقات وطبقات من الكآبة. تشعر

وكأنّها أسيرة شرنقة الأتراح. تشعر وكأنّ شخصًا ما يُديرها مثل دُمية. وحدسها كمُحرّرة أدبيّة لا يُخيّبها. عيناه تشاهدانها في كراهيّة. تتكلّم عيناه بالشرّ والبُغض. إنّه يتحيّن البلاء الّذي سيحلّ بها. الأفعال والرّدود غير المُتوقّعة جعلتها- في زمنٍ مضى- تفقد الثّقة في من حولها. وبينما كانت تسرّ له بشُعورها المُنقبض رنّ هاتفها. أنبأها شقيقها أنّ والدتها نُقلت إلى المُستشفى.

مرّ شهرًا ونيّفًا. ويتداعى معها قسائم الترقّب. ما كان مُحزنًا أن يُجهل مصير الأشياء غيْر أنّ "جميلة" أيقنت حتفها بعد أن تداعت حالتها الصحيّة. أبلغها الطبيب بحُدوث فشل خطير في الكلى. ارتفع مستوى الكرياتين لديها. لم يعد جسدها قادرًا على إزالة السُموم وهي في حاجة ماسّة إلى زراعة-على الأقلّ-كلية واحدة.

قال الطّبيب«تعرّضت كليتكِ للتلف»

كان عقل "نور" صحراء قاحلة، وأعصابها رمال حارقة مُتحرّكة. أشاحت بوجهها. سيطر عليها الخوف. فكّرت بالهرب وترك كلّ شيء على حال سبيله. ستنعم أوان ذاك بفيض من السّكينة وراحة البال. فإنّها -مع ذلك- لم تشعر بالأمان على الإطلاق. ولكن ليس من الضار أن تأتي بعض الأشياء المتباطئة طالما ستزيح عنها الأوزار وتنفضّ عنها غبُار الشّقاء. لا ضير إن تسارعت عقارب

السّاعة هذه المرّة أو تأخّرت طالما أنّ الكابوس سينقضي. إنّه كابوس العائلة. لا يهمّ ما سيقولونه عنها، بغضّ النّظر عمّا هي فيه. تركت والدتها وزوجها. سوف تجد ملاذًا ولن يردعها أحد عن تحريرها من روابط الأسرة. ستمُزّقها ولن يرفّ لها جفن. لن تتندّم أو تتحسّر أو تتأسّف على ذلك. ولن تسترق النّظر إلى الأواصر وهي تنزف وتقطر دمًا. ستجمع حقائبها وتفرّ، مُخلّفة قطرات من الدّم والعائلة تنزف. والكُلّ يصطرخ بعد أن تمرّد أحدهم على الأربطة ومزقّها. فلن تنسلّ مثلما تمرّد نُظرائها، بل ستصفق الباب وراءها تاركة بقايا ذكراها مع الروابط القبيحة النّازفة. ستُقوّض جدار التقبّل والرّضا والاستسلام للوضع الراهن. ثم أحجمت عن كلّ هذا بعد أن عاينت والدتها. وما هي فيه من الأسقام. على المُرّ صابرة. لم يُترك لها خيار آخر. مُنذ أن تزوّجت لا رأي لديها. في كلّ مرّة تأمل أن تبدأ من حيث سقطت وتخفق في وقت لاحق. وبقيت تطوي ما سوف يأتي. لا تسعى إلى التطّلع إليه. حسبُها أن تُزيله. رفض والدها-كونه الوحيد الّذي تطابقت خلاياه-التبرّع بكليته. قام بسلب قسيمة على قدر من الأهمّية من مالها. نفقها في لعب الميسر. وفي كل مرة يفقد أضعاف ما كان يحوزه. أراد أن يستحوذ على آخر مماليكها، شقّة في فرنسا، فوقفت "نور" في

وجهه. كانت تعرف ضمنًا أنّ الزّوجة تُلغي حقوقها وتتنازل عن حياتها، بغضّ النّظر عن اضطهاد زوجها، تبقى إلى جانبه، وتُحافظ على أواصر الأسرة المُقدّسة. تغفر وتصرف البصر عن أشياء رهيبة. ممّا ساهم في خلق أطوار نفسيّة كارثيّة. منشؤها سوء العلاقة بين الزّوج والزّوجة ومنه استشرى المرض إلى بقيّة الأبناء. أخطرها الطبيب - في ذلك اليوم- أنّ أولئك الّذين تتكلّم عنهم لا ينمون إلّا بعُنف أكبر نتيجة صمت الضحيّة، فهل لها أن تُدرك ذلك؟ والّذين يرون الألم ولا يتكلّمون ولا يفعلون شيئًا فلهم ذنب عظيم. أبلغها- بطريقة مُبطّنة- بأنّها مُتواطئة في ذلك. كان هُناك شيء مُظلم في الغُرفة، لم يسبق له مثيل، كامنًا مثل عاصفة تقصف من خارج المجهول، يتحدّث بلُغة الأحاجي، مُستخلصًا أنّ المرأة والرجل- على حدّ سواء-وقيعة نشأة مغلوطة معنونة إعاقات أُصولية، وكِلاهما يرث نحس المُعتقدات، فيكُونْ الجاني ضحيّة قديمة والضّحيّة ضحيّة جديدة. المرأة هي الّتي تصمت عن كلّ هذا.

(11)

كانت الأرض تميد بها ويطول شرحها للكاتب أنّ المرض قد قضى على والدتها. قضمها ونخرها ونهشها. تآكل جسدها. أضحى فُتاتًا. لقد ترك المرض بصماته. وليس لها أن تتخيّل تراكم الفُتات ودفنه في نعش. ردعت تلك الخاطرة. دفعت بفكرة رحيلها من رأسها. وكل مُحاولاتها لتستمرئ الحال باءت بالإخفاق وذللك ستتركهم يقتتلونها. وتتجاهلهم تجاهلاً كاملًا. كما كانت تواجه الظلام دون أن تعرف ذلك. كانت عينا المُؤلّف-بتراخٍ-تُحدّقان على الروايات بمكتبها عندما قال لها «إذا هاجمتكِ مخَاوفكِ في واقعكِ، فهاجميها في أحلامكِ» ثمّ زايد في شُروحه «إنّ دواخلنا هي ما نحن عليه في الواقع. والأحلام تُعرّي ما فينا. في رؤوسنا قسم مجعول حكرًا بالأحلام».

مغمومة أشدّ ما يكُون الغمّ - في ساعة مُتأخّرة من الليل- تفغر تيْنك العينين في هالتين قاتمتين. كانت مُجفلة. والمكان يسوده خرس مُريب. تنحّي اللّحاف جانبًا. تضمّ شعرها على يسارها. تتضخّم همهمات وخشخشات مُخيفة. مُثقلة الذهن. فائقة الهشاشة. مقطوعة الأنفس. أدركت شيئًا مُثيرًا للرّيبة، خُطى راكضة وأصداء صاخبة للتلفزيون وضوضاء خافتة تعود إلى الأصوات المُمزّقة.

وبعينين ينبعث منهما شرر مُتلألئ مُتيقّظ للخذلان، امتدّت أرجلها وأطلّت إطلالة خاطفة من الباب المُوارب تتحقّق ممّا يدور. تجد نفسها في كواليس المسرح البلدي بسوسة. شخص ضئيل القامة يُمسكها في عجلة من أمره. مترُهّل الوجه ومُكفهرّ القسمات. كان المكان مُزدحمًا والجو مشحون. الكلّ يسير ويصطدم بأشياء لا يراها ويتهافت بأشياء لا تُفهم. لا تضبط جيّدًا ملامح من حولها. ساقها ناحيّة ستار أحمر ضخم وقذفها إلى ركُح المسرح لتُؤدّي دورها الخاصّ. كان الرُّكح يغوص في العتمة الخالصة قبل أن تسطع أضواء مُتنوّعة وخافتة. يسقط الضوء ويتسلّط عليها. بكُل مظاهر البلاهة تلاقت نظراتها مع نظرات الجمهرة وحملقت فيهم بحيرة واستفهام. راحت تُحدّق -ككُتلة صخريّة- ببدلاتهم الّتي تلوح من موضة السّبعينات. يعتمرون قُبّعات سوداء وبُنّية داكنة تماشيا مع لون البذلة. كان "نديم" ثابتًا في الصفّ الأمامي. نظرت إليه متسائلة. كانت مُحطّمة. كانت رخوة. وظلّت في سُأمها صامدة. كان والداها -على مسافة- يتشاجران تمامًا كما كان شأنهما من ذي قبل. قال "رضا" في مسعى لشرح وجهة نظره «لنفترض أنّ كل ماحدث لم يحدث» ابتسمت "جميلة" بانفعال، مُتشنّجة. «لا يُمكن محو الجريمة من الافتراض. أين عقلك؟ أنتَ المسؤول عن

أفعالك؟» كلاهما توجّه إلى الموت. إحساسات فوضويّة كانت تتدفّق. ارتفع التفجّر إلى عقليهما. الأمّ أكلت تلك التُفّاحة المسمومة -على طريقة بياض الثلج- خرّت على الأرض. لم تستطع قتل نفسها. كانت الابنة تبكي وسعيدة بما يحصل. إزميل الغدر ينخر في صدرها. كل ما فعلته أن تذعن إلى إرادة الضيم. إلى مشيئة القدر. وجودها موت، انبعث من رحم الشقاء المُتّصل إلى التلاشي. فهي لم تغفر لمن أهانوها بكلمات من سكّين فما بالهم بمن آذاها أعمق من ذلك. الأبّ، كانت رقبته ملفوفة بحبل سميك وظلّ على تشنّجه. لم يحصده الموت شنقًا. كالبالون ينتفخ رأسه ذنبًا. ضج مُقهقهًا بملء شدقيه إلى أن انتابه السُعال. زاد خوفه من العدالة الحقّة الّتي ستبقى حيّة بمعنى الشُعور بالذنب والهُدوء لن يعرفه. لن يموت. عليه أن يُدير أمره على سطح الأرض. وفي حضرة الوجود سوف يتعذّب. وتساءل في سريرته عن علاقة الحياة والذنب. ومن يفكّ له شفرة السُؤال. يطلب الجواب. ويظلّ مُبهمًا. في الطرف الآخر، كان الأخ يبتلع النقود الورقيّة. الّتي قبضها نظير سُكوته. حزمة وراء حزمة. اختنق ولم يمت. تتضخّم أصوات الجمهرة مُهلّلة بالعرض. انخرطوا في ضجيج راجف. استطرد واحد منهم لزوجته مُعجبًا بعد أن كان لا يهدأ في مقعده «لقد كان

عقابًا عادلًا. الحياة على سطح الأرض» بخفّة خاطفة يتبخّر العلنَ. تلوح المرأة العجوز كنيزك رجراج مُلتهب. اختلقت اختلاقًا موجة من التصفيق. لوت شفتيها المُنكمشتين. فارتجّت شفتا "نور". تصير حجرًا. تصمد بعزيمة ليست بعزيمتها. سألتها عن أمرها. فردّت عليها العجوز وكانت وقحة: «كفانا من الأسئلة، كيفاش وعلاش» راحت تُصعّد يدها كما لو أنّها تكشّ الذّباب عنها. غابرة في قلقها وضجرها. ثمّ أدلت بدلوها في تهكّم شرس «ما سألتني عنه لن أحيطكِ علما به» تذكّرت "نور" ما قاله لها الكاتب. ينبغي أن تستخدم قُدراتها لُمواجهة مخاوفها. تُغمض عينيها ومثل أفاعي جزعة يتضخّم صوت الحيزبون ولا تكفّ عن الثرثرة. تتألّف هالة بيضاء وتكتنف "نور". كخفافيش شيطانيّة غير ثابتة تتعالى العجوز في حالة من الذعر. تُصعّد "نور" ذراعها اليمنى المُسترخية وتستهدف بتموّجاتها البيضاء، الّتي تنفذ من راحتها كقرع الطبول، المرأة العجوز، فانهارت أرضًا وكان سُقوطها مُروّعًا. لكسر هذا التوافق المُحيط. مُكهربة المرأة العجوز كسُحب ظلماء راعشة. تبرق وتتوارى بشكل أسرع من غمض العين. تُقهقه بأزيزها المُخيف. وبعينين خبيثتين، مخرومتين، ومُستديرتين تنقلب ضحكاتها إلى قذائف مُتراشقة. مُقرّة العزم على أن تُصيب في

مقتلها. أن تقطف رأسها، إن اقتضت الضّرورة. عند زاوية الظلام تقف "نور" على قدمين راجفتين. مثل جسد من بُكاء. من عميق الشّجن تستجمع قُواها الانتقاميّة. ترسل تموّجاتها في اِتّجاهات متفرّعة-في شكلٍ لولبي-على أمل أن تُصيب، المرأة العجوز، الّتي لم تكن في مُتناول البصر. تلوح الأخيرة-في فوضى السّحق-ساخطة كإعصار غاضب مُدمّر لا يعرف الشفقة مُرسلة شحُنة ناريّة طائشة إلى "نور". الأخيرة تنهمر عليها فواجع تشقّ دماغها إلى شقّين. وابلًا من أضواء مُتعدّدة الألوان تُباغتها فتحتدم القُوى ببعضها البعض. تتضخّم دائرة كبيرة شفّافة على وشك أن تتفجّر. ينبعث منها وهج فيه صُفرة لافحة. كاوية. إلى مقياس الانصهار. الهالة تذبل. تصطدع. في صرخة طويلة غير مسبُوقة تلفظ أنفاسها. سطع نجم "نديم" في ذلك الوقت. اكتمل جمعهما. يقبض بيد "نور". هُما معًا عليها. يشتطّ توهّج الهالة. تنثر المرأة العجوز رذاذها على جدار التّحصين. تُحاول إختراقه. الرّذاذ يرتدّ إليها. تفقد احتكامها ثمّ تهوي. تُقيم الصّراخ. بقلب خاوٍ يتلهّف إلى عتمة الأحقاد تتقهقر مكنتها. تُطرقع إصبعيها الإبهام بالوسطى لكنّه لم يطرأ شيء. تُطرقع إصبعيها ثانية. لم يحدث شيء. تُطرقع إصبعيها ثالثة. بين فتح وغلق تُوصد الأبواب مُجلجلة. غرق الثلاثة في أبعاد

مكان غير معلوم. وعِرة، سفّاحة، ذبّاحة، تنكمش المرأة العجوز في الركن الأكثر إعتامًا بين متاهات الزّمن. طفقت تتخبّط بعُجالة رهيبة. وإصرارها مُندلع لا يهدأ. تبرق من وقت لآخر -مرسلة مُفرقعات سوداء تنفجر- يندفع دويّها الماحق في مواجهة مُفاجأة لتخترق الجدار العازل. فتوغّلت رياحٌ عاصفة، طاحنة، باردة. اخترقت الهالة الشاسعة. بينهما وشائج رفيعة تتمزّق. رياح عنيدة تعبث بشعريهما. وباندفاع مُداهم تبرق المرأة العجوز قُبالتهما إذّ ذاك. كبالوعة تأكل الأخضر واليابس. والأحلام والكوابيس. والحياة والموت. تُقاتلهما مُقاتلة الند للند. وجهها قد غطّاه سواد الحريق. شعرها منكوش. مُنتفخ بالسُّخام. وتغوص بذراعها في صدر "نديم" الّذي تجمّد في اللّاشيء، تعصر بواطنه حتّى مرفقها. مصيره على المحك أشدّ ما يكون. تناثرت سنواته الّتي حصدها الانتظار الصّامت. اختنق. لاهثًا يتأوّه. وانخرط في الزعيق. يبكي نكبته. مجاهل مُعتمة افتراسيّة ينفجر منها شيء ينتحب باختناق وقذارة. تشتطّ مُواجهة ضارية لن تنطفئ بينهم. يُراود "نور" شعُور مُفجع يركلها إلى كسر حاجز الفقد الرهيب. وحده الموت لا يهدأ. الخسارة تدلّ دلالة صارخة على النّهاية. يتسرّب المخاط من أنفها. سُدّ الفقد قد انفجر. يتسارع فيه سائل لزج أسود يُرغي ويزبد عبثًا. فتُلملم قواها مُتوهجة بالخُسران

وذابلة إلى حد التلاشي. نظراتها تُشاهد رقص اللهب وتطلق صرخة مدويّة. تبرق قُوّة شفّافة تفصل المرأة العجوز، وجعلتها على مقياس من التباعد. فأُصيبت في ركبتها اليمُنى. هوت أرضًا تتأوه وجعًا. غمغمت بصوت خفيض. في وقتٍ عصيب، اِنفتحت بوّابة دائريّة سوداء تجتازها الحيزبون تطفو فوق سحابة من الظلام - آملة ألّا تخذلها قواها المُتفائلة-وبشقّ الأنفس تتلمّس طريقها صوب حجرتها المركونة بين عالمين. تفتح "نور" عينيها. يُلتهم دماغها، حزينة النّفس إلى نُقطة العجز، دُموع كئيبة مُكدّسة مُتراقصة تحوز من أهدابها. جسدها مرضوض. كانت تقطر بالعرق. تُطلق شهقة خانقة. تتصلّب عضلاتها وتتراخى. كان وجهه مُبلبلاً، يخفق خفقان خروف ذبيح. وفي فورة الحرب المشبُوبة الّتي لن تعرف السّلام، تُنير المرأة العجوز سائر الشّموع المركونة في غرفتها الرماديّة بطرقعة -مع إثارة ضجّة- وتصرخ بألم حارّ في حين ينبجس من راحتها ضوء يقوم بتطبيب الشرخ الّذي أُحدث -إلى أن اندمل- وضجّ صوت فاجعيٍّ مُتراعش. مُتوعّدة إيّاها بتفخيخ دُنياها بأشخاص خادعين.. ينفجر العالم بخداعهم ذاك.

(12)

كان ذلك اليوم- الّذي طُبعت فيه الرواية - يوًما صاعقًا. أشهرت "نور" النُسخة البكر في وجه الكاتب ما أن فتح لها باب منزله. كان لديها عادة-أن تكون الأولى- أن تُشاهد فرحة أيّ كاتب شاب يرى نُسخة روايته الأولى.

قالت بغبطة المُحرّرة «روايتكَ الأولى جاهزة»

قال كمن تلبّسه ساحر شرّير يُخرج ما في أغواره «مُحرّرة أدبيّة غبيّة»

نظرت إليه في دهشة من أمرها. أعطاها بظهره وانصرف عنها إلى الداخل. ثمّة ظل أسود يلتصق به أينما مضى. لم تُلاحظ ذلك من قبل. سقط الكاتب على الأرض وكان محض جُثّة. مكث الظلّ في فراغ الوجود. كانت مُحطّمة. كانت رخوة. وظلّت هائمة في سأمها. حواسها مائجة. عرفت - من المرأة العجوز- أنّ الكاتب لم يعد موجودًا مُنذ أن أنهى مخطوطة الرواية. كانت تُسيطرُ على جسد الكاتب. في ما يُوازي المنيّة ورشقتها المرأة العجوز بزفير له فحيح أفعى تترصّد فريسة. ترشقُ سمّها من مغاور الحقد وكل الغصّات المُتوحّشة أنّها من نال الحدّ الأدنى من الخلاص وليس بطل الرواية. إلى درجة التبلّد المُريب، للحياة نوائب مُباغتة لا تنتهي.

هي طريق مسدود لا نهاية له. كان ينبغي أن تتوقّع بعميق الخديعة. الخديعة، أن يحدث ما توقّعته يومًا.

كرّرت المرأة العجوز بنبرة ماكرة «خديعة النّفس»

كان أمرًا يجلّ عن التّصديق. لا خِلاف في الأمر. جلست المرأة العجوز على الكُرسي الهزّاز. تُحيك دمية شبيهة بـ"نور". تُتمتم بكلمات مُظلمة. يطنّ أنينها المُستفزّ. تخفت الإنارة تدريجيًّا. سيكون بصدور الرواية الآلاف منها. يجلسون في مقاعدهم. يفعلون ما تفعل. يحكمون كما تحكم. يسلبون كما تسلب. ويحصدون الحياة كما تحصد. كشيء غير يقيني يُلاطم "نور" نظرات المُجسّمات السّوداء، طغى عليها الارتياع والهلع والجزع. هُناك دُخّان كثيف مُزهر يمتدّ من خِلال خُروم النّافذة. ثمّ يستحيل إلى كُوم رماد فاحم السّواد. أنامل حاقدة مخشوشنة تضغط. ترفس بأرجلها. كشّرت لها المرأة العجوز بأنيابها المعقوفة. وأنشأت تُقهقه قهرًا. استحالت قهقهتها إلى نشيج مُلتاع. في حين تغرس دبابيس المقادير بالدّمية القُطنيّة. وتلفظ اسمها بين عبارات مُشفّرة ومُظلمة. بسُرعة خاطفة أحسّت "نور" بآلاف الإبر مزروعة في جسدها النحيل. تثقبه بجسارة مهولة. الأرض تمتدّ من تحتها ومُعجزاتها قابعة في مكانها تنظرها بعُيون قاسية، باردة، تفيض باللاّمبالاة

المُربكة. تُصبح عضلاتها أصغر فأصغر. يحدث تورّم أليم بين فقرات الظهر. مَات الموت. حَزن الحزن. انقبض الانقباض. صُدمت الصّدمة. مَرض المرض. كُره الكره. وشَهقت الشّهقة. خرجت راكضة-فيما-كانت تنقر بأطراف أصابعها على رقم دار النّشر كي لا يُوزّعوا الرواية بين المكتبات. لم يُعطِ أي منهم إجابة. وفي طريقها إليهم. اتّصل بها شقيقها مُخطرًا إيّاها أنّ والدتها أضحت بين حياة وموت.

«تعالِ في الحال»

لم تكن تعلم أنّ للمرأة العجوز خداع لا نهاية له. لم يُطلق عليها مُخادعة من لاشيء. مُفتقرة الظُنون بوميض المُعجزات. عاين بصرها «بوشكارة» متسمّرا على الرصيف بهيئته المُرعبة. مشدود مثل مطارق من خشب. جعل يُلوّح لها بيده. يخطف الأطفال ويحشوهم في وعائه. يطلق صيْحات مريبة. وهذا ما يُناقض تقاطيع الفرج الكاذوب. وتبقى ساكنة مُتفجّرة. تبقى ساكنة مُتفجّرة. نحو بيتها تتمادى "نور" في ماضيها مُقرّة اصفرارها، ذبولها، وتشبّثها بما لا يتشبّث به العُقلاء. الحفّارة تعبث بأعصابها. تُحدث ثُقبًا دُوديًّا يتدفّق منه شريط أسود يحمل الماضي. هذا الماضي يمتدّ إلى ما لا نهاية. الماضي الّذي بدأ ولم ينتهي ولن ينتهي. الطّريق الّذي فيه

أقدامها يحمل موت كلّ من مرّوا به بعد أن تنذّرت عليهم المدينة بما يُشبه استرخاص حياتهم وفقًا لحاجتها. تقافز وميضًا هستيريًّا شفّافًا، شاحبًا. نال التعب من عوائها. حُبست أنفاسها. دنت من مكان الموت. أيّ موت؟ ما الموت؟ الموت غطاء الآثام. الموت دواء الذلّ. الموت مغفرة الحياة. في جسد المُتربّص تُطلق أنينًا شبيهًا بهواء تُرابي في طريقه إلى صفير عاصفة. هرولت على سلالم لولبيّة حلزونيّة وبدت عليها ملامح الختام، قام في ظنّها أنّ نبض المدينة سينعدم حُبًّا بها، ستنطفئ أعمدة الإنارة وتتهشّم، ستتكاثف الغيوم قبالة القمر لتحجب إضاءته والحياة ستنعدم من بعدها. حدست أنّ كمينًا قهريًّا يقترب. تتشابك أغصانه إلى أن تكاد لا تعرف أيّ الكمائن أدنى خُطورة من الكمين المُتفرّع. ركلت الباب بيُمناها الرّاجفة، ركلًا، فلفحتها رياح عاتية والفجيعة دامية.

أدركت والدها عائمًا في موج سكره. ملقى على الأرضيّة. رمته بحركة تعبّر عن الاشمئزاز. مكث -على إيقاع الترقّب- يُدقّق النّظر بتُؤَدَة في قسماتها. يأكلها بنظراته. انحفرت تقاطيع وجهه. من الأرض، وثب والدها، قائمًا على قدميه. فوجئت به يُفتّق أزرار بنطاله. المطر كان ضاجًّا وخانقًا. شتاءً ورياحًا. بثقلٍ مُتكدّسٍ في الأعماق اِختنقت. تنتفض انتفاضة الذبيح. يُحال كل شيء إلى

خراب، يتوغّل ويستحكم، بعينين زُجاجيّتين يسودّ العالم المأساوي نصب ناظريها. وبات صوتها مليئًا بالألم ومُضرّجا بالدماء. تصرّ على أسنانها وعيناها مُحترقتان. خبايا الماضي قد تحرّشت بها. مرّ مدى زمني تتشرّب فيه مرارتها. ظلّت على خرسها. تتسمّر في موضعها أسيرة غضبها، خواطرها، وماضيها. هُناك شبه دفين بينها وبين السّآمة المُتّصلة. اِستشرى شيء فظيع ينبض شرًّا. مُتهالكة كانت، خرجت كلماتها بنبرة خانقة مُقدّدة. بتحوّط لها أن تُغالي فيه لطمته بحقيبتها. بالقهر المُتجذّر النّامي في أعماقها. وبملء تعبها وغضبها تقفز من موْطئ قدمها. وفي طريقها إلى التشظّي حثّت خطاها -على عجلٍ مُتجمّر- نحو غرفتها. كنافورة يندلق ماؤها بخفّة البرق. دون أن تلوح منها التفاتة. مدفوعة بأيدٍ مُتوارية. يتّسع ثُقب يخرج سواد سنوات مُظلمة اتّسعت بالفاجعات. وفي مُنتهى هذا الخراب العائلي انتفخت عينا "نور" عن آخرهما، كما لو أنّهما أطباق. مُتفرّدة في مُجابهته. محمومة تُواجه هجماته. تُفتّش عن الخيط الهادي في كومة من الطرقات المُتشعّبة. كان لجسدها ذلك الكابوس الطفولي، يتقاسمه الآلاف مثلها. تعجّ بالحركة. يخنقها بكلتا يديه. يُلاطف إلى ما فوق فخذيها بركبته. يعضّ طرف أذنها. تُوقض الشهوة الغامرة في دواخله الرجراجة. يُظهر قُوّة أكبر من

المُتوقّع   تمطر.. تمطر.. تمطر ببغضاء و أحقاد تُمزّق الأحشاء. مُمتلئة بالسّآمة من صميم قلبها، تنبض دمًا، تعجّ بالحركة. مُنطفئة. خامدة. كقلب لم يكن حقيقًا بالعدالة الحقّة. كانت تنشطر، تنكسر، تتشظّى تتلقّى حدفها. باشرت جُمجمتها في الدواران السّريع. في عينيها شُعاع مُتجمّد من أتُون الإنهاك. تراءى الخلاص مثل شيء مُحال الإتيان. تبدّت الحياة مثل موت عصيّ القُدوم. تلامح الموت مثل حياة أبيّة المجيء. في طرفة حياة وموت، تموت الحياة إلى عِناق أبدي يحتوي هذا التمزّق. تذوي هاته الأسرة المُحطّمة الّتي لم تعرف كيف تحمي أفرادها من شُرورها. تشرذمت منذ تأسيسها. تأسيسها كان خطئًا فادحًا، ورطة.

نأى الأب بنفسه عن ابنته. دهش من أمره. رمقها مُستخلصًا. وعبثاً جلست "نور" القرفصاء. تتبخّر بين الوعي واللاّوعي. لسانُها يقطرُ دمًا. أمّا ما كان من أمر الأمّ فكانت راقدة في الغرفة المُجاورة. تملك شُعور لعلّه الموت. كانت تسمع. تنظر بأعين دامعة. على وشك أن تُصبح عمياء من فيْض البُكاء لأنّها جعلت ما جرى لأبنتها طي الكتمان. تتمنّى أن تتقيّأ ما يُطحن في جوفه. استحال صوتها دوّامة بكماء مُتشنّجة. كان حلقها تُرابيًّا، لا يُنتج كلمات. واستسلمت إلى الموت. دلف شقيقها وخرّ في مكانه. مشحُون

بالعَويل الذّي لا يخرج. استولى على مزهريّة وحطّمها على رأس والده. ثم رجم نظرة أخيرة إلى شقيقته. جرّ والده. وكان رأسه يرتطم بالسّلالم. تمطر. تمطر. تمطر ببغضاء و أحقاد تُمزّق الأحشاء. كانت "نور" هلعة، مُتوتّرة، جذبت نفسًا عميقًا منزوع الروح. ومزّقت شرايين معصمها.

إلى أيّ مدى يُشكّل الجسد تعجيزًا على العقل؟ وإلى أيّ مدى يكون العقل حاجزًا أمام الجسد؟ وأنّى طريق الاهتداء لخلق توازٍ يُؤمّن سعيًا وراء السّلام الدّاخليّ؟ ينفجر الجسد باكيًا فيصبح العقل مريضًا. كم هو غبيّ هذا الجسد.. وقح ودنيء ورخيص إلى النّطاق الحيواني المُطلق. كلّما التزم المرء بالجسد نأى بنفسه عن الفضيلة. أخيرًا يفهم المرء قول أفلاطون: «إنّه شيء خبيث تورّطت داخله هذه النّفس». ونحو الكتمان المُتّصل ينبجس رُكام سُخام العقل من تحت أنقاض بواطن خفايا التعقّل، ويُؤدّي إلى شواش ضبابيّ على حواس الجسد. تحدث مُفارقة جُزئيّة إلى أن تُعانق انشقاقات كُليّة. وصوب بُلوغ مواقف حقيقيّة، والتقصّي خلف ماهيّات الغوامض، يجد المرء نفسه في أبعاد مُشوّهة ومُفترقات من المُغالطات والأحوال المعطوبة الّتي تُفضي إلى تظليلات غير مسبوقة ومسارات غير منتظمة عمّا هو مرجو من الظنّ ومن ما هو مرجح

مـن مواقـف التبـاين. وبـالنّظر إلـى تقرّحـات الجسـد تُعـاب الأنـا المُحكمة بالتفكّك. يُسجن الجسد في قُرص لا يهدأ من الملذّات، والرّغبات، والمُشتهيات. يذوي العقل المتخارج عن حُدود التفكير القويم، شيئًا فشيئًا، إلى أن يغدو رخوًا في وجه مُقتضيات الجسد ومُتطلّبات الكون المُتعفّن. في الموت هُناك علاقة العقل والجسد.. الموت وسيط بينهما. وهو الحدّ الفاصل بين ما هو مشروع وما هو غير مشروع.

خرجـت مـن الغرفـة - بخُطـى مُتعرّجـة- والعـرق ينضـح منهـا. معصماها ينزّان دمًا. تحرّكت نحو أمّها. ألقت نفسها عليها. غرقت في نواح وجيع. بدأت تموت أخيرًا. ينجذب إليها موت أخرس. تتغيّر ملامحها تمامًا كما يتبدّل العالم، يكون التغيّر أشدّ قباحة و أغزر فجاجة. الانفضاض عن الوُجود، كانت بُغيتها، وهي الآن في طريقها المُقدّس إليه.

أُقتيد الأب - بعُنف وبشاعة- من رقبته. جرّ له الرّأس في مُواجه الحائط إلى أن أدماه. كانت ومضات الماضي القميء تنخر ما في عقل "حامد". في شريط سريع يُعرض بتفاصيله من زاوية خرساء لما كان والده -مُنذُ وقتٍ سحيق- يفعله بشقيقته. زاغ عن طوره، قيّد والده على خلفيّة السيّارة. ضغط - باختناق- على دوّاسة الوقود

ضاربًا على الزمّور. جرجره إلى أقصى حدود المدينة. وكان المطر ينهمر. ارتفعت صرخات الأشباح ووجّهت إليه الإهانات الأكثر شدّة لأنّه باع قضيّة الزّمن. لا يُريد أن يشعر أكثر ممّا شَعُرَ. يخترقه حبل سميك من الفقاقيع والحجارة المُتقاذفة. كان مُتعطّشًا-من قيعان نفسه المُنتفضة، الغاضبة، المُتوحّشة-إلى ارتكاب المزيد. خرج عن انكتامه. قوّض باب السيّارة-مُختلقًا ضجّة جليلة- واستولى على والده الّذي كان يهذر على الدّوام. شرع يدسّ التّراب في حُنجرته. وبأصابعه يفلق له العينين. كان الدمّ يسيل مبعثرا على وجه والده. ليس ذلك فحسب، بل مدّ سكّيناً من السيّارة-مُتسلّطًا عليه شُعور شيطانيّ، طاحن، مُهلك-وأتلف أنف والده وأمرغه بالتّراب. انتهى بذبحه. تركه جيفة قذرة. كما تُذبح الدجاجات. كما لو أنّه جزّار مُتمرّس. أم أنّه يتحيّن هاته اللحظة. في ليلة ما. في مكانٍ ما. لا يطأه المشاة. حيث الانتقام له أن يُصبح حقيقة. حقيقة تراها رأي العيْن. ظلّ-كالزّوبعة الهائجة-تنبعث منها صرخة صاخبة. يُقلّب الدماء بين يديه. يطبق أسنانه. يعجن الزُجاج الدّامي. وبلغ به الجنون مداه.

في يوم الدّفن، اِمتزج الهواء بسموم خانقة. شهدت درجات الحرارة انخفاضًا مُلفتًا. كان الجميع يرتجّ ويهتزّ من البرد الزّائد والأسنان

تصطك. حفّار القبور يُنزل الجُثث في القبور-الواحدة تلو الأخرى- جُثث مُسجّاة بالكفن المُرتخي. يُهيل التُراب فيما بعد. شُرّعت شقّة العائلة على مصراعيها يتأتّى منها تراتيل القرآن الشجيّ. وفي هذا المشهد المأتميّ، كانت إحدى قريباتهم تُذيع نبأ مصرع العائلة في آذان المُعزّين. بأنّ الأب اغتصب ابنته والابن قتل أباه والابنة قتلت نفسها والأمّ حصدها الموت جرّاء تلك الفجيعة. هذه العائلة مثل مثلث برمودا، كل من دخل إليها هلك. كان الباب مُنفرجًا بمصاريعه. تلاشت أشباح المعزّين الواحد تلو الآخر. طارت ورقة شتويّة صفراء آتية من فصلٍ خريفي. جرفتها الرّياح من مُستقرّ الدّفن.

مكث "نديم" على قبر "نور" ومن أجلِ موتها سامحها. كشخص مُؤمن بأنّ المأساة سرمديّة.. من الثّابت سيصطفي البقاء. كانت بصيرته الأخيرة للأشياء مُخيفة إلى حالة ما نقلت الواقع إلى خيال بلا حُدود فاصلة. حتّى صرخته مُتّصلة فوق العالم وبعد ذلك بشكلٍ مُتقطّع تحت العالم وأخيرًا في حالة انتفاء من وراء العالم. كما الانتظار والفجيعة يختلطان ويُكوّنان الأيّام بلون الغيم فقد اصطادوا منه أشياءه وتركوا له ذاكرته.. ومخاوفه الخاصّة الّتي لا تُقهر. وهُنا، في هذا الفجر، وفي خِلال خِضم مزْقَ الشُعور، يحتضن تُرابها

بتقاسيم الأخرق. يرتعش ويتجمّد ويذوي باختناق عميق لا ثُقب له. يُخالجه السواد والفقد المُتجمّر. يُريد أن يتوقّف عن النّحيب ولا يستطيع. كُتِبَ على قبرها «إذا لم تضع حدًّا لماضيك فسيعود ماضيك ويضعُ حدًّا لك»

(13)

كانت السّماء قد صارت باتّجاه دقائق الارتجاف. على أحرّ من الجمر. شرائط المطر تتساقط على المباني المُحبطة والمُرتعشة. عُيون مُلتصقة في الفراغ تُشاهد. نُشرت الرواية وغزت المكتبات. كل من قرأها وشهد حدثًا نفسيًّا مُؤسفًا، لازمته المرأة العجوز مثل ظلّه. تستعرّ فيها حرائق مُتوهّجة. وأحقاد العالم تُحلّق فوق رأسها. والهواتف النقّالة ترنّ ورسائل هستيرية تأتي ببساطة وسُخرية تُخطرهم أنّ الغد القاسي المُنتظر سيأتي مُتراقصا بقدر ما يشاءون ويقلّهم إلى كُرسي العرش وسوف يتبوّؤون منصب الحاكم الّذي سُيغيث الأمم من الانهيار، فهم جميعهم المهدي المُنتظر المضروب بخلاص البشريّة. المدينة مُرتبكة من قبل هذه الحيزبون التي تصطدم بها العيوب. المدينة تلتبس من العجوز حقدها، صراخها، كرهها. المدينة هي الهاوية، جمرة، يحترق العقل في لهيبها. كانت المرأة العجوز المُتسلّطة والشرّيرة مُرتفعة في الجو. هوجاء مثل الرّصاص. تُبصر شبح أحلام المدينة الّتي استحالت إلى كوابيس لا تنتهي. العجوز ضاجّة بألسنة مُدمّرة. ترتعش بتشنّج كزوابع تحمل الخراب. شيء قبيح ينبثق منها، لا يُمكن ردعه، شيء لا يعرف الغُفران أو الإشراق من جديد. الرّياح تلفّها. تنفجر بشُرور

مخزونــة. كبحــر رجــراج لا يعــرف الاســتكانة وعيناهــا جمرتــان متُوقّدتان تبحثان عن الموت. ظلّت وعِرة بنظراتها. ترسم طريقًا بخنجرًا صدئًا، فيخرج الطّريق مُشوّهًا، مُعتلًّا، مليئًا بالانتقام. تناثرت منها شرارات ناريّة أشدّ من هولات الاحتضار. تلج هذه الأفعى بوثروبس إلى أدمس أركان المجاهل. وهي تتراقص على أطراف أصابع قدميها وتطوف حواليها كراقصة باليه. كان هُناك طرقًا شديدًا على باب المدينة. خبطًا على أسوارها. همهمات غريبة في جوف الأزقّة الّتي تقطُن فيها الذئاب البشريّة. كانت المباني تتلوّى وتكاد تسقط حجرًا إثر حجر. أركانها تتراعش. كان الأصحّاء يتسلّقون الأسوار. يُبدون مُحاولة الخُروج من المدينة. أيادي سليطة قامعة مُسلّطة تسقطهم. تُريد منهم البقاء. يرتبك رجل بالغ الكبر عكس الريح. يتوكّأ على عصاه. سراعًا ما يتوارى خلف شجرة. يرتجف. ينثال البول على ركبتيه. تهزأ به المدينة. تخبره بمدى كم هو بائس ووحيد. تُوجّه له صفعات فينزلق إلى الأرض. وزلزلت، مدينة الموت-الّتي لا تموت-صارخة في وجوههم، قائلة «أنا أكون.. أنا أكون.. أنا أكون» وجاء ردّ الأصوات مُعاندًا «هلّا فككتِ قيْد عقولنا؟» كان السّواد قد بلغ مبلغًا وراح على أقدامه ينهش كل من يعترضه.

أنهيت مُسودّتي الأولى في ديسمبر **2015**

كُتِبت الرواية في:

مساكن: تونس

نيس: فرنسا 2020/2019/2017

أخيرًا يفهم المرء قول أفلاطون: «إنّه شيء خبيث تورّطت داخله هذه النّفس». ونحو الكتمان المُتّصل ينبجس رُكام سُخام العقل من تحت أنقاض بواطن خفايا التعقّل، ويُؤدّي إلى شواش ضبابيّ على حواس الجسد. تحدث مُفارقة جُزئيّة إلى أن تُعانق انشقاقات كُليّة. وصوب بُلوغ مواقف حقيقيّة، والتقصّي خلف ماهيّات الغوامض، يجد المرء نفسه في أبعاد مُشوّهة ومُفترقات من المُغالطات والأحوال المعطوبة الّتي تُفضي إلى تظليلات غير مسبوقة ومسارات غير منتظمة عمّا هو مرجو من الظنّ ومن ما هو مرجح من مواقف التباين. وبالنّظر إلى تقرّحات الجسد تُعاب الأنا المُحكمة بالتفكّك. يُسجن الجسد في قُرص لا يهدأ من الملذّات، والرّغبات، والمُشتهيات. يذوي العقل المتخارج عن حُدود التفكير القويم، شيئًا فشيئًا، إلى أن يغدو رخوًا في وجه مُقتضيات الجسد ومُتطلّبات الكون المُتعفّن. في الموت هُناك علاقة العقل والجسد.. الموت وسيط بينهما. وهو الحدّ الفاصل بين ما هو مشروع وما هو غير مشروع.

بنـات النـفس

ياسين الغُماري

رواية

بنات النفس

ياسين الغُماري

ISBN 978-9922-736-15-0

9 789922 736150

أبجد للترجمة والنشر والتوزيع

Ebjed for Translation, Publishing & Distribution

009647831010190

hussein_nahaba

info@ebjed.com